

تاريخ الحروب الصليبية

تأليف :

د. محمود السيد

استاذ التاريخ الاسلامى

كلية المعلمين المدينة المنورة سابقا

مؤسسة شباب الجامعة

٤ شارع د. مصطفى مشرفة

تليفاكس : ٤٨٧٩٤٧٢ - إسكندرية



المكتبة



تاريخ الحروب الصليبية في مصر والشام

تأليف

الأستاذ الدكتور / محمود السيد

أستاذ التاريخ الإسلامى

كلية المعلمين المدينة المنورة سابقاً

٢٠٠٤

الناشر

مؤسسة شباب الجامعة

٤٠ ش الدكتور مصطفى مشرفة

تليفاكس ٤٨٧٩٤٧٢ إسكندرية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذَلْكُمْ فَمَنْ
ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ
الْمُؤْمِنُونَ﴾

صدق الله العظيم
(آل عمران: ٣ - ١٦٠)



المقدمة

تشكل الحروب الصليبية فى تاريخ العروبة والإسلام فى المشرق والمغرب تجربة كبرى هامة تحتوى على كثير من العبر التى تحتاج إلى البحث والتأمل للإستفادة من الأخطاء التى وقعت لإمكان تجنبها ومواجهة أخطار الحاضر والتغلب عليها ويتحقق النصر للعروبة والإسلام.

لقد إستفاد الغرب الأوربى من الحروب الصليبية التى عادت عليه بالفائدة حيث صحبت هذه الحروب وأعقبتها نهضة شاملة أنتجت نهضة أوربا الحديثة. بينما إنتهت هذه الحروب الصليبية بتدهور وركود وإنحلال استمر طويلا عقبها فى البلدان العربية.

والغالب أن الحروب الصليبية فى حد ذاتها هى المسئولة عن الإنهيار الذى تعرضت له البلدان العربية فى أواخر العصور الوسطى حيث استنفدت هذه الحروب جهود هذه البلدان فى الدفاع عن كيانها وكرست مواردها ونشاطها للقضاء على الأخطبوط الصليبي الذى ثبت أقدامه فى بقعة هى فى الحقيقة قلب الوطن العربى، ومن هنا أخذ الصليبيون يهددون بقية الشام والعراق ومصر والحجاز حتى المغرب والأندلس، فلم يتمكن العرب خلال ذلك الخطر الداهم بالإشتغال بالإنشاء والتعمير والنشاط الحضارى.

على أن مظاهر الضعف والإنحلال السياسى والتخلف الحضارى بدأت فعلا قبل ظهور العدوان الصليبي على بعض الوطن العربى وقبل بداية حركة الاسترداد فى أسبانيا.

فقد ظهرت الثورات والخلافات المذهبية فى الدولة العباسية منذ القرنين الثالث والرابع الهجريين التاسع والعاشر الميلادى، هذا بخلاف الإنقسامات التى تعرضت لها الدولة العباسية حتى قامت دويلات مستقلة فى المشرق والشام ومصر وشمال افريقيا.

كما أن البويهيين فرضوا سيطرتهم على الخلفاء العباسيين ثم أعقبهم السلاجقة، وهذا ما أضعف الخلافة فى المشرق العربى قبل بداية الحروب الصليبية. كما أن الضعف بدأ يظهر فى خلافة الدولة الأموية فى قرطبة فى الأندلس منذ أوائل القرن الخامس الهجرى / الحادى عشر الميلادى، فبدأت حينذاك القوى المسيحية فى شمال أسبانيا العمل على طرد المسلمين من الأندلس.

وهكذا يتضح أن الحروب الصليبية بدأت بعد ظهور حالات التفكك والضعف التى لحقت بالبلاد العربية فى أواخر العصور الوسطى. ثم جاءت هذه الحروب الصليبية لتزيد من الضعف العربى.

لقد تعددت الحملات الصليبية على بلاد الشام ومصر الأولى فى أعوام ٤٩٠-٤٩٣هـ / ١٠٩٦-١٠٩٩م، التى دعا إليها البابا إربان الثانى فى عام ٤٨٩ / ١٠٩٥ والتى تمكنت من تحقيق هدفها فى تأسيس مملكة بيت المقدس وإمارات صليبية أخرى. ولو أن ذلك يرجع إلى ضعف العالم الإسلامى فى تفككه حينذاك مما سهل على الصليبيين مهمتهم.

وتحظى الحملة الصليبية الأولى وتلك التى قادها لويس التاسع ملك فرنسا للإستيلاء على مصر فى عام ٦٤٦ - ٦٤٨هـ / ١٢٤٨-١٢٥٠م

بالاهتمام الأكبر من هذا البحث. وثمة أهمية خاصة لهذه الحملة وهي أن أحداثها صاحبها تطور داخلي خطير أدى إلى زوال الدولة الأيوبية وقيام دولة المماليك في حكم مصر والشام.

والواقع أن المماليك أحسوا بأهمية الدور الذي نهضوا به في تخليص مصر من لويس التاسع وحملته، فازدادوا نفوذا حتى تم لهم الإستيلاء على زمام الحكم في مصر.

أما لويس التاسع فإنه على الرغم من فشله في مصر ووقوعه في الأسر، إلا أنه بعد الإفراج عنه من الأسر ورحيله من مصر، اتجه بقلوبه إلى بلاد الشام لعله يعوض فشله في مصر. ثم انسحب منها وعاد إلى بلاده في عام ١٢٥٤/٦٥٢ بعد ما فشل في انتزاع بيت المقدس. وظل الصليبيون قابعين في الشام يتريصون بأهل البلاد الدوائر ويحتلون أرضاً عزيزة على كل عربي ، لذلك وضع سلاطين المماليك في مصر وأنفسهم سياسة خارجية واضحة، تتلخص في تطهير أرض الشام من الدخلاء الغاصبين وتأمين العرب في أوطانهم وبلادهم وفي سبيل تنفيذ هذه السياسة ضحت مصر بطاقتها البشرية والمادية فكانت الجيوش والحملة تخرج منها مرة بعد أخرى لمنازلة المغول حيناً ومحاربة الصليبيين أحياناً حتى زالت دولة الصليبيين نهائياً من الشام، وزال أمر تلك الجموع من الغزاه الغربيين، وعادت بلاد الشام إلى أهلها خالصة لهم.

كما تتبعنا في هذا البحث تحركات قائد الحملة الصليبية السابعة الملك لويس التاسع ملك فرنسا بعد إنسحابه من مصر وعروجه إلى الشام ثم

انسحابه من الشام وفشله فى إستعادة بيت المقدس، وعودته إلى فرنسا ثم عودته مرة ثانية إلى محاولة غزو البلاد العربية الإسلامية متجها إلى تونس حتى وفاته فى عرض البحر فى المحرم عام ٦٦٩ / أغسطس ١٢٧٠ بون أن يحقق ما كان يصبو إليه من غزو لتونس الشقيقة .

والآن وفى هذا العصر الحديث، فإن ظاهر الأمر وباطنه هو أن العرب والمسلمين مازالوا يعيشون جو الحروب الصليبية فمنذ الحملة الفرنسية النابليونية الصليبية على مصر^(١) هذه الحملة الصليبية المقنعة التى بدأ بها الغرب الأوروبى عهدا جديدا من تاريخ الاستعمار فى الشرق الأوسط وحرب فلسطين العدوانية وصمت أوربا والغرب جميعه لا يسمع ولا يرى ولا يتكلم والعدوان الثلاثى البريطانى الفرنسى الإسرائيلى على مصر وحصار العراق وحصار ليبيا ومضايقه الغرب الأمريكى للسودان. فالحقيقة أن رواسب الحروب الصليبية ما تزال قائمة ووحدة العرب تقلق الغرب على وجه الإطلاق. وعلى العرب والمسلمين لكى يعود إليهم مجدهم أن يتحدوا فهو الطريق إلى المسجد والنصر.



(١) د. فؤاد زكريا : مذهب النرات الروحية- هيئة الكتاب - القاهرة عام ١٩٩٥ - ص ١٧ .

الفصل الأول

أوربا في بدء ظهور الحركة الصليبية



أدت موقعة ملازكرد بين السلاجقة والبيزنطيين في آسيا الصغرى، تلك التى انتهت بانتصار السلاجقة ووقوع الامبراطور البيزنطى فى الأسر، أن استغاث البيزنطيون بأوروبا الغربية والبابوية، وكان النزاع بين البابوية والامبراطورية فى العصور الوسطى فى القرن الخامس الهجرى الحادى عشر الميلادى حيث بدأت أولى حلقات النزاع عام ٤٦٩ / ١٠٧٦ قبل الحملة الصليبية بنحو عشرين عاما، واستمر بعد ذلك سنوات طويلة وقد جمعت كل من البابوية والامبراطورية كل قواها وجهدها للتفوق على الطرف الآخر. وكان لابد لهذه الطاقة من متنفس خارجى لتوجه إليه، وهنا ظهرت فكرة الحرب الصليبية لتجد للغرب الأوربى مجالا واسعا لصرف نشاطها المكبوت وطاقاتها المتدفقة.

اتخذت حركة الغرب الأوربى المسيحى من استغاثة المسيحيين فى الشرق ضد المسلمين ستارا دينيا للتعبير عن نفسها بقوة، وساعد على ظهورها الأوضاع الفكرية والاجتماعية والاقتصادية والدينية فى ذلك الحين. وقد امتدت الحركة الصليبية فى الشرق إلى نحو قرنين من الزمان. فبدأت قرب نهاية القرن الخامس الهجرى / الحادى عشر الميلادى .

وهذا هو الدور الحاسم التقليدى للحركة والذي يقع بين الدعوة للحملة الصليبية الأولى وطرد الصليبيين نهائيا من بلاد الشام. على أن التيار الصليبي لم ينته تماما بعد سقوط عكا عام ١٢٩١/٦٩٠ حيث استمرت الحرب الصليبية طوال القرن الثامن الهجرى/ الرابع عشر الميلادى وشطر كبير من القرن الخامس عشر.

وعلى الرغم من استمرار الحملات الصليبية على بلاد الشرق يكاد يكون سنويا منذ عام ٤٩٢هـ / ١٠٩٨م فإن ثمان حملات صليبية هي التي حددت لها أرقاما عديدة ، ابرزها فى التاريخ وهى التى اتجهت منها أربع حملات نحو الشام (الأولى والثانية والثالثة والسادسة، واثنان ضد مصر (الخامسة والسابعة) وواحدة ضد القسطنطينية (الرابعة) وأخرى نزلت فى شمال افريقيا (الثامنة). وهذه الحملات البارزة بين الحملات الصليبية هى التى حققت نجاحا فى الأراضى المقدسة مثل الحملة الأولى أو ما كان لها من إتجاه خاص جديد غير معتاد فى الحملات الصليبية (الرابعة والخامسة) أو لخروجها يتزعمها ملك الغرب (الثانية والثالثة والسادسة والسابعة والثامنة) .

فعندما تعرض الأباطرة البيزنطيين لضغط السلاجقة وغزوهم لأرض الامبراطورية استغاثوا بالبابوية وطالبوا بنجدة عاجلة من الغرب الأوربي وكان لدى الغرب أسبابا قوية جعلته يتحرك لتلبية نداء الاستغاثة فاستجاب لتلك الدعوة بقوة، لم يكن العامل الدينى وحده هو الدافع للإستجابة وإنما كان هناك أيضا بجانب ذلك دوافع اقتصادية واجتماعية وسياسية ، فهى فى الحقيقة حروب دينية استهدفت عن طريق مباشر أو غير مباشر الاستيلاء على الأراضى المقدسة بالشام، كما أن الروح الصليبية كثيرا ما فترت فى بعض حلقاتها، وكثيرا ما غابت الدوافع الدينية بين التيارات الأخرى من سياسية واقتصادية.

ويرجع ذلك إلى أن غالبية المسيحيين عاشوا حياتهم فى الدولة الإسلامية فى أجواء هادئة عادية، ويؤكد ذلك الرسالة التى بعث بها

ثيودوسيوس بطريق بيت المقدس عام ٢٥٦هـ / ٨٦٩ م إلى زميله أجناتيوس بطريق القسطنطينية .

وفيها يؤكد رضاه عن معاملة المسلمين للمسيحيين وتسامحهم التام فقد كانوا يصرحون للمسيحيين ببناء ما يرغبون من الكنائس بغير اعتراض أو مضايقة، أما فترات تعرض المسيحيين لبعض الضغط أو الإضطهاد أحيانا فقد كانت حالات فردية لا تسمو إلى مرتبة الحرص الإسلامى على التسامح التام مع المسيحيين واليهود ولكن الإضطهاد كان يأتى من جانب بعض الأباطرة الذين أرغموا غير المسيحيين على الدخول فى المسيحية قهرا حتى أن شارلمان أمر فى القرن الثانى الهجرى / الثامن الميلادى بغرض المسيحية على السكسون والبافارين إجبارا وقهرا.

أما ملاحقه المسيحيون فى عهد السلاجقة ، فمرجعه ما كان من الصراع القائم بين البيزنطيين والسلاجقة، فقد عاش المسيحيون بين السلاجقة فى سلام دون أن يتعرضوا للأذى طالما أنهم عاشوا دون أن يخرجوا عن حدود الخضوع للسياسة السلجوقية.

أما ما أثاره البابا أوربان الثانى عن وجود إضطهاد ضد المسيحيين فى الشرق الإسلامى فى القرن الخامس الهجرى/ الحادى عشر الميلادى فقد كان يقصد الإثارة بين شعوب أوربا الغربية للترويج فى مصلحة مشروع الحملة الصليبية ضد المسلمين فى الشرق الأدنى فى أرض الشام، فقد قصد البابوية فى غرب أوربا أن تفرض سلطانها على الكنيسة الشرقية الأرثوذكسية وتجعلها خاضعة للكنيسة الكاثوليكية فى الغرب، ولكن تصدى

لهذه الفكرة الكنيسة البيزنطية الأرثوذكسية، وبذلك صعب على بابا روما تنفيذ فكرة إخضاع مسيحي الشرق لسلطانه

وفي القرن الخامس الهجرى/ الحادى عشر الميلادى استنجد الأباطرة البيزنطيون بالغرب الأوربى ضد السلاجقة فأنتهز بابوية الغرب ، الفرصة لفرض سيطرتهم على الكنيسة الشرقية ومحاولة دمج الكنيستين تحت زعامة بابا روما، وجعلوا هدفهم مصر محاربة المسلمين وحماية البيزنطيين واسترداد الأراضى المقدسة فى فلسطين.

وفى الحقيقة فإن غالبية من شارك من الشعب المسيحى فى غرب أوربا فى الحروب الصليبية كان له أهدافه ودوافعه وهى الهروب من حياة الفقر فى ظل النظام الاقطاعى البالغ القسوة أو الهروب من العقوبات المفروضة على المذنبين منهم أو لتحقيق مكاسب اقتصادية وسياسية فى بلاد الشرق . ومن الأدلة على صحة هذا القول هو اتجاههم نحو القسطنطينية فى إحدى الحملات الصليبية وهى الحملة الرابعة ونهبوا كنائسها وسرقوا أديرتها واعتدوا على أهلها بالقتل والضرب، وهم مسيحيون مثلهم، فإنن لم يكن الباعث الدينى وحده هو الدافع للتحرك الصليبي نحو الشرق وإنما بواعث أخرى اقتصادية، وسياسية، ولذا يتعين البحث عنها للاستدلال عليها.

لقد كان للعامل الاقتصادى دور بارز فى الحركة الصليبية نحو الشرق، ففرنسا مثلاً كانت تعاني مجاعة عامة لقلّة المعروض من الغلال وارتفاع أسعارها عاليا مما أدى إلى وجود أزمة فى الخبز ولذا فقد كان عدد الصليبيين من الفرنسيين فى الحملة أكبر من غيرهم من النازحين من

غرب أوروبا إلى الأراضي المقدسة في الشرق. كما أن الأحوال الأمنية كانت مضطربة في دول غرب أوروبا حتى تعذر على الجهات المسئولة إيقافها الأمر الذي أضر بالتجارة وبالأزراعة كثيرا، وهنا اضطر الأهالي إلى اللجوء إلى الهجرة هربا من صعوبة الحياة.

لقد قامت المدن التجارية في إيطاليا وفي غيرها من بلاد الغرب الأوربي بتقديم مساعدتهم إلى الصليبيين المتجهين إلى الشام وكان الدافع على تلك المساعدات الحصول على العائد المادي حتى أن مدينة البندقية عمدت إلى تضليل الحملة الصليبية الكبرى وهي الحملة الرابعة إلى غزو القسطنطينية واحتلالها بدلا من اتجاهها إلى الشرق لقتال المسلمين في مصر.

وقد حصلت مدن البندقية وجنوا وبيزا وحتى مرسيليا على إمتيازات كبيرة لتجارها في بلاد الشام من حكامها الصليبيين. مثل الإعفاء من الضرائب وغير ذلك من الإمتيازات المادية مقابل مساعدة الأساطيل الأوربية في ربط بلاد الشام بالغرب الأوربي في خلال تلك الحملات الصليبية المتجهة إلى الشرق.

وهكذا يتضح أن المصالح الاقتصادية والبحث عن جمع المال والثروات وإقامة المستعمرات وإقامة مراكز ثابتة في أرض العرب بقصد التجارة والحصول على العائد المادي وليس لخدمة الصليب وقتال المسلمين.

وقد تغلب حب المال وجمعه على الذين أسهموا في الحركة الصليبية إلى درجة التخاصم والتنازع فيما بينهم وقيام حروب بين الصليبيين بعضهم

وبعض فى أرض الشام، حتى ترتب على تلك الحروب حدوث تصدع فى صفوف الصليبيين انتهى بتمكن المسلمين منهم واستعادة ما سلبه الصليبيون من أرض الشام.

ولما حاولت البابوية ورجال الدين فى أوروبا ضم الصفوف بين الصليبيين تبين أن تغلب الخلافات المادية والمنافسات قد فاق حد الولاء للدين فلم يجد تدخل البابوية نفعا فى جمع الشمل الصليبي.

فالمجتمع الأوربي قد تشكل فى العصور الوسطى من ثلاث طبقات هم: طبقة رجال الدين وطبقة المحاربين وطبقة الفلاحين، وهى تمثل الأغلبية المطلقة بين الشعب الأوربي إلا أنها كانت مغلوقة على أمرها، فهم عاشوا يخدمون فى الأرض التى يملكها الحكام من النبلاء والفرسان ويملكون الفلاحين الذين هم عبيد وأقنان، التصقوا بالأرض لا يستطيعون خروجاً منها إلا بإذن صاحب الأرض فهم لا يملكون حريتهم الشخصية فى الحركة بعيداً عن الأرض التى يقومون بزراعتها، فضلا عن التزامهم بأعمال أخرى منها القيام بإنشاء الطرق والجسور وحفر الخنادق، فضلا عن ضريبة الرأس التى يدفعها القن لسيده، وكذلك تسديد الضرائب التى تفرض على المواشى وما تنتجه الأرض من محاصيل.

أما الطاحونة والمعصرة والمخبز والبئر التى توجد فى النضيجة فهى ملك لصاحب الأرض ويستخدمها الفلاح مقابل أجر معين يدفع لصاحب الأرض مقابل استخدامها والانتفاع بها ولا يجوز للفلاح اللجوء إلى جهة أخرى غيرها.

وفى ظل هذه الحياة البالغة القسوة، قامت الدعوة للحركة الصليبية ،
فلقت قبولا بين هؤلاء العبيد الأذلاء ورحبوا باللجوء إلى الدعوة الدينية
ليتخلصوا مما هم فيه من نكد العيش وذل الحياة فهم لن يجدوا أهون مما
لاقوه فى حياتهم التى عاشوها فى بلادهم الأمر الذى دفعهم للتوجه إلى
الأرض المقدسة بحثا عن الأفضل، فقد وعدتهم الكنيسة بالخير الوفير.

لقد لعبت البابوية فى الحركة الصليبية ضد الشرق دورا كبيرا حتى
إنها فرضت سلطانها على زعماء الحركة للقيام بدورهم فى الحرب على
الرغم من أنهم لم يكونوا يرغبون فى الإستهزام فيها لولا ضغط البابوية
الشديد حتى قبلوا قيادة جيوشهم ومنهم فردريك بربر وساوريتشارد قلب
الأسد وفيليب أوغسطس وفردريك الثانى أما لويس التاسع ملك فرنسا فقد
امتألت نفسه ورعا وتقوى دفعته للمشاركة فى الحرب الصليبية مشاركة
ساهم فيها بكل قوة وحماس حتى لقب بالقديس. أما بقية ملوك أوروبا فلم
تكن مشاركتهم إلا نزولا على رغبة الكنيسة وخوفا من تعرض من يمتنع
منهم عن المشاركة للحرمان والطرده من الكنيسة ورحمتها، فبفقد شعبيه
 ويفقد ولاء شعبه له. فقد امتنع الامبراطور الألماني فردريك الثانى عن
المشاركة فى الحملة الصليبية حتى أكره على المشاركة فيها.

أما الأمراء والفرسان فإنهم قد شاركوا فى الحرب الصليبية بقصد
الحصول على أرض يمتلكونها ويباشرون فيها نفوذهم، وقد تمكن فعلا بعض
هؤلاء الأمراء والفرسان من تكوين إقطاعات لهم فى بلاد الشرق. ثم وقع
الخلاف بين هؤلاء الأمراء والفرسان بعد أن استقروا فى الأرض الجديدة
حيث صار كل أمير يطمع فى الحصول على أكبر قدر من الأرض فوق

الصراع بينهم ولم تتمكن البابوية من فرض نفوذهم لفض النزاع الذى قام بين الصليبيين فى الأرض المقدسة. ولم يردعهم الخوف من أن المسلمين حولهم. بل الأكثر من ذلك بعضهم تحالف مع المسلمين بقصد التغلب على من ينازعه أرض أقاربه من الصليبيين. فكأن الوازع الدينى لم يقف حائلاً بينهم دون الصراع من أجل مصالحهم السياسية.



الفصل الثانى الإسلام والمسيحية

- * المسلمون فى القسطنطينية فى عهد معاوية
- * المسلمون والقسطنطينية فى عهد الوليد بن عبد الملك إلى نهاية عهد الدولة الأموية.
- * المسلمون فى عهد الدولة العباسية.
- * ظهور القوى الإسلامية فى عهد الأتراك السلاجقة

ظهر الإسلام فى القرن السادس الميلادى وتمكن فى أقل من ربع قرن أن يجمع العرب فى شبه الجزيرة ويوحد صفوفهم، وصار شعار هؤلاء العرب المسلمين (لا إله إلا الله محمد رسول الله) وقضى المسلمون على عبادة الأصنام والشرك بالله واجتمعوا على العدالة الاجتماعية والتعاون والمحبة. وفى المدينة قامت الدولة العربية الإسلامية وشمل الإسلام عرب شبه الجزيرة ولم يتعرض المسلمون لأصحاب الديانات السماوية من اليهود والمسيحيين ، فحرية العبادة مكفولة دون عبادة الأصنام .

بعد أن انتشر الإسلام فى ربوع شبه الجزيرة العربية اتجه المسلمون إلى الدول المجاورة، فبعثوا برسلكهم إلى دولة الفرس ودولة الروم يدعونهم إلى الإسلام. وبدأت هذه الدعوة المحمدية فى عهد الرسول محمد بن عبد الله عليه الصلاة والسلام. ثم واصل المسلمون الجهاد بعد وفاة الرسول فى عام ١١هـ / ٦٣٢ م وأخذت الفتوحات الإسلامية تقوى وتمتد إلى عدة جهات فى مختلف الأنحاء فى عهد الخليفة أبى بكر .

لقد حارب المسلمون امبراطوريتى الفرس والروم فى وقت واحد. قد بلغت الحرب حداً عالياً أثار إنتباه امبراطور الروم الذى بعث بقوة حربية يقودها أخيه. واشتبكت القوة الحربية البيزنطية مع المسلمين لذين أسرع إليهم من العراق القائد الفذ خالد بن الوليد وتقاتل الفريقان فى أجنادين بفلسطين عام ١٣هـ / ٦٣٤ م ولما توفى الخليفة أبى بكر وخلفه عمر بن الخطاب (١٣هـ - ٢٤ / ٦٣٤ - ٣٤٤م).

واصل المسلمون فتوحاتهم فاستولوا على دمشق عام ١٤هـ / ٦٣٥ م ثم على حمص. وعند ذلك جمع البيزنطيون نحو ثمانين ألفاً لقتال العرب

فهمزمهم العرب بقيادة خالد بن الوليد فى موقعة اليرموك عام ١٥هـ / ٦٣٦م. ولم يتمكن الامبراطور هرقل من النزول بنفسه لقتال الجيوش فى بلاد الشام لضعف قوته وكبر سنه. وبعد عامى ١٤، ١٥هـ / ٦٣٥، ٦٣٦م رحل الامبراطور هرقل عن أرض الشام عندما تأكد من عدم قدرته على مواجهة العرب ، فانسحب تاركاً بيت المقدس يقع فى أيدي المسلمين عامى ١٥، ١٦هـ / ٦٣٦، ٦٣٧م ثم توالى سقوط المدن التى فى أطراف الشام فى يد العرب مثل ماردين وميافارقين عامى ١٧، ١٨هـ / ٦٣٨، ٦٣٩م. وفى عام ٢٠هـ / ٦٤٠ استولى العرب على قيصريّة. وهكذا وقعت آخر المعاقل البيزنطية فى جنوب طرسوس.

وفى عام ٢١هـ / ٦٤١م فتح عمرو بن العاص مصر ثم سار عمرو من مصر واتجه إلى بلاد المغرب ففتح برقة فى عام ٢٣هـ / ٦٤٣م ثم أعقب ذلك قيام فتنه توقفت خلالها الفتوح العربية ثم تلى ذلك قيام الخلافة الأموية فى دمشق (٤١-١٣٢هـ / ٦٦١-٧٥٠م). ثم عادت الفتوح العربية إلى سابق عهدها وأخذ العرب فى فتح ولاية أفريقية فى عام ٤٤/٦٦٤ فأسس عقبة بن نافع القيروان لتحل محل قرطاجة عاصمة البلاد فى العهد البيزنطى، وأقبل البربر على الإسلام وقوى بهم المسلمون إلا أن القتال فى أرض المغرب واجه صعوبات حيث أخذ البيزنطيون والبربر يقاتلون العرب ببسالة وكانت الحرب طويلة وصعبة للغاية.

وفى عام ٧٨/٦٩٧ استطاع المسلمون بقيادة حسان بن النعمان أن يستولوا على قرطاجة. ثم جاء موسى بن نصير الذى بذل جهوده فى فتح بلاد المغرب الأقصى وظل يكافح حتى قوى تقوّد الخلافة الإسلامية فى

شمال افريقيا فى عام ٩٠هـ / ٧٠٨م.

ثم تمكن المسلمون من فتح سردينيا فى عام ٩٢هـ / ٧١١م وعبر طارق بن زياد مولى موسى بن نصير المضيق إلى أرض أسبانيا وفتحتها فى سنوات ٩٢-٩٥هـ / ٧١١-٧١٣م. وبذلك تم للمسلمين فتح بلاد الشام ومصر وشمال افريقيا ثم أسبانيا. وقد انضم الكثيرون الكثيرون من أهالى البلاد المفتوحة إلى الإسلام فاعتنقوه عن رغبة حقيقية دون إجبار أو ضغط.

لقد انتشر نفوذ العرب فى البلاد المفتوحة بحد السيف، أما انتشار الدين الإسلامى فقد اعتنقه أهل البلاد المفتوحة عن طوعية واختيار.



خاض العرب ثلاث وقائع بحرية هامة ضد البيزنطيين الأولى حسمت السيادة البحرية فى حوض البحر المتوسط وقلبت التفوق البيزنطى لصالح المسلمين، فى معركة ذات الصواري عام ٣٥هـ / ٦٤٤م. أما الموقعتان الأخريان المتعلقتان بحصار القسطنطينية، مرة فى خلافة معاوية ومرة أخرى فى خلافة سليمان بن عبد الملك فقد صاحبهما الفشل وتسببتا فى تدمير العدد الأعظم من قطع الأسطول الإسلامى .

خرج معاوية مع أهل الشام ومصر فى أسطول من مائتى مركب وتولى قيادته البحرية عبد الله بن سعد مستهدفا مهاجمة الدولة البيزنطية فى أراضيها واتخذ البيزنطيون أهبتهم للمعركة وأعدوا أسطولا كبيرا من ٥٠٠ خمسمائة سفينة أو أكثر محاولين الانتقام مما وقع لهم فى أفريقيا.

اشتبكت سفن المسلمين مع سفن الروم فى معركة عنيفة. فربط المسلمون سفنهم ببعضها إلى بعض وحولوا المعركة البحرية إلى معركة أقرب ما تكون إلى المعارك البرية واشتد القتال وقتل من الجانبين أعدادا هائلة واختلطت دماء القتلى بمياه البحر فصبغته بلونها الأحمر القانى وطرحت الأمواج جثث الرجال ركاما ولكن المعركة انتهت بانتصار حاسم للمسلمين، وبهذا الانتصار العربى ثبت للعرب السيطرة على حوض البحر المتوسط والتفوق على البيزنطيين .

وتعتبر معركة ذات الصواري هذه بداية لإظهار قوة المسلمين وتفوقهم على البيزنطيين لأول مرة مما مهد السبيل لانتصارات بحرية حققها العرب فى مواجهة البيزنطيين بعد معركة ذات الصواري.

مهد معاوية بن أبى سفيان للحروب التى خاضتها قواته البحرية والبرية حول القسطنطينية نفسها فيها بين عامى ٥٤ ، ٦٠ بحملات استطلاعية برية وبحرية متتابعة بقصد دراسة الطرق المؤدية إلى الحاضرة البيزنطية من بينها شاتية بشر بن أبى أرطاة بأرض الروم فى عام ٦٦٣/٤٣ التى بلغ فيها القسطنطينية، وحركة بسر البحرية ، عام ٤٤هـ/ ٦٦٤م وشاتية مالك بن عبد الله بأرض الروم فى عام ٤٦هـ/ ٦٦٦م وشاتية مالك بن هبيرة بأرض الروم عام ٤٧هـ/ ٦٦٧م وصائفة عبد الله بن قيس الغزاري بحرا وغزوة مالك بن هبيرة السكونى بحرا وغزوة عتبة بن عامر الجهنى بأهل مصر فى البحر عام ٤٨/٦٦٨ وفى عام ٤٩/٦٦٩ أرسل معاوية حملة برية لغزو القسطنطينية بقيادة سفيان بن عوف، ثم أُرِدِف ابنه يزيد بعدما أصاب المسلمين فى غزاتهم جوع ومرض شديد وصحب يزيد بن

معاوية مع ابن عباس وابن عمر وابن الزبير وابو أيوب الأنصاري . فأوغلت الحملة فى بلاد الروم حتى بلغ المسلمون القسطنطينية واشتبكوا مع البيزنطيين فى قتال عنيف، وتفانى المسلمون فى القتال واستشهد من أبناء الصحابة، عبد العزيز بن زراره الكلابى فبلغ خبر استشهاد معاوية فوصفه بأنه فتى العرب. وفى هذه الواقعة توفى أيرب الانصارى وهو يحاصر القسطنطينية ، فدفن بالقرب من سورها وعاد يزيد بعد ذلك مع جيشه إلى الشام فى نفس العام.

دأب المسلمون على مهاجمة الأراضى البيزنطية صيفا وشتاء فى البر والبحر حتى استولى الأسطول على أزمير واحتل ليكيا . كما استولى على جزيرة رودس وكوس وخيوس . وفى عام ٦٣٧/٥٤ بدأ الحصار الفعلى للقسطنطينية ، واستدعى الأمر تعزيز القوة البحرية فأنضم إلى الاسطول الاسلامى الم رابط فى مياه القسطنطينية أسطول اسلامى بقيادة جناده بن أبى أمية . استولى على جزيرة أرواد القريبة من القسطنطينية فاتخذها المسلمون قاعدة بحرية أمامية لإمداد الجيش المحاصر للعاصمة البيزنطية بالميرة والسلاح والرجال ولقطع الطريق على سفن الروم وأحكم المسلمون الحصار البرى والبحرى طوال العام واشتبكت أثناءه سفن بيزنطة مع السفن الإسلامية. كما استمرت المعارك البرية تدور بين الجيش العربى والبيزنطى . ثم اضطر المسلمون إلى فك الحصار عن القسطنطينية عندما حل الشتاء . وأقام المسلمون فى أرواد انتظارا لطول الربيع لكى يتابعوا عملياتهم البحرية . فلما حل الربيع تابع المسلمون حصار القسطنطينية، ولكنها استعصت عليهم وتكرر ذلك عدة سنوات حتى عام ٦٧٩هـ / ٦٧٩م

أظهر أثنائها المسلمون من صنوف الشجاعة والاقدام الكثير على الرغم من
توميل البيزنطيين فى الدفاع بوسائل كيميائية لا طاقة للعرب بمواجهتها ،
ومنع ضررها. لقد اكتشف البيزنطيون النار البحرية (النار اليونانية)
كوسيلة دفاعية نتج عنها حرق عدد كبير من قطع الأسطول الاسلامى وفى
إدخال الرعب والخوف بين المقاتلين، ورأى معاوية عدم الاستمرار فى حصار
القسطنطينية بعد ظهور السلاح الجديد. ذلك أن الحصار قد ازهق
المهاجمين وفقدوا كثيرا من سفنهم ، وقد تم عقد معاهدة بين الطرفين مدتها
ثلاثون عاما إبتداء من عام ٦٠هـ / ٦٧٩م.



وفى عهد الخليفة الأموى الوليد بن عبد الملك (٨٦-٩٦ / ٧٠٥-٧١٥م)
بدأ الاهتمام بإعداد الأسطول الإسلامى اعدادا جيدا، وتم الربط بين القوتين
البحرية والبرية والتخطيط الجيد للقيام بمهاجمة الامبراطورية البيزنطية من
جديد. وبدأ المسلمون فى تدريب قواتهم فى منطقة الثغور فى أسيا
الصغرى.

وفى عام ٩٤هـ / ٧١٢م بدأ الإعداد لحملة بحرية يتولى قيادتها مسلمة
بن عبد الملك. ووصلت أخبار هذه الحملة إلى البيزنطيين فأخذوا يعملون على
تقوية دفاعاتهم حول العاصمة القسطنطينية، وخاصة البحرية استعدادا
لمواجهة حصار قد يطول مداه . ثم أجلت الحملة بعد وفاة الخليفة الوليد.

ثم جاء بعده الخليفة سليمان بن عبد الملك فقام باعداد الجيوش للتوجه
إلى القسطنطينية . وبدأ بإرسال غزوة بحرية يقودها عمر بن هبيرة الغزارى

إلى بلاد الروم فى عام ٩٧هـ / ٧١٥م. ثم اتبعها فى العام التالى بقوات برية وبحرية كبيرة ومونها بكميات كبيرة من المواد الغذائية والأسلحة تكفى لمواصلة الجهاد إلى أبعد مدى، وكلف مسلمة بن عبد الملك بقيادة الحملة وبمهاجمة القسطنطينية حتى فتحها وأن يجعل هدفه النصر أو الشهادة. اتجه سليمان إلى دابق وأعد بها نفسه لتنفيذ خطة الهجوم، ثم راصل سيره القائد مسلمة حتى بلغ البسفور وعبر الشاطئ الأوربى عام ٧١٧/٩٩م وأحكم الأسطول الإسلامى حصاره على المدينة من ناحية البحر بينما أطبق المسلمون على القسطنطينية من ناحية البر حتى كادت القسطنطينية أن تسقط فى أيدي المسلمين لولا صمود الامبراطور ليو الأيسورى واستخدامه للنار الإغريقية فتفرقت سفن المسلمين.

ولما وصلت الأخبار إلى الخلية الجديد عمر بن عبد العزيز بضعف موقف القوات الإسلامية بعث إلى مسلمة يأمره بالعودة بقواته فانسحب المسلمون فى عام ٧١٨/١٠٠ بعد حصار للقسطنطينية لمدة أكثر من عام. وهكذا تمكنت الامبراطورية البيزنطية من النجاة بقوة فى مواجهة العالم لعدة قرون.

وفى عام ٧٤٥/١٢٨ هاجم البيزنطيون جزيرة قبرص وتمكنوا من استردادها بتشجيع من الامبراطور قسطنطين الخامس الذى انتهز فرصة الضعف الذى صارت فيه الدولة العربية فى ضعفها النهائى حيث شهدت نهاية الخلافة الأموية وقيام الدولة العباسية فى بغداد . وقد كان الأمويون الذين جعلوا من بلاد الشام مقرا لهم. فصاروا بذلك قريبين من آسيا الصغرى والأراضى البيزنطية بحيث صار الخطر الإسلامى على الدولة

البيزنطية قويا وواضحا في العصر الأموي.



ولما جاء العباسيون واتجهوا نحو الشرق، نحو العراق وبغداد جعل هذا الموقف الجديد الدولة البيزنطية وأراضيها أكثر بعدا عن قلب الدولة الإسلامية. وهكذا ضعف تهديد المسلمين لحدود الدولة البيزنطية في زمن العباسيين.

وفي عام ١٦٢هـ / ٧٧٨م هاجم الامبراطور البيزنطي ليو الرابع المسلمين شرقى الأناضول، فقام الخليفة المهدي العباسي بإرسال جيش لمهاجمة الأراضي البيزنطية في عام ١٦٣ / ٧٧٩ وتكررت غارات المسلمين على أراضي الدولة البيزنطية في عهد الخليفة هارون الرشيد (١٧٠-١٩٣ / ٧٨٦-٨٠٩) حتى بلغت الجيوش العباسية عبر آسيا الصغرى حتى البسفور في عام ١٧٠ / ٧٨٦م ولم يتمكن البيزنطيون من مواجهة خطر العباسيين في عهد الامبراطورة ايرين ١٨١هـ - ١٨٦ / ٧٩٧-٨٠٢م فاضطر البيزنطيون إلى عرض الصلح ومع المسلمين مقابل دفع جزية سنوية كبيرة.

وعندما تولى الامبراطور البيزنطي نففور الأول ١٨٦-١٩٦هـ / ٨٠٢-٨١١م رفض مواصلة دفع الجزية، فتجددت الهجمات الإسلامية ضد البيزنطيين، كما نجح مسلمو الأندلس من إحتلال جزيرة اقريطش (كريت) ٢٠٨-٢١٠هـ / ٨٢٣-٨٢٥م. وبقيت الجزيرة في أيدي المسلمين مدة ربع قرن أو تزيد. وقد قوى سقوط هذه الجزيرة في أيدي المسلمين من مركزهم

الحربى تجاه البيزنطيين خاصة فى بحر إيجه. كما أن المسلمين فى المغرب العربى استولوا على جزيرة صقلية فى عام ٨٢٧/٢١٢ فبسطوا سيطرتهم على طريق الملاحة فى البحر المتوسط، كما أن سقوط كريت قبل ذلك فى أيدي المسلمين مكنهم من تهديد قلب بيزنطة.

وقد حدث ذلك بالفعل فى عام ٩٠٤/٢٩٢ عندما خرجت السفن الإسلامية من كريت لغزو سالونيك فى البلقان وحينذاك استطاع المسلمون السيطرة على سالونيك وقتاما فى أوائل القرن الرابع الهجرى/ العاشر الميلادى.

وبعد وفاة الخليفة العباسى هارون الرشيد ٨٠٩/١٩٣م قرر الامبراطور البيزنطى ثيوفيل ٢١٤-٢٢٨/٨٢٩-٨٤٢م مهاجمة العباسيين. وقام فى عهد الخليفة المأمون العباسى ١٩٨-٢١٨هـ / ٨١٣-٨٣٢م بإيواء بعض الهاربين من وجه الخليفة الذى ضايق الخليفة المأمون فقامت حروب متقطعة بين الطرفين استمرت أكثر من ثلاثين عام . وقد بدأ الخليفة المأمون بغزو الجهات القريبة من الدولة البيزنطية حتى وصلت جيوشه هرقله فى عام ٢١٦هـ / ٨٣١م فى الوقت الذى غارت فيه الأساطيل العباسية على الجزر القريبة من الشاطئ الغربى لآسيا الصغرى وقد بلغ حماس الخليفة المأمون للإنتقام من البيزنطيين أنه تولى بنفسه قيادة ثلاث حملات فى آسيا الصغرى استولى خلالها على مرات طوروس ثم على مدينة الطوانه العظيمة التى اتخذها قاعدة لعملياته الحربية فى تلك الجهات.

وبعد وفاة الخليفة المأمون فى عام ٨٣٢/٢١٨ وتولى الخليفة المعتصم العباسى الحكم ٢١٨-٢٢٧هـ / ٨٣٣-٨٤٢م تحول ثيوفيس من الدفاع إلى

الهجوم فهاجم أهالى الشام وما بين النهرين حتى بلغ زبطره وقتل من بها من المسلمين وأغار على ملطية وغيرها من المدن والحصون المجاورة.

ولم يلبث الخليفة المعتصم أن أهاجته جرأة البيزنطيين على مهاجمة البلاد الاسلامية وخاصة زبطرة مسقط رأس المعتصم فأسرع المعتصم يقود بنفسه جيشا كبيرا فى عام ٢٢٤ / ٨٢٨ وقد عقد عزمه على الانتقام وتدمير مدينة عمورية مسقط رأس الامبراطور البيزنطى وأسرته وقد تمكن المسلمون فعلا من غزو عمورية وقتل آلاف من أهلها وأسر كثير من أعيان الروم وساروا بهم إلى سامرا.

ولم يواصل الخليفة العباسى المعتصم هجومه على الأراضى البيزنطية وإنما اكتفى بما فعله فى عمورية ، وأسرع بالعودة إلى بغداد. ثم وقعت أحداث فى كل من الدولتين العباسية والبيزنطية دفعت الطرفين إلى توقيع هدنة، بقيت قائمة حتى عام ٢٢٨ / ٨٤٢ تاريخ وفاة الامبراطور والخليفة معا.

لما تولى الخليفة المعتصم العباسى عرش الخلافة جعل من الأتراك عصابة له وأسقط العرب من الديوان وصار جيشه كله تقريبا. من الترك وعني بهم وبأسلحتهم وبملابسهم عناية خاصة. ولما كثر النزاع بينهم وبين أهل بغداد بنى لهم عاصمة جديدة هى سامراء، ويبدأ العصر العباسى الثانى بعد بناء هذه العاصمة بسنوات قليلة. فالمدينة بنيت فى عام ٢٢١ / ٨٢٥م ولم يبدأ عام ٢٣٢ / ٨٤٦ حتى أصبح أكبر قواد الجيش المسيطرون عليه وعلى شؤون الدولة عامة من الأتراك. وعملت الدولة العباسية على المساواة بين العرب وبين الشعوب المختلفة. وقد أيقظت هذه السياسة

العصر العباسي الثاني باستقلال هذه الأطراف وقيام دول مستقلة تعرف في التاريخ باسم الدول المنقطعة . وهذه الدول لم تستقل عن الدولة استقلالا تاما، وإنما استقلت استقلالا قوميا أو داخليا ، بمعنى أن ولايتها كانوا أحرارا في إدارة هذه الدول ماليا، كل دولة كانت تصرف على شؤونها الخاصة إلا مبلغا خاصا يرسل إلى مركز الدولة العباسية كرمز شكلي للتبعية، كما كان لكل دولة جيشها الخاص بها أما السيادة فظلت حقا من حقوق الدولة الكبرى. وكان كل وال ولو أنه ولي الحكم بالوراثة يحرص على أن يصدر الخليفة العباسي الأمر بتوليته.

فهذه الدويلات المنفصلة أو المنقطعة كانت تتمتع بكل مظاهر الاستقلال، ولكنها كانت تعترف بالسيادة الروحية للخليفة العباسي، ومظاهر هذه السيادة كانت مظاهر شكلية تتلخص في الخطبة للخليفة من منابر هذه الولاية وضرب السكة بإسمه ونقش هذا الاسم على الطرز، وإرسال الجزية والحرص على استصدار التقليد بولاية الولاة. ومن هذه الدول الدولة السامانية ٢٦١-٣٨٩/٧٨٤-٩٩٨. والدولة البويهية ٣٢١-٤٤٧/٩٣٢-١٠٥٥م وقد سيطر السامانيون وهم من أصل فارسي على الجزء الشرقي من بلاد فارس، خراسان وبلغ وما وراء النهر فضلا عن فرغانة وخوارزم. وقد اتخذ السامانيون بخارى وسمرقند مركزين لحكمهم، واستمروا يحكمون تلك المنطقة الفسيحة حكما مستقلا معظم القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي.

أما البويهيون وهم أيضا من أصل فارسي فقد سيطروا على الجزء الغربي من بلاد فارس أى عراق العجم وكرمان وخوزستان كما سيطروا على العراق العربي بما فيه بغداد بين أعوام ٣٢٤، ٤٤٧ / ٩٤٥، ١٠٥٥^٣ وفى تلك الفترة اتخذ أمراء بنى بوية لقب إمرة الأمراء وسلبوا لأنفسهم محل ما للخلفاء العباسيين من سلطان ونفوذ، حتى صار أمير الأمراء من بنى بويه هو الحاكم الفعلى فى الدولة.

ولما كان السامانيون والبويهيون من أصل فارسي فقد وجهوا جل عنايتهم نحو الأقاليم الفارسية من الدولة العباسية دون الأقاليم العربية كالجزيرة وبلاد الشام ومصر، على أن مصر وغالب بلاد الشام قد استقل بها الأخشيديون فكانت لهم مصر والجزء الأكبر من بلاد الشام حتى طرابلس وبيروت شمالا (٣٢٤-٣٥٩/٩٣٥-٩٦٩). أما شمال الشام وإقليم الموصل. فقد استقل بها الحمدانيون (٣١٧-٣٩٤هـ / ٩٢٩-١٠٠٣م).

وقد ظل الحمدانيون فى منازعات مستمرة مع البويهيين من ناحية والإخشيديين من ناحية أخرى، وصارت بلاد الشام موزعة بين القوى الإسلامية المتعددة، كما أن بعض القبائل العربية شاركت فى ثورة القرامطة التى وقعت فى بداية القرن الرابع الهجرى/ العاشر الميلادى.

وقد أصاب الدولة العباسية الضعف فى ظل هذا التفكك فى القرن الثالث / التاسع إلى درجة كبيرة.

كان الصراع ضد العرب فى الشرق إحدى المسائل الرئيسية التى كان على الأباطرة المقدونيين أن يلتفتوا إليها. وقد أحرز هؤلاء الأباطرة

المقدونيون البيزنطيون (٢٥٣-٤١٦ هـ/٨٦٧-١٠٢٥ م) مكاسب هامة فى هذا المجال . فبعد أن كانت الامبراطورية ملتزمة جانب الدفاع بصفة عامة نحو ثلاثة قرون قامت فى عهد الأسرة المقدونية بهجوم كبير وتمكنت جيوشها من التقدم والاستيلاء على بلاد لم تشاهد الجنود البيزنطيين فترة طويلة.

لقد كان نشاط البحرية الاسلامية مضايقا لتحركات البيزنطيين وأمنهم فى الجزء الشرقى من البحر الأبيض، والمعروف أن جزيرة كريت منذ أن سقطت فى أيدي المسلمين كانت بمثابة شوكة فى جانب البيزنطيين بعد أن أصبحت عاصمتها كندية مركزا بحريا إسلاميا هاما. وكان على بيزنطة أن تواجه هذا الخطر البحرى الإسلامى وعلى ذلك أرسلت عدة حملات ضد هذه الجزيرة باءت أول الأمر بالفشل الذريع. وقد أصبح من الضرورى أن يرسل الامبراطور القائد الكبير نقفور فوكاس الذى نجح فى النزول إلى كريت واستولى على عاصمتها كندية بعد حصار دام عدة شهور ٣٥٠ هـ/ ٩٦١ م ثم قضى على المقاومة الإسلامية وأعاد فرض السيادة البيزنطية على الجزيرة.

وبذلك استرجع البيزنطيون نفوذهم فى المياه الشرقية لحوض البحر المتوسط.

هذا وقد أبدى أباطرة هذا العهد المقدونى إهتماما كبيرا بمنازلة المسلمين فى المشرق واستئناف الهجوم ضدهم وطردهم من معاقلهم فى آسيا الصغرى. ومد حدود الامبراطورية البيزنطية شرقا إلى شمال العراق والبلاد الأرمينية التى كانت خاضعة للمسلمين، وكذلك إلى البلاد الشامية. كل هذا بجانب حرص البيزنطيين على تخليص المراكز البحرية الواقعة شرق

حوض البحر الأبيض المتوسط من أيدي المسلمين، هذا وكان الهجوم البيزنطى حينئذ على الشام لاسترجاعها وما بها من الأماكن المقدسة من الخصائص المميزة، التى جعلت عددا من المؤرخين ينظرون إليه على أنه مرحلة مبكرة من العدوان الصليبي الأوربي سبقت الحروب الصليبية التى قام بها غرب أوربا الكاثوليكي اللاتينى.

على أن إطلاق اسم الحروب الصليبية على الحملات التى قام بها عدد من الأباطرة البيزنطيين فى هذا العصر لا يرجع إلى أن الكنيسة بشرت بها ولا لأنها منحت المشتركين فيها إمتيازات روحية، أو لأنها أمرتهم بلبس شارة الصليب على النحو الذى حدث فى غرب أوربا. وإنما جاء إطلاق هذا الإسم لسبب آخر هو تحقيق هدف مسيحي هو استرجاع الأماكن المسيحية المقدسة من أيدي المسلمين وتحقيق مجد المسيحية والقضاء على القوى الإسلامية.

والمعروف أن استرجاع الأراضى المقدسة كان الهدف الأساسى الذى قامت من أجله الحركة الصليبية اللاتينية وأن وجود هذا الهدف بشكل واضح فى حملات عدد من الأباطرة فى العهد المقدونى مع ما صاحب ذلك من حماسة دينية هو الذى يجوز أن يطلق عليه اسم الحروب الصليبية أما ما عدا ذلك من حروب الغرب الأوربي وحملاته، فقد كان هدفها دنيوى فيما عدا الحملة التى قادها الملك لويس التاسع وهى الحملة الصليبية السابعة التى اتجهت إلى مصر باعتبارها الرأس المدبرة للقوى الإسلامية فى الشرق الإسلامى.

هذا وقد شجعت أحوال المسلمين السياسية الأباطرة المقدونيين على القيام بهجومهم. فمنذ أوائل القرن الرابع الهجرى / العاشر الميلادى أخذت قوة الدولة العباسية فى الانحلال. وقامت بها الاضطرابات الداخلية وقد أدى هذا إلى ضعف حكومتهم المركزية، وأخذت الدولة الكبرى التى شيدها أسلافهم تعاني من الانحلال السياسى وانقسمت هذه الدولة إلى دويلات متعددة متنافسة بل وقد تغلب بنو بوية الشيعة على الخلافة فى بغداد وأصبح الخليفة العباسى أشبه باللعوبة فى أيديهم . ولم يهتم البويهيون كثيرا بأمر البلاد الشامية الواقعة فى طريق التقدم البيزنطى . وهناك ظهر نفوذ الأخشيديين الذين حكموا مصر حتى عام ٣٥٩هـ / ٩٦٩م وكذلك نفوذ الحمدانيين فى الشمال حيث كانت إمارة حلب مركزا لهم. كما ظهر الفاطميون على مسرح الحوادث فى الشام ، وكانوا غزوا مصر فى عام ٣٥٩هـ / ٩٦٩م وعملوا على مد نفوذهم شمالا ومعنى ذلك أنه توجد جبهة موحدة تقف فى سبيل التقدم البيزنطى فى المشرق.

لقد شعر المسلمون ببداية الهجوم البيزنطى منذ المرحلة الأولى من حكم الأسرة المقدونية إذ إفتتح سياسة التوسع ضدهم باسيل الأول مؤسس الأسرة المقدونية . فقد قام هذا الامبراطور بحملات ناجحة ضد المسلمين فى آسيا الصغرى. وعلى كل فإن الخطر البيزنطى بالنسبة للمسلمين كان على نطاق محدود فى تلك الفترة الأولى من العهد المقدونى وذلك لانشغال البيزنطيين إذ ذاك فى الحرب ضد البلغار.

ويمكن تحديد الهجوم البيزنطى الكبير فى بدايته الحقيقية على حدود الإسلام فى الشرق بأنها كانت فى العقد الثالث من القرن الرابع الهجرى/

العقد الرابع من القرن العاشر الميلادى. ومنذ هذا التاريخ ظهر قواد عسكريون بيزنطيون عظام أبلوا بلاء حسنا أمثال يوحنا كوركواز الذى تولى القيادة فى آسيا الصغرى نحو عشرين عاما. ونجح البيزنطيون فى الإستيلاء على عدة مراكز مثل أرضروم وملطية ثم الرها عام ٩٤٤/٢٢٣. ثم واصل البيزنطيون حروبهم فى عهد قسطنطين السابع (٢٢٤-٢٤٨هـ/ ٩٤٥-٩٥٩م) ضد المسلمين بقيادة يوحنا تزيمنسكس. وتقدمت جيوشها فى البلاد الأرمينية التى كانت خاضعة للمسلمين ووصلت حتى الفرات. كما أحرزت بيزنطة مكاسب أخرى فى عهد الامبراطور رومانوس الثانى (٣٤٨-٣٥٢/٩٥٩-٩٦٣) بالرغم من ضعفه وذلك بفضل تولى نقفور فوكاس القيادة وتقدمه إلى البلاد الجزرية الشامية، وكان مقدرًا لهذا القائد أن يلعب دورا كبيرا فى الصراع ضد العرب بعد إعتلائه العرش وأثناء حكمه (٣٥٢-٣٥٩هـ/ ٩٦٤-٩٦٩) بعد شهور قليلة من أوائل عهد نقفور بدأت المرحلة الأولى من تدخله فى الشرق وفيها تركزت حروبه فى إقليم كيليكيا وأخذت قواته تخرب الأراضى الزراعية المحيطة بالمدن الرئيسية الموجودة فى هذه الأنحاء مثل المصيصة وأذنه وطرسوس. ولم يكن هذا التخريب لمجرد التنكيل بالمسلمين والانتقام منهم بل جزءا من خطة مرسومة سار عليها البيزنطيون فى محاربة المسلمين. فقد اتبعوا سياسة تخريب وطرق الأرض الزراعية المحيطة بالمدن والقرى التى يقصدونها ويأسرون العاملين بها ويأخذون مواشيها. كما كانوا يخرجون وقت الحصاد ويحرقون الغلات بهدف إضعاف تموين البلاد التى يريدون الإستيلاء عليها حتى تضطر فى النهاية إلى التسليم. وكان ذلك عاملا هاما فى نجاح الهجوم البيزنطى.

وفى رجب عام ٣٥٤/ يوليو عام ٩٦٥ تمكن نقفور فوكاس من جنى ثمار مجهوداته، فإن أهالى المصيصة وطرسوس صاروا يعانون الأمرين من قلة الغذاء وارتفاع الأسعار حتى أصبحوا لا يجدون ما يأكلون فانتشر الوباء وكثر الموت بين الأهالى . ثم هاجم البيزنطيون المصيصة فلم تستطيع الصمود وفتحوها عنوة وسمحوا بنهب المدينة. كما قتل كثير من أهلها.

وكان الهدف الثانى لنقفور المدينة طرسوس التى كانت رباط للإسلام ومن أهم معاقله الشمالية التى لعبت دورا كبيرا فى الصراع بينها وبين بيزنطة . ولم يكن نقفور ليأمن القيام بأى هجوم كبير على الشام قبل الإستيلاء على هذه المدينة، وكانت طرسوس فى حالة لا تمكنها من مواصلة المقاومة فإن إمكانياتها كانت محدودة وكان المدافعون عنها يتوقعون وصول المساعدة من سيف الدولة الذى كان مشغولا فى البلاد الجزرية ولا ريب أن مصير المصيصة وما لحق بأهلها على أيدى البيزنطيين قد نشر الخوف بين أهلها الذين أراوا تحاشى الوقوع فى نفس المصير. وقد جعلهم كل ذلك يقررون تسليم المدينة لنقفور الذى أمنهم على أنفسهم وقد تم ذلك فى شعبان عام ٣٥٤هـ/ أغسطس ٩٦٥م.

وكانت معاملة الامبراطور لأهالى طرسوس أفضل من معاملته لأهالى المصيصة إذ سمح لكل من أراد الهجرة بالخروج من المدينة وأن يحمل من ماله ما يستطيع. وخرج جماعة من المسلمين إلى أنطاكية تحت حماية البيزنطيين. وقد عمل نقفور بعد ذلك على إصلاح كل من المصيصة وطرسوس وعين كل منهما واليامن قبله .

وقد شجع نقفور المسلمين على الانضمام إلى جناح البيزنطيين وقال إنهم سيلقون عندهم العدل والنصفة والأمن على المال والأهل والنفس والولد وصحة الأحكام والإحسان في المعاملة وحفظ الفروج وخصص مكانا لمن يرغب في الانضمام إلى البيزنطيين أن يقف فيه ورفع فيه علم بيزنطة . كما رفع علم المسلمين وخصصه في مكان يقف فيه من يرغب في البقاء مع المسلمين. وقال أنهم لن يلقوا عند المسلمين إلا الجور في الأحكام والأعمال وأخذ الضرائب وغصب الأموال ومثل ذلك واقبح منه لينفر المسلمين من الوقوف مع أهليهم من المسلمين.

لقد عمل نقفور على إنتزاع القدس من المسلمين حيث أنه اعتبر حروبه في الشرق مقدسه وقد اعتبر نقفور أن استيلائه على أنطاكية مقدمة عملياته الحربية للإستيلاء على بيت المقدس. بل أن نقفور هدد المسلمين بالهجوم على مكة والإستيلاء عليها وهو يدرك أنها أهم مركز ديني للمسلمين.

على أنه بغزو المصيصة وطرسوس للإستيلاء عليها فتح الطريق أمام البيزنطيين إلى الشام . كما جعل الطريق البحري آمنا أمامه بعد استيلائه على قبرص في نفس عام ٩٦٥/٣٥٤ وقد تبع ذلك المرحلة الأخرى من سياسة نقفور في الشرق التي امتد فيها نشاطه بوجه خاص إلى البلاد الجزرية والشام مغيرا عليها ومخريا أراضيها الزراعية ليمهد للإستيلاء عليها. وكان موت سيف الدولة الحمداني، الذي عرف بشدة مراسه في مقاومة البيزنطيين في عام ٩٦٧/٣٥٧ خسارة أخرى نزلت بالمسلمين في الشام. فإن موت هذا المحارب الكبير هيا للبيزنطيين فرصة عظيمة لمواصلة سعيهم لتوسعهم في شمال الشام ذلك أن ابنه سعد الدولة لم يكن له من الكفاءة

ما يمكنه من مواجهة الهجوم البيزنطى . إذا كانت تنقصه الشجاعة التى امتاز بها أبيه وحنكته السياسية ، كما أخذ أمراء بولته فى الخروج عليه.

وهكذا أصبح الموقف فى شمال العراق سهياً للتقدم البيزنطى أكثر من أى وقت مضى ، فقام نقفور بتدبير عمليات حربية أشرف عليها بنفسه ، كما وجه قواده لتنفيذ عمليات حربية. ولم تكن توجد قوة موحدة فى الشام لدفع خطر البيزنطيين. على أن أهم ما أنجزه البيزنطيون هو استيلائهم على أنطاكية وفرض السيادة البيزنطية على إمارة حلب فى عام ٩٦٩/٣٥٩. وكان لاستيلاء البيزنطيين على أنطاكية نوى هائل فى العالم المسيحى الشرقى والغربى نظرا لما لهذه المدينة من مكانة فى تاريخ المسيحية وباستيلاء البيزنطيين على أنطاكية بلغ توسعهم القمة على حساب المسلمين فى القرن الرابع الهجرى/ العاشر الميلادى فإن تلك المدينة الرئيسية التى بقيت فى أيدي المسلمين منذ أن انتزعوها فى صدر حركة الفتوحات الإسلامية وأخذوها من الإمبراطور هرقل فى عام ٦٣٥هـ / ٦٣٥م. وقد استردها البيزنطيون وجعلوا عليها حاكما من قبل البيزنطيين وصارت تلك المدينة الحصينة المعقل الأمامى للإمبراطورية البيزنطية على حدود الشام الشمالية لمدة مائة وخمسة عشر عاما. ثم تمكن المسلمون من استردادها فى عام ١٠٨٤/٤٧٦م قبل مجئ الحملات الصليبية من أوروبا الغربية بسنوات قليلة.

أما مدينة حلب فقد جاء دورها بعد ذلك خاصة أن النزاع الداخلى بين صاحب الحق الشرعى فى الحكم سعد الدولة الحمدانى وهفتصب السلطة فيها قرغوية - مولى سيف الدولة - أثر تأثيرا خطيرا فى أحوال حلب ولكن

يبدو أن حلب قد استعصى أمرها على البيزنطيين فصالحوا قرغوية في صفر ٣٥٩هـ/ يناير ٩٧٠م على هدنة مستديمة بشرط أن يدفع لهم مالا معيناً ويسهل لهم تموين جيوشهم في حالة خروجهم لغزو الشام

وعن نصوص هذه الاتفاقية التي وردت كاملة في ابن العديم والتي لها أهميتها فهي من الاتفاقيات الدولية القليلة التي بقيت كاملة من العصور الوسطى . فهي تحدد مرحلة هامة من مراحل الصراع بين الدولة البيزنطية والمسلمين في الشرق. ويمقتضى نصوص تلك الاتفاقية سمح للبيزنطيين أن يحكم حلب أمير مسلم إلا أنهم قد فرضوا عليه من الشروط والقيود ما جعلوا به هذا الأمير مجرد تابع إقطاعي لبيزنطة وأداة مفيدة في أيديهم ، وقد جاء بالاتفاقية عدة نصوص بخصوص تعيين أمير حلب وكذلك بخصوص تحديد البلاد كان يحكمها من قبل بيزنطة ونصوص أخرى تعين التزاماته نحو البيزنطيين وامتيازاتهم في حلب. وكذلك وردت نصوص تنظيم العلاقات بين بيزنطة والمسلمين بأنواعها المختلفة في تلك المنطقة .

وجاء في الإتفاق «أن الأمير على المسلمين قرغوية والأمر بعده لبكجور وبعدهما ينصب ملك الروم أمير يختاره من سكان حلب وليس للمسلمين أن ينصبوا أحدا. وحرصا على ألا يقوم الأهالي بالخروج على قرغوية وبكجور ويختارون أميرا يخلصهم من التزاماتهم نحو البيزنطيين وضع بندا آخر جاء فيه «ولا يقبل المسلمون بحلب أميرا مسلما ويكتبوا أحدا غير الحاجب وبكجور فإن توفيا فلم يكن لهم أن يقبلوا أميرا من بلاد المسلمين ولا يلتمسوا من المسلمين معونة بل لهم من يختاره من بلاد الهدنة وينصب الملك لهم بعد وفاة الحاجب وبكجور قاضيا منهم يجرى أحكامهم على رسمهم.

وقد حدد البيزنطيون المنطقة التي يحكمها أمير حلب والتي يعتبر مسؤولاً عنها أمام بيزنطة فيما يلي «والبلاد حمص وجوسيه وسلمية وحماه وشيزر وكفرطاب وأفامية، ومعرة النعمان وحلب وجبل السماق ومعرة مصرين وقنسرين والأثارب إلى طرف البلاط الذي يلي الأثارب وهو الرصيف إلى أرحاب إلى باسوفان إلى كيماز إلى برصايا إلى المرج الذي هو قرب أعزاز ويمين الحد كله لحلب والباقي للروم، ومن برصايا يميل إلى الشرق ويتصل وادي أبي سليمان إلى فبح سنياب إلى نافوذا إلى أمانا إلى تل حامد إلى يمين الساجور إلى مسيل الماء إلى أن بمضى ويختلط بالفرات.

وقد فرضت التزامات مالية على أمير حلب يؤديها للإمبراطور البيزنطي فكان عليه أن يقدم جزية عن كل رأس بإمارته وكذلك عن حق الأرض، وكذلك ضرائب فرضت على التجارة. وفي صدر هذه الالتزامات المالية جاء بالإتفاقية ما يلي «وهادنهم قرغوية على حمل الجزية عن كل صغير وكبير من سكان المواضع التي وقعت الهدنة عليها دينار قيمته ستة عشر درهم إسلامية، وأن يحمل إليهم في كل سنة عن البلاد التي وقعت الهدنة عليها سبعمائة ألف درهم». كما جاء في بند آخر «وأن العشر الذي يؤخذ من بلد الروم يجلس عشار الملك مع عشار قرغوية ويكجور فمهما كان من التجارة من الذهب والفضة والديباج الرومي والقز غير معمول والأحجار والجوهر واللؤلؤ والسندس عشر عشار الملك والثياب والكتاب والبرزيون والبهائم وغير ذلك من التجارات بعشرة عشار الحاجب ويكجور بعده ويعدهما عشر ذلك كله عشار الملك».

وبخصوص الإلتزامات العسكرية التي فرضت على أمير حلب فقد

جاءت البنود التالية . «وإن ورد عسكر إسلامي يريد غزو الروم منعه قرغوية وقال له إمض من غير بلادنا، ولا تدخل بلاد الهدنة فإن لم يسمع أمير ذلك الجيش قاتله ومنعه، وإن عجز عن دفعه كاتب ملك الروم والطرباذي لينفذ إليه من يدفعه ومتى وقف المسلمون على عسكر كبير كتبوا إلى الملك وإلى رئيس العسكر وأعلموهما به لينظروا في أمرهما».

وفيما يتعلق بعبور القوات البيزنطية أراضي حلب لغزو بلاد إسلامية فقد نص على ما يلي ، «وإن عزم الملك أو رئيس العسكر على الغزاة إلى بلاد الإسلام تلتقاه بكجور إلى المكان الذي يؤمر إليه وأن يشيعه في أعمال الهدنة ولا يهرب من في الضياع لبيتاع العسكر الرومي ما يحتاج إليه سوى التبن فإنه يؤخذ منهم علي رسم العساكر بغير شيء ويتقدم الأمير بخدمة العساكر الرومية إلى الحد فإذا خرجت من الحد عاد الأمير إلى عمله».

ونصت الاتفاقية على أن يقوم أمير حلب بمساعدة البيزنطيين وفي حالة محاربة غير المسلمين على النحو الآتي . «وإن غزا الروم غير ملة الإسلام سار إليه بعسكره وغزوا معه كما يأمر».

وقد إحتاط البيزنطيون ضد قيام أي مقاومة عسكرية ضدهم فاشتراطوا الآتي «ولا يخرب المسلمون حصنا ولا يحدثوا حصنا فإن خرب شيء أعابوه». ولم يهمل البيزنطيون في اتخاذ خطوات ضد أعمال التجسس من جانب المسلمين فقد اشتراطوا «وإن دخل من بلاد الإسلام جاسوس إلى بلد الروم أخذ وحبس».

وقد اهتم المسيحيون بشؤون المسيحية والمسيحيين في هذه المنطقة

فنصوا على التالى «وللروم أن يعمرؤا الكنائس الخربة فى هذه الأعمال ويسافر البطارقة والاساقفة إليهم ويكرمهم المسلمون». وقد استثنوا المسيحيين غير القادرين من دفع جزية على النحو الآتى «ولا يؤخذ من نصرانى جزية فى هذه الأعمال إلا إذا كان له مسكن أو ضيعة»

وقد أظهر الطرفان الإسلامى والبيزنطى نوعا من التسامح الدينى بالاتفاق على ما يأتى «وأى مسلم دخل فى دين النصرانية فلا سبيل للمسلمين عليه ومن دخل من النصارى فى علة الإسلام فلا سبيل للروم عليه». وقد أهتم البيزنطيون بحماية تجارتهم والحصول على إمتيازات تجارية فنصوا على الآتى «ومتى جاءت قافلة من الروم تقصد حلب يكتب الزوار المقيم فى الطرف إلى الأمير ويخبره بذلك لينفذ من يتسلمها ويوصلها إلى حلب وإن قطع الطريق عليها بعد ذلك فعلى الأمير أن يعطيهم ما ذهب. وكذلك إن قطع على القافلة أعراب أو مسلمون فى بلد الأمير غرامة ذلك».

وقد جاء بالإتفاقية بنود خاصة بمعاملة العبيد الهاربين واللصوص الذين يفرون إلى بلاد الإسلام منها «ومتى هرب عبد مسلم أو نصرانى ذكر كان أو أنثى من غير الأعمال المذكورة إليها لا يستره المسلمون ويظهرونه ويعطى صاحبه ثمنه عن الرجل ستة وثلاثون ديناراً وعن المرأة عشرون ديناراً رومية وعن الصبى والصبية خمسة عشر ديناراً، فإن لم يكن له ما يشتريه به أخذ الأمير من مولاه ثلاثة دنانير وسلمه إليه. فإن كان الهارب معمدا فليس للمسلمين أن يمسكوه بل يأخذ الأمير حقه من مولاه ويسلمه إليه».

وجاء أيضا «وإن سرق سارق من بلاد الروم واختفى هاربا أنفذه الأمير إلى رئيس العسكر الرومى ليؤدبه». وقد نص الروم على حرية تنقلهم فى بلاد الهدنة مشترطين. «وإن دخل رومى إلى بلد الإسلام فلا يمنع من حاجته». ولاريب أن هذا الشرط كان مفيدا للتجارة ولحرية تنقل رجال الدين. كما كان يعطى البيزنطيين الفرصة للإشراف على تنفيذ الاتفاقية والحيلولة دون أى تلاعب بشروطها.

كان من آثار التقدم الذى أحرزته قوات نقفور فى الشرق أن عم الفزع بين المسلمين فى البلاد الواقعة فى طريق البيزنطيين. وكان لتفريق كلمة المسلمين وضعفهم أثر فى إحساس المسلمين بعدم الأمان والخوف من البيزنطيين الذين حققوا انتصارات فى أرض الشام حيث لم يجدوا من يقف فى مواجهتهم. فقد عمل البيزنطيون على حرق الأرض الزراعية وتخريبها مما أضعف من قوة المسلمين وعجزوا عن المقاومة، وقد سهلت خطة البيزنطيين لهم سرعة تقدمهم فى البلاد.

ولم يقدر للامبراطور البيزنطى نقفور مواصلة حربه ضد المسلمين فى الشرق، حيث وقع ضحية مؤامرة دبرتها له زوجته بالاتفاق مع عشيقها القائد البيزنطى يوحنا زمسكيس الذى خلف نقفور على عرش بيزنطة لقد كان الهدف الأساسى للامبراطور زمسكيس من حروبه فى البلاد الشامية تحرير بيت المقدس وانتزاعه من أيدي المسلمين. وقد أظهرت الوثيقة التى أخذت شكل رسالة بعث بها هذا الامبراطور البيزنطى إلى خليفة أشوط الثالث ملك أرمينية المسيحى. مدى ارتباط زمسكيس (حنا شمشقيق) بالأرض المقدسة إلا أنه لم يحقق كل ما أراد به بسبب إنشغاله بالحرب ضد البلغار. ثم ظهور

الدولة الفاطمية حيث نجح الفاطميون في فتح مصر عام ٢٥٩/٩٦٩ والقضاء على الإخشيديين فيها. وبذلك أصبحت مصر وملحقاتها في الشام حتى دمشق مركز الخلافة الشيعية منافسة لخلافة بغداد السنية.

وهكذا قدر للعالم الإسلامي أن يظل فترة امتدت إلى قرنين (٢٥٩-٥٦٧هـ / ٩٦٩-١١٧١م) تحكمه خلافتين ومذهبين مختلفين الخلافة العباسية السنية في بغداد، والخلافة الفاطمية الشيعية في القاهرة وقد نتج عن ذلك الحال تطورا خطيرا في قوة المسلمين في الشرق الأدنى ظهر آثاره فيما بعد خلال الحروب الصليبية.

حارب الفاطميون في سبيل وحدة مصر والشام على الرغم من الصعوبات التي واجهوها في سبيل تحقيق هذا الهدف وقد عمدوا إلى توحيد العملة وجعلوا ميزانيتها واحدة ووحّدوا نظام القضاء والنظم الإدارية وعملوا على نشر دعوتهم في الشام على نطاق واسع وما تزال دعوتهم قائمة البلاد الشامية حتى الآن لقد كانت وحدة مصر والشام هي الأساس لما يجب أن يكون عليه الحال في ظروف مواجهة الأعداء.

لقد كان موقع مصر الجغرافي هو الذي رسم السياسة الفاطمية الحربية كما كانت سياستهم تتجه دائما إلى الشرق وخاصة نحو الجزيرة العربية أرض الإسلام الأولى ومهبط الوحي. وقد ظهرت سياسة الفاطميين في الشام بصفة أساسية فقد كانت ميدان الجهاد ضد أعداء الإسلام، بوجود الثغور الإسلامية على الحدود الشمالية التي تلامس أرض الروم البيزنطيين ولأهمية الساحل الشامى في أى سيطرة بحرية.

وقد واجه الفاطميون كثيرا من الصعاب، لقد جاء الفاطميون إلى مصر وصدوا القرامطة، وواجهوا الحمدانيين وكانت دولة الحمدانيين عاجزة حينذاك عن الدفاع عن ثغور الإسلام بحيث أن الروم صالوا وجالوا في الشام، ومع أن الفاطميين وجهوا جيشهم بعد طرد القرامطة من مصر نحو فلسطين واستولوا عليها ودخلوا دمشق في عام ٣٦٢ / ٩٧٣ بل ذهبوا لحصار أنطاكية للقيام بالجهاد إلا أنهم مالبثوا أن ارتدوا إلى فلسطين بعد أن ثارت عليهم العناصر السنية عرب دمشق، وأخرجوهم منها.

وقد انتهز رجل تركي هو أفتكين الذي كان في نزاع مع سادته البويهيين في بغداد، إذ كان الخليفة العباسي يستعين به ضدهم، وكاد يحصل على السيادة في بغداد، دون البويهيين فعرض عليه الخليفة العباسي الطائع لقب أمير الأمراء إلا أن أفتكين فضل أن يخرج بفرقه من الجيش التركي ويمم شطر دمشق حيث أدخله أهلها المدينة، لمنع الفاطميين من العودة إليها، وقد تمكن أفتكين من أن يحتفظ بمركزه في دمشق بأن تعصب أهل السنة، كاتب المعز بأنه في طاعته وزاد الأمور تعقيدا للفاطميين في الشام أن تزييمسكس، خلف نقفور وكان مثل سلفه تحركه الأطماع في حرب المسلمين، ولكي ينفذ خطته، قبل ما رفضه نقفور بالتحالف مع منافسه في السيطرة على المسيحيين أوتو الثاني امبراطور الغرب المسيحي حتى يتفرغ في كيل الضربات للمسلمين. كذلك عمل على التحالف مع الأرمن ولاسيما أنه كان من أصل أرمني، وهم الذين خضعوا للأمويين ثم العباسيين، فلما ضعف هؤلاء عاد الأرمن إلى استقلالهم في جبال وأغوار تمتد في آسيا الصغرى من جهة البحر الأبيض إلى الفرات فاجتمع له ملوكهم، وخصوصا أقواهم الملك (أشوط الثالث) الذي تلقب شاهنشاه أي ملك الملوك حيث أن

هذا اللقب منحه أياه العباسيون فكانوا يسمونه شاه الأرمن فأرسل الأرمن عشرة آلاف مقاتل بأسلحتهم غير الأزواد. فبدأ تزيمسكس تحركه فى بلاد الجزيرة فى عام ٩٧٢/٣٦٢ فصار فيها فى كل اتجاه، وقتل وضرب بحيث هرب معظم أهل الجزيرة إلى العراق. وقد بلغ ما هدمه فيها أكثر من ثلاثمائة قلعة أو مدينة ووصل إلى نصيبين قرب بغداد ولكن الخلافة العباسية لم تفعل شيئاً لانشغالها مع البويهيين فى نزاع شديد بحيث عزل البويهيون المطيع وولوا الطائع، كما أن حمدانى الجزيرة كانوا فى نزاع فيما بينهم وكانت الروم قد عقدت معهم هدنة. ولم يواصل تزيمسكس الغزو فى هذه المنطقة حيث جعل همه غزو الشام.

وفى عام ٩٧٣هـ / ٩٧٣م هاجم تزيمسكس الشام بهدف الهجوم على بيت المقدس فقام بثلاث حملات على إقليم الجزيرة الواقع فى شمال العراق وشعر المسلمون هناك بقوة الجيوش البيزنطية وأصبح للإمبراطورية شأنها فى هذه الأنحاء . فقد أذعن عدد من الأمراء فى هذا الإقليم بما فيهم أمير الموصل الحمدانى أمام الخطر البيزنطى، واضطروا لدفع الجزية ليشترى أمنهم وسلامتهم. وقد تقدم تزيمسكس فى الشام ، ومن أهم ما استولى عليه حمص وعلبك وأجبر دمشق على دفع الجزية . إلا أن هذا الامبراطور لم ينجح فى الاستيلاء على بيت المقدس، الأمر الذى لم يحققه بالنسبة لأوروبا المسيحية إلا الصليبيون الكاثوليك فى أواخر القرن الخامس الهجرى / الحادى عشر الميلادى. وقد نجح تزيمسكس فى تدعيم الحكم البيزنطى فى المناطق الشمالية التى كان نقفور فوكاس قد ضمها للحكم البيزنطى المباشر.

ولما توجه تزيمسكس إلى فلسطين حيث يوجد الجيش الفاطمي الذي تحصن في القدس مدافعا عنها ومانعا للروم من الاستيلاء عليها ثم أن الظروف اضطرت تزيمسكس إلى العودة إلى القسطنطينية. على أن نجاح البيزنطيين في إقامة منطقة خاضعة لنفوذهم في شمال الشام، واستمرار حكمهم فيها مدة طويلة أمدتهم بذريعة قوية للتدخل في شؤون الامارات الصليبية التي أقامتها العناصر اللاتينية منذ أخريات القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي. فقد تمسك الأباطرة البيزنطيون بما اعتبروه حقا لهم في حكم الأراضي المسيحية المقدسة وخاصة أنطاكية. واستعمل الامبراطور الكسيوس كوفين عدة طرق ليفرض سيادته على الصليبيين ولينتزع منهم الوعد بأن يردوا للإمبراطورية ممتلكاتها التي كانت تابعة لها في الشرق. وهذا ما سار عليه حلفائه من بعده في محاولة فرض السيادة البيزنطية على مختلف الامارات الصليبية. اللاتينية في الشام، وكان لهذه السياسة التي اتبعها البيزنطيون آثارها على وضع الصليبيين في الأراضي المقدسة.

وهذه الغزوات البيزنطية التي قام بها تزيمسكس قبل عودته إلى بلاده دفعت الفاطميين إلى محاربة القوات المناوئة لها في الشام لصد العدو ومواجهته بقوة، فبعث الخليفة العزيز إلى أفتكين يدعوه للدخول في طاعته إلا أن أفتكين لم يستجب له فبعث إليه وزيره جوهر فما كان من أفتكين إلا أن استنجد بالحسن الأعصم زعيم القرامطة فقوى به في مقاومة جوهر الفاطمي الذي هزم في عام ٩٧٤/٣٦٤ الذي ظل في فلسطين، ثم عقد صلحا مع أفتكين بهدف خداع أفتكين حتى تصل الامدادات الفاطمية من

مصر. ثم توفي الحسن الأعصم وخزج العزيز من مصر على رأس جيش كبير إلى الشام وحارب افتكين في عام ٩٧٩/٣٦٨ فهزم افتكين ودخل العزيز دمشق، ثم تغلب الفاطميون على أنصار افتكين وهزموهم عندما حاولوا مقاومة الفاطمين . وهكذا تمت سيطرة الفاطميين في جنوب الشام حتى دمشق.

ثم شرع الفاطميون بعد نجاحهم في فرض سيطرتهم على دمشق جنوب الشام في القيام بعدة هجمات على حلب، ولكن البيزنطيين حموا أميرها سعد الدولة ثم ابنه وخليفته سعيد الدولة أبو الفضائل . وهكذا تطور النزاع بين الحمدانيين والفاطميين إلى نزاع بين البيزنطيين والفاطميين إلا أن باسيل الثاني نظرا لظهور الخطر البلغاري في البلقان اضطر إلى عدم الدخول في حرب مع الفاطميين وعمل على عقد هدنة لمدة سبع سنوات معهم في عام ٩٨٧/٣٧٧ وتعهد بإطلاق سراح أسرى المسلمين والدعاء للخليفة الفاطمي في جامع القسطنطينية.

ولما تعرضت حلب لحصار الفاطميين التي لجأ حاكمها سعيد الدولة أبو الفضل للاستنجاد ثانية بالبيزنطيين وعندئذ أسرع الإمبراطور باسيل الثاني بالدخول إلى الشام في عام ٩٩٠هـ / ٩٩٠م وهاجم شيزر واستولى عليها من الفاطميين ثم استولى على حمص ودمرها وأيضاً انطرسوس. أما طرابلس فقد حمدت بفضل الحامية الفاطمية التي دافعت عنها ولما عاد باسيل الثاني إلى بلاده كانت الجيوش الفاطمية قد هاجمت أنطاكيه وهزمتها. فأسرع باسيل الثاني بالعودة إلى الشام واسترد شيزر وأبقى بها جماعة من الأرمن للإستقرار بها كما أحرق حمص واستولى على بعلبك .

ولما حاول باسيل الثانى قتال مدن الساحل لم يوفق فى قتاله وهزم فى قتاله
ضصد طرابلس ثم اتجه الامبراطور البيزنطى إلى أرمينية، ولجأ هذا
الامبراطور إلى عقد صلح مع الفاطميين لمواجهة الخطر البلغارى الذى ظهر
من جديد.

وتم الصلح بين البيزنطيين والفاطميين إلا أن العلاقة بينهما لم يكتب
لها الاستمرار حيث لم تكن سياسة الحاكم بأمر الله وعلى وتيرة واحدة مع
أهل الذمة بل كانت غير مستقرة فكانت هذه السياسة الحاكمة المتذبذبة
تجاه أهل الذمة سبب توتر العلاقات بين الدولتين تتحسن حيناً وتسوء أحياناً
حتى قامت الحروب الصليبية.

وتعتبر جهود الامبراطور باسيل الثانى نهاية الحروب الصليبية التى
قادها البيزنطيون فى القرن الرابع الهجرى/ العاشر الميلادى وهى الحرب
التي وقفت عائقا أمام النفوذ الفاطمى فى الشام دون امتداده إلى ما وراء
انطاكية بينما احتفظت بيزنطية بسيادتها المتأرجحة على حلب، على أن
الفاطميين تمكنوا على الرغم من القوة البيزنطية من فرض سيادتهم على
حلب ٤٠٦هـ/ ١٠١٥م . وبقى نفوذ الفاطميين فى حلب حتى جاء صالح ابن
مرداس من بنى كلاب وطرد الفاطميين منها وأسس الدولة المرداسية عام
٤١٤/ ١٠٢٣. وبقى بنو مرداس فى حلب حتى عام ٤٧٢/ ١٠٧٩ ما يقرب
من نصف قرن ظلت خلالها فى نزاع مع الفاطميين ، وقد فقد البيزنطيون
نفوذهم فى حلب خاصة بعد أن ألحق شبل الدولة الهزيمة بجيوش بيزنطة
عام ٤٢١هـ/ ١٠٢٠م واستولى على ما معهم غنيمة خالصة للمسلمين.

وفى عام ٤٢٢/١٠٣١ نجح حاكم سميح ساط البيزنطى فى الاستيلاء على الرها فى نوامة النزاع الداخلى الذى قام بين بنى كلاب ، ولم تفدهم النجدة السريعة التى أرسلها الفاطميون وبنو مرداس لإنقاذ الرها حيث أمد أهل الرها من المسيحيين وهم جماعة من السريان والنساطرة والأرمن بمعونة أفادت كثيرا جورج مانياكس الحاكم البيزنطى . وهكذا بقيت الرها فى يد البيزنطيين حتى قدوم الصليبيين فى أواخر القرن الخامس الهجرى / الحادى عشر الميلادى. كذلك تمكن البيزنطيون بفضل المشاكل والخلافات الداخلية فى أرمينيا من بسط البيزنطيين نفوذهم عليها ثم ضمها إلى ممتلكاتهم ، وكان لتخوف الأرمن من الأتراك السلاجقة دور فى هذا حيث أخذ السلاجقة يهددون الحدود الشرقية لأرمينيا الأمر الذى جعل أرمينيا تنضم إلى البيزنطيين فى عام ٤١٢هـ / ١٠٢١م ولكن كان هذا الضم عبئا جديدا على البيزنطيين فى نفس الوقت الذى تعذر فيه علي أرمينيا القيام بأى إجراء سريع لمواجهة الأخطار المهددة لها قبل الرجوع إلى القسطنطينية، مما أوقعها فريسة سهلة أمام الغزاة القادمين من الشرق إلى جوف آسيا الصغرى.

وفى أول عهد الخليفة الفاطمى الحاكم (٣٨٦-٤١١ / ٩٩٦-١٠٢٠م) حارب الروم بحيث أحرز انتصارات هائلة عليهم، مما لم يحدث مثله قبل قدوم الفاطميين إلى مصر. وفى عام ٣٨٨/٩١٨ تغلب الفاطميون فى صور على البيزنطيين وتقع غربى صيدا على ساحل البحر الأبيض ، وذلك حين استولى على صور أحد المغامرين من البحارة ويدعى علاقة واستنجد بالبيزنطيين فبعث باسيل الثانى بالأسطول البيزنطى لمساعدته فتمكن علاقة

من السيطرة على صور وضرب العملة باسمه . فبعث برجوان وصى الحاكم الجيش الفاطمى الذى حاصر صور برا ويعث بالأسطول بحرا فهزم اسطول الروم وقبض على علاقة أسيرا إلى مصر فقتل بها ، ثم سار الجيش الفاطمى إلى أرض الروم فى منطقة الثغور وحارب جيشا بيزنطيا يقوده الدوق داميانوس (الدوقس) فقتلوا من البيزنطيين ستة آلاف وقتل الدوقس وأسر أبناؤه.

ولما أدرك الفاطميون أنه لابد من توحيد الشام مع مصر قبل محاربة الروم رأوا أن يستجيبوا لطلب الصلح تقدم إليهم به باسيل الثانى وجرت بين برجوان وصى الحاكم وباسيل مراسلات وأرسل برجوان إلى القسطنطينية بطريق بيت المقدس وتم عقد هدنة مدتها عشر سنوات فى عام ٣٩١هـ / ١٠٠١م ، وكان من شروطها تمتع الروم فى بلاد الفاطميين بالحرية الدينية ويسمح لهم بتجديد كنائسهم ، وبقي الحاكم بأمر الله متمسكا بالهدنة مع باسيل فعندما بعث الروم رسولا إلى الحاكم فى عام ٤٠٥هـ / ١٠١٤ رحب به الحاكم واستقبله فى قصره.

ولما فكر باسيل فى نقض الهدنة، إذ قام بهدم جامع المسلمين فى القسطنطينية فرد الحاكم بإصدار أمره بهدم كنيسة القيامة المقدسة فى بيت المقدس فى عام ٤٠٠/١٠٠٩ مزار النصارى الذى صلب فيه المسيح ويحتمل أن يكون السبب الرئيسى فى هدمها حتى لا تكون حجة لقدم الروم إليها إلى بيت المقدس بقصد حمايتها وحماية ذكريات المسيحية .

كما أرغم الحاكم جالية الروم فى مصر على الخروج منها وكانوا

يعيشون فى حارة الروم وكانت خاصة بهم . كما هاجر نصارى بيت المقدس من غير العرب إلى بلاد الروم. وأيضا تقرب الحاكم من جماعة تعرف بالأبخاز ويحتمل أنهم من البلغار أو الروس وملكهم يعرف بالأبخازى وكانوا يحاربون باسيل الثانى الذى بعث بأسطوله إلى الأبخاز فبعث جرجس ملكهم إلى الحاكم ليتعاونوا ضد باسيل الثانى ويقاقلوه ويبدو أن باسيل الثانى أثر السكون عندما أدرك ما يدبر له الأعداء من مكيدة ، ثم أصدر باسيل الثانى أمرا بمنع التجارة مع مصر والشام. ثم بعد فترة بعث الحاكم يطلب وده وبهذا الأسلوب اليقظ للخليفة الفاطمى الحاكم مكنت الفاطميين من بسط نفوذهم على الشام ولم يقع مثل ذلك قبل الفاطميين.

ثم قام عرب الشام بثورات ضد الفاطميين استمرت من عام ٤٠٢هـ/ ١٠١١م إلى عام ٤٠٤/١٠١٣م. ولما أدرك الحاكم خطورة ثورة عرب الشام بعد محاولتهم دعوة الحجاز للثورة ضد الفاطميين بعث الحاكم بجيش مغربى كبير يقوده على بن جعفر بن فلاح ، وشارك مع هذا الجيش الفاطمى الكبير الجيوش التى كانت فى الشام بجميع نواحيه وبذلك قضى على الثورة فى بلاد الشام.

كما تمكن الحاكم بأمر الله من أخذ حلب التى استولى عليها لؤلؤ الكبير بعد موت سعيد الدولة فى ٣٩٣/ ١٠٠٢ وأعلن لؤلؤ الطاعة للفاطميين بعد عقدها الصلح مع الروم، وبعث بأولاده إلى مصر وأعلن الدعوة الفاطمية فى حلب تأكيدا لولائه وخضوعه لمصر، ولما حاول أبو الهيجاء الحمدانى استعادة حلب بموافقة باسيل بعث الحاكم جيوشه لمساعدة لؤلؤا ، إلا أن لؤلؤا على الرغم من هذه المساعدة فإنه قطع الدعوة الفاطمية وحارب وإلى

طرابلس من قبل الحاكم فشجع الحاكم زعماء بنى كلاب المحيطين بحلب وهم المرداسيون فأغاروا بقيادة صالح بن مرداس الكلابى على بلاد لؤلؤ.

وفى عام ٣٩٩ / ١٠٠٨ مات لؤلؤ وخلفه إبنه منصور (مرتضى الدولة) وواصل الكلابيون عداهم لحلب واستولوا على نصف بلاده ففر منصور إلى الروم فى عام ٤٠٤ / ١٠١٢ وهكذا ضاع ملك الحمدانيين ولقب الحاكم صالح بن مرداس بأسد الدولة إلا أن فتح وهو أحد غلمان لؤلؤ احتفظ بالقلعة فى حلب ولم يرض أن يسلمها لصالح واتصل بجيش الحاكم فلقبه الحاكم (مبارك الدولة) ولما دخل جيش الحاكم حلب بالاتفاق مع فتح الذى استولى على القلعة والمدينة. وهكذا صارت حلب خاضعة لنواب الحاكم الذى ولاها غاما (فاتك) لمنجوتكين القائد الفاطمى السابق بدلا من فتح وحكم فاتك الذى لقبه الحاكم بأمرير الأمراء حكم حلب من عام ٤٠٧ / ١٠١٦ إلى نهاية عهد الحاكم وقد أعفى الحاكم أهل حلب من المكوس (ضريبة الإنتاج) والخراج (ضريبة الأرض).

وبعد موت الحاكم بأمر الله ثار عرب الشام على الفاطميين، فحاربهم أنوشتكين (الدريى) وهزم عرب الشام عند نهر الأردن فى الأُفحوانه فى ربيع الآخر عام ٤٢٠ / أبريل ١٠٢٩ وقد أبقى البيزنطيون دبل علاقتههم بالمسلمين الفاطميين علاقة سلمية ولم يقبل باسيل الثانى الاسنجابة لدعوة زعماء الشام بمحاربة الفاطميين. ثم بعثت ست الحكم وهى ست الملك التى أشرفت على خلافة أحيها إلى باسيل الامبراطور البيزنطى برسالة شفعية حملها إليه بطريق بيت المقدس يعلنه بأن تعود الكنائس إلى النصارى الذين على المذهب البيزنطى وتجديد كنيسة القيامة المقدسة. وسائر البيع فى مصر

والشام، وعودة أوقافها إليها واستقامت أمور النصارى جميعهم . كذلك جدد الفاطميون الهدنة مع البيزنطيين فى عام ٤١٨هـ / ١٠٢٧م ونصر على أن يخطب للخليفة الفاطمى فى المسجد الكائن بالقسطنطينية مقابل إعادة بناء كنيسة القيامة التى سبق هدم جزء منها .

وفى عهد المستنصر الفاطمى (٤٢٧ - ٤٨٧ / ١٠٣٥-١٠٩٤) صارت قبضة الفاطميين فى الشام أكثر قوة بفضل الدزبرى الذى تمكن من فتح حلب بعد مقتل نصر بن صالح عند حماه ودخل حلب فى ٤٢٩هـ / ١٠٢٧م وسك العملة باسم المستنصر الفاطمى وصار الدزبرى نائبا للخليفة الفاطمى فى حكم الشام .

وبعد موت الدزبرى فى عام ٤٣٦ / ١٠٤٤ وقعت الثورات فى بلاد الشام .

ثم ضعفت الخلافة الفاطمية بمصر ، وظهر السلاجقة الذين قدموا من وسط آسيا فى هجرات كثيرة وسيطروا على ابلاد فى طريقهم إلى العراق، وقبوا من الخلافة العباسية وخاصة أن الأتراك السلاجقة دخلوا فى الإسلام على المذهب السنى ثم استطاع السلاجقة الاستيلاء على حلب فى عام ٤٧٩ / ١٠٦٦ ثم حدث تقارب بين البيزنطيين والسلاجقة فأرسل السلاجقة سفارة الى القسطنطينية التى قامت بإعلان الخطبة للخليفة العباسى فى جامع القسطنطينية بعدما ألغت الخطبة للخليفة المستنصر الفاطمى، على أن الفاطميين الذين تمكنوا من بسط نفوذهم فى الشام حتى الفرات وعملوا على توحيد مصر والشام عانوا من العقبات التى واجهتهم بسبب المطامع

الشخصية لبعض قادة الشام وانقسامهم مما أضعف الجبهة الفاطمية أمام البيزنطيين ، مع أن الوحدة كانت السبيل لصدمهم.



ضعف شأن الدولة العباسية فى القرن الرابع الهجرى/ العاشر الميلادى وانفصلت عنها أطرافها شرقا وغربا، وقامت فى تلك الأطراف المنفصلة دول مستقلة، وشهد هذا القرن انتصار المذهب الشيعى وقيام الدولة الفاطمية التى استقلت بمصر والمغرب استقلالاً تاماً، والتى ضمت إليها بعد ذلك الشام والحجاز واليمن وكلها من أملاك الدولة العباسية.

وفى بغداد نفسها عاصمة الخلافة العباسية فقد الخليفة كل سلطانه وانتقل هذا السلطان إلى أيدى بنى بوية وهم أسرة شيعية. وهكذا تشتت الملك الإسلامى بعد أن كان يكون دولة قوية موحدة فى العصر الأموى. وفى العصر العباسى الأول إلى حد كبير وانتهزت الدولة البيزنطية فرصة هذا الضعف العام وانقسام وتفكك القوى الإسلامية وصارت تغير على حدود الدولة العباسية.

كانت الدولة فى حاجة إلى من يعيد لها مجدها، وحينذاك ظهر الأتراك السلاجقة – طغرل بك (٤٢٩-٧٠٠هـ / ١٠٣٧-١٣٠٠م) والأتراك السلاجقة عشائر تركية يرجع نسبهم إلى جدهم سلجوق بن يقلق وينتمون إلى إحدى القبائل التركية الكبيرة هى قبيلة الغز، وأول نزولها فى مدينة حبز عند نهر سيحون، وقاموا بخدمة خانات التركمان فى بلاد ما وراء النهر.

وتبدأ أهمية السلاجقة منذ اعتنق زعميها سلجوق الدين الإسلامى بعد نزوله فى حبز . ثم بدأ تقدمهم نحو العالم الإسلامى المجاور . وكانت الدول القائمة بالحكم فى البلاد الإسلامية حينئذ فى بغداد عاصمة الخلافة وفى العراق وفارس الدولة البويهية والدولة السامانية فى خراسان وماجاورها وكان السامانيون والبويهيون يتجهون إلى الضعف والتفكك.

وأما الدولة السامانية فقد كان يقوم بالحكم نيابة عنهم فى خراسان وغزنه محمود بن سبكتكين (٢٨٨-٤٢١/٩٩٨-١٠٣٠) الذى لم يلبث أن استقل بهذه الأجزاء وأسس دولة جديدة مستقلة استقلالاً داخلياً هى الدولة الغزنوية. وحين خطب محمود بعد استقلاله للخليفة القادر العباسى اعترف بولايته وخلع عليه ولقبه يمين الدولة. فالعالم الإسلامى المجاور كان يقوم فيه وقت ظهور سلجوق وقبيلته دولتان ضعيفتان : السامانية والبويهية والدولة الغزنوية الناشئة.

ثم قام صراع بين الدولة الغزنوية والسلاجقة وبقي بعد هذا الصراع طائفة كبيرة من السلاجقة فيما وراء النهر يتزعمها طغرل بك ثم عبرت هذه الجموع نهر جيحون بعد ذلك وانضموا إلى أقاربهم فى خراسان ثم قامت حروب بين الغزنويين والسلاجقة فى موقعة مرو وانتصر السلاجقة بقيادة طغرل بك فى عام ٤٢٩ / ١٠٣٨ ثم تراجع الغزنويون إلى غزنة وبسط السلاجقة نفوذهم على معظم خراسان وجعلوا مرو عاصمة لهم ثم تفرق زعماء السلاجقة أخوة طغرل بك واتجهوا غرباً يوسعون أملاكهم، فقام إبراهيم أحد هؤلاء الإخوة وفتح همذان واقليم الجبل والعراق العجمى . ثم إتجه شمالاً فوصل أرمينية وأرضروم وطرابزون ثم واجه طغرل بك أخوه

إبراهيم واستولى منه على المدن التي فتحها. واتسع ملك طغرل بك حتى جاور بغداد العاطمة.

وفي بغداد قصد أحد قادة الخليفة العباسي وهو أرسلان البساسيري خلع الخليفة العباسي القائم ليحل محله الخليفة الفاطمي في مصر وعند ذلك أمر الخليفة القائم بأن يخطب باسم طغرل بك على منابر بغداد في رمضان عام ١٠٥٥/٤٤٧ وسمح الخليفة لطغرل بت دخول بغداد، وهكذا حلت السلاجقة محل البويهيين.

ثم عاد البساسيري يدبر مؤامرة ضد الخليفة القائم مرة ثانية وذلك في غياب طغرل بك خارج بغداد وهنا أسرع طغرل بك بالعودة إلى بغداد وحارب البساسيري وهزمه ثم قتله وأعاد الخليفة القائم إلى عرش الخلافة.

ثم بعد وفاة طغرل بك عام ٤٥٥هـ / ١٠٦٣م تولى ألب أرسلان ملك السلاجقة وسار في حروب متتابة يعمل على نصرة الإسلام. ثم توجه السلاجقة (٤٥٥-٤٦٥/١٠٦٣-١٠٧٢) لمحاربة البيزنطيين وفتح بلادهم، فقد جعل السلاجقة من أهدافهم أخذ أراضي الدولة البيزنطية وامتلاكها ففي عام ٤٥٨/١٠٦٥ استولى ألب أرسلان على اني ثم على قرس العاصمتان القديمتان لأرمينيا والمركزان الأساسيان لقوة البيزنطيين وبنفوذهم في الأقاليم الشمالية الشرقية بن آسيا الصغرى ، ثم استولى السلاجقة على قلب أرمينيا، ثم أخذوا بعد ذلك يفتحون القرى والضياع حتى وصلوا إلى كبادوكيا وسيطروا عليها ثم إلى قيصرية عام ٤٦٠/١٠٦٧م.

وعندما تولى عرش بيزنطة رومانوس الرابع (٤٦٠هـ-٤٦٤/

١٠٦٧-١٠٧١) أخذ في إصلاح أحوال بيزنطة الداخلية ثم أعاد تنظيم الجيش البيزنطي إلا أنه جعله مكونا من الجند المرتزقة من النورمان والإيطاليين والتركمان الآسيويين ومن الفرنج الغربيين ثم بدأ في استرداد الأناضول حتى الفرات شرقا من جموع السلاجقة، وعلى الرغم من تمكن رومانوس من تحقيق أغراضه في ظل ظروف صعبة إلا أنه لم يستطع مواجهة السلاجقة لسرعة حركتهم فلم يمكنوه من الوصول إلى هدفه الذي حدده لنفسه لتحرير الأرض واستعادتها.

اتجه رومانوس إلى طريق سيواس وقيصرية لكي يصل إلى مرعش على الحدود بين الشام وقيليقية في عام ٤٦١هـ / ١٠٦٨م وقد تمكن من الوصول إلى منبج في جيش كبير على الضفة الغربية لنهر الفرات وعندما ترك حامية في أرتاح شرقي انطاكية . في الوقت الذي واصل فيه السلاجقة هجومهم حتى عمورية في قلب فريجيا، وهنا أصبحت أرمينيا طريقا مهدا للسلاجقة الوصول إلى قلب آسيا الصغرى وحسارت البلاد طيعة لهم وتحت سيطرتهم. وهكذا وجد السلاجقة أنفسهم في قلب آسيا الصغرى، وهم في نفس الوقت يتجنبون الاشتباك مع الجيش البيزنطي ، ثم تمكن السلاجقة من التغلب على حاكم ملطية البيزنطي واستولوا على المدينة.

وفي عام ٤٦٤/١٠٧١ تغلب السلاجقة على القائد البيزنطي مانويل كوفين قرب سيواس وأسروه، على أن الرها ظلت في تلك الفترة تحت سيطرة البيزنطيين على الرغم من محاولات السلاجقة في غزوها.

ثم انتهى ألب أرسلان من مشاكله الداخلية وأسرع بالعودة لمحاربة

البيزنطيين واستطاع تحقيق إنتصارا عليهم فى ملازكرد فى عام ٤٦٢/ ١٠٧١ وتقع شمالى بحيرة فان وكانت آخر ما بقى لبيزنطة من أرمينيا. ثم استرد ألب أرسلان ملطية من البيزنطيين ثم اتجه بعدها إلى الرها ولم يتمكن من فتحها.

ثم اتجه ألب أرسلان إلى حلب وأخضعها وأعلن رشيد الدولة محمود المرداسى تبعيته للسلاجقة ، وفى عام ٤٦٤هـ/ ١٠٧١ م خرج الامبراطور رومانوس الرابع يحاول استرداد أرمينيا فى جيش بلغ مائة ألف مقاتل. وعند وصوله إلى أرزن قسم قواته ويحث بجزء من جيشه لمهاجمة خلاط وسار هو يقود بقية الجيش ناحية ملازكرد واستولى عليها.

ولما سمع ألب أرسلان بذلك غادر مسرعا متجها إلى أرمينيا وبقي بها ثم أرسل إلى الامبراطور رومانوس يدعوه إلى المهادنة فرفض رومانوس.

وفى صفر عام ٤٦٤/ أغسطس ١٠٧١ تقابل ألب أرسلان برومانوس الرابع جنوبى ملازكرد ودارت موقعة بين الطرفين وهُزم فيها الامبراطور ووقع فى الأسر. وقد حدثت مفاجأت فى هذه الموقعة إذ لم تنفع الامبراطور شجاعته بعدما خذله الجنود المرتزقة من التركمان الذين انسحبوا من المعركة وانضموا إلى السلاجقة لرابطة الدم وأيضا تخلى بعض القادة البيزنطيين عن الامبراطور مما أشاع خبر الهزيمة بينما لم تنته المعركة، وعندها انسحب الجنود من المعركة فوقع الامبراطور فى الأسر.

وتعد موقعة ملازكرد أكبر كارثة حلت بالإمبراطور حتى نهاية القرن الخامس الهجرى/ الحادى عشر الميلادى. وهكذا أظهرت هذه المعركة مدى

ضعف الامبراطورية أمام القوى الإسلامية وأصبح على الغرب الأوربي القيام بدوره فى مواجهة الأعداء بدلا من الامبراطورية البيزنطية الضعيفة وكانت هذه الموقعة سببا لما حدث فى عام ٤٨٨ / ١٠٩٥ من المناداة بحرب صليبية فى غرب أوربا.

لقد كشفت هذه الموقعة عن مدى الضعف الذى عليه بيزنطة وقد أطلق السلطان ألب أرسلان سراح الامبراطور رومانوس الرابع وأحسن معاملته ومنحه عشرة آلاف دينار لمعاونته على السفر عند عودته لبلاده مكرما. ثم اتجه السلطان فى عام ٤٦٥/ ١٠٧٢ إلى الشرق لإخضاع بلاد ما وراء النهر (جيجون) ولما قتل ألب أرسلان خلفه فى الحكم ابنه ملكشاه (٤٦٥-٤٨٥هـ/ ١٠٧٢-١٠٩٢م) فقامت السلاجقة فى عهده واتسعت حتى امتدت إلى حدود الصين شرقا وبحر مرمرة غربا. على أن القائد السلجوقى سليمان بن قتلمش هو الذى قاد الحرب ضد البيزنطيين ونشر نفوذ السلاجقة على ثلاثة أرباع آسيا الصغرى. وقد سهل الطريق أمام السلاجقة فى هذه الفتوحات الإسلامية أنها لم تكن أهلة بالسكان لهجرة أهلها منها بسبب الحروب المستمرة بين بيزنطة والمسلمين.

ولما قامت حرب أهلية فى الدولة البيزنطية تمكن السلاجقة من الاستيلاء على فريجيا وبيتينا إلى بحر مرمرة ثم ليديا وأيونيا حتى بحر إيجه. ولم تكن الأوضاع الداخلية للإمبراطورية مستقرة فى القرن الخامس الهجرى/ الحادى عشر الميلادى مما أعطى الفرصة للطامعين من الحكام فى المدن والولايات من الثورة والخروج على الدولة والاستقلال بما فى أيديهم.

وفى بداية عام ١٠٧٨/٤٧١ ثار نقفور حاكم عمورية فى فريجيا على الامبراطور ميخائيل السابع ثم أعلن نفسه امبراطور باسم نقفور عام (٤٧١-٤٧٤/١٠٧٨-١٠٨١) وقد استعان فى سبيل تحقيق غرضه بالسلاجقة الذين جاؤهم الفرصة سهلة ميسرة فاستولوا على مدن نيقية ونيقوميديا وخلقدونيا والبسفور . وقيمت تلك المدن تابعة للامبراطورية شكلا إلا أن الحاميات الامبراطورية الجديدة كانت تتألف من رجال يدينون بالإسلام وليست لهم علاقة بالقسطنطينية أو ااخلية الأناضول . وفى نهاية عام ١٠٧٨/٤٧١ أعلنت حامية نيقية العصيان ضد الإمبراطور نقفور الثالث. ثم ظهر نقفور آخر جديد عقد اتفاقية مع سليمان بن قتلмыш الذى تعهد بمساعدة نقفور الثائر فى الإستيلاء على القسطنطينية مقابل حصول السلاجقة على نصف المدن والأقاليم التى فى أيدي السلاجقة منذ عهد الامبراطور المغتصب نقفور الثالث.

قام نقفور المغتصب من كورس عام ١٠٨١/٤٧٤ ومعه جموع من السلاجقة واحتلوا نيقية وبيثينا جميعها وظلت هذه المدن فى يد السلاجقة نهائيا، ثم ظهر الكسيوس كومنين الذى اعتلى عرش الامبراطورية البيزنطية بعدما سيطر عليها تماما وقبل نقفور الثائر الدخول فى طاعة الامبراطور الجديد إلا أن السلاجقة رفضوا التخلّى عما فى أيديهم من ممتلكات الامبراطورية البيزنطية التى احتلوها فى آسيا الصغرى . ثم جعل السلاجقة من نيقية مركزا لهم. وقد صار نيقية هذه أول عاصمة لسلطنة سلاجقة بالروم فى الأناضول ثم استبدلها السلاجقة بمدينة قونية بعد ذلك ٤٧٤-١٢٠٢/١٠٨١-٧٠٢ . ثم استعاد البيزنطيون نيقوميديا بعد وفاة سليمان بن قتلмыш عام ١٠٨٦/٤٧٩ .

ثم احتل الأتراك السلاجقة مدينة أزمير على بحر إيجه ثم أنشأ حاكم أزمير التركي زاخاس الاسطول البحرى الذى غزا به الجزر القريبة من شاطئ آسيا الصغرى، بل إنه هدد بهذا الاسطول القسطنطينية العاصمة البيزنطية الكبيرة. ثم جاءت أسرة دانشمند التركمانية وكونت إمارة قوية حول قيصرية وسيواس وأماسيا وجعلها تابعة للسلطان السلجوقى ماكشاه.

على أن جميع هذه الإمارات السلجوقية التى أشرف عليها السلاجقة عقدت مهمة المسيحيين عند محاولتهم استرداد آسيا الصغرى. وحين تولى العرش الكسيوس كونين على الدولة البيزنطية عام (٤٧٤هـ / ١٠٨١م) وجد الأتراك السلاجقة يسيطرون على آسيا الصغرى من الفرات شرقا إلى بحر مرمرة غربا ولو أنهم لم يكونوا تحت قيادة موحدة حيث ظل زاخاس أمير أزمير ودانشمند أمير كبادوكيا مستقلين عن سليمان بن قتلمش، وظلت آسيا الصغرى دون قيادة سياسية موحدة حتى عام ٤٨٥ / ١٠٩٢ حين قامت سلطة قوية في قونية يتزعمها قلعج أرسلان الأول بن سليمان.

ثم امتد نفوذ السلاجقة إلى المدن الكبرى فى آسيا الصغرى بعدما هجرها أهلها لكثرة الحروب وما سببته من دمار فى تلك البلاد، على أن السلاجقة قد حرروا كثيرا من عبيد الأرض الذين خدموا فى ضياع كبار رجال الإقطاع البيزنطيين فى آسيا الصغرى . فتحول هؤلاء العبيد إلى السلاجقة الذين حرروهم من الرق الذى عاشوا فيه طويلا، وهذا ما جعل مهمة استرداد الأرض من السلاجقة أمرا بالغ الصعوبة. فضلا عن أن السلاجقة والتركمان كانوا قد استقروا فى تلك الأرض التى صارت وكأنها خالصة للسلاجقة.

الفصل الثالث

ظهور النورمان في آسيا الصغرى

- * الأرمن في طرسوس.
- * صراع الأتراك لسلاجقة في بلاد الشام.
- * ضعف الأتراك السلاجقة.
- * ظهور الإنقسام بين مسيحي الشام.
- * بيزنطة بين الشرق والغرب.

عندما استعان الامبراطور رومانوس الرابع بالنورمان المرتزقة القادمين من صقلية وجنوب إيطاليا لإبعاد السلاجقة عن البلاد ظهر في هؤلاء النورمان مغامر طموح هو رسل ناليل الذي تمكن إخضاع الجهات المحيطة بقونية وأنقرة لإقامة دولة مستقلة وحارب من أجل ذلك البيزنطيين والسلاجقة. وقد نتج عن موقف رسل هذا ضعف الموقف البيزنطى ووقوع القائد البيزنطى اسحق كومنين أسيرا لدى السلاجقة.

وقد حاول الامبراطور البيزنطى ميخائيل السابع إخضاع رسل فبعث بحملة بقيادة حنا دوقاس إلا أن الحملة فشلت فى جنوبى عمورية وأسر القائد البيزنطى أيضا. وهناك أدرك رسل ضعف الدولة البيزنطية وسار بقواته إلى البسفور متجها إلى القسطنطينية وأعلن أسيره حنا دوقاس عم الامبراطور امبراطور الإضفاء الشرعية على حكمه، وقد انزعج الإمبراطور ميخائيل السابع من حركة رسل واستتجد بالسلاجقة لصد النورمان فساعد هذه الخطوة من جانب الامبراطور البيزنطى السلاجقة لتوطيد نفوذهم فى آسيا الصغرى إذ أن سليمان بن قتلمش عقد معاهدة مع البيزنطيين فى عام ١٠٧٤/٤٦٧م جاء بها أن السلاجقة يقدمون المساعدة المطلوبة لبيزنطة مقابل امتلاك الأراضى التى يفتحونها. وواصل السلاجقة مساعدتهم للبيزنطيين خاصة بعد قدوم تتش السلجوقى الذى حارب رسل وتمكن من هزيمته وأسرهم وسلمه للقائد البيزنطى الجديد الكسيوس كومنين الذى اعتلى عرش بيزنطة بعد ذلك.

وهكذا لم تنجح خطة رسل وفشل النورمان فى إقامة دولة لهم فى الأناضول، ثم استطاع النورمان أن يقيموا لهم إمارة فى انطاكية بعد ذلك

بعشرين عاما ، وقد نتج عن محاولة رسل الفاشلة إزياد النفوذ السلجوقي في آسيا الصغرى .



سار السلاجقة متجهين من الشرق إلى الغرب عبر أرمينيا وكبادوكيا وفريجيا وبيثينيا وأيونيا وضمت جميع الجهات الشمالية والوسطى من شبه الجزيرة ولم يتجه السلاجقة إلى الاقاليم الجنوبية والشرقية من آسيا الصغرى - حول طرسوس وملطية والرها وأنطاكية - وصارت تلك الجهات في عزلة عن الدولة البيزنطية وتلقت الضربات خلال الصراع بين البيزنطيين والسلاجقة في آسيا الصغرى . ثم قامت الحركة الأرمينية التي جعلت من تلك المنطقة مركزا لإحياء أرمينيا من جديد وصارت لها أهمية كبرى في الحروب الصليبية التي ساعدت الصليبيين بعد عشرين عاما في الوصول إلى الجزيرة والشام والاستيلاء على الرها وأنطاكية .

ولما سمحت بيزنطة للملوك أرمينيا وأمراءها في تملك الضياع الكبيرة في إقليم كبادوكيا كان السلاجقة قد انتشروا في تلك الأرض بحيث تعذر على الأرمن الحصول على مكان بين السلاجقة فاتجهوا إلى إقليم قبايقية الجبلى في جنوب شرق آسيا الصغرى وتركزوا في الجهات المحيطة بملطية والرها وأنطاكية .

وقد ساعد تواجد الأرمن في ذلك الركن الجنوبي الشرقي من آسيا الصغرى على الاعتماد عليهم في مواجهة الغزو السلجوقي . على أن فلاريتوس الأرمني بعد هزيمة رومانوس الرابع في ملازكرد رفض أن

يخضع للامبراطور البيزنطى ميخائيل السابع فى الوقت الذى عمل فيه فلاريتوس على التقرب من السلاجقة. وقد تمكن فلاريتوس من تدعيم مركزه حول مرعش ورعبان والأبلستين ، ثم أقام إمارة مستقلة عن الدولة البيزنطية ثم قوى مركزه بعد أن ضم — ملطية وكان السلاجقة قد استولوا عليها فى عام ١٠٦٩/٤٦٢م. وقد أدرك بعض قادة الأرمن المجاورين قوة فلاريتوس فأعلنوا ولاعهم له، وقد تمكن هؤلاء من الاستيلاء على أجزاء متفرقة من قيليقية. وصار فلاريتوس يخضع له ثلاث مدن رئيسية فى قيليقية وطرسوس والمصيصة وعين زربة.

وفى عام ١٠٧٧/٤٧٠ تمكن فلاريتوس الأرمنى من غزو الرها بمساعدة من بها من الأرمن الذين فضلوا تسليمها إلى فلاريتوس عن وقوعها فى أيدي المسلمين السلاجقة. وقد كون الأرمن إمارات مستقلة لهم بعد ما أوردكوا تعذر وصول نجدات اليهم من بيزنطة. وقد استطاع فلاريتوس وضع أساس دولة، أرمينية جديدة فى جنوب شرق آسيا الصغرى ثم قيامها فى القرن السابع الهجرى / الثالث عشر الميلادى فى عهد زويان وهيثوم ملوك أرمينيا الصغرى.

وفى عهد الامبراطور البيزنطى نقفور الثالث (٤٧١-٤٧٤هـ/ ١٠٧٨-١٠٨١م) أقام علاقات طيبة مع فلاريتوس الذى استجاب لبيزنطة واعترف بسيادتها ولو أنه بقى مستقلا من الناحية الفعلية فى نفس الوقت الذى لم يقطع حبل الود بينه وبين السلاجقة المسلمين.

ولم يكن يقبل السلاجقة استمرار بقاء أنطاكية فى يد الأرمن فانتهاز سليمان بن قتلмыш فرصة اضطرابات داخلية وهاجم أنطاكية وفتحها فى

عام ١٠٨٥/٤٨٧ . ولما استولى عليها صليبيرو الغرب بعد ذلك بفترة قليلة
فى الحملة الصليبية الأولى، نازعهم البيزنطيون، عليها منذ أول يوم قامت فيه
إمارة انطاكية الصليبية لأن النظم ومعالـم الحكم البيزنطى لم تكن قد
ضاعت بعد.

وهكذا ساعد الأرمن الصليبيون باستمرار تواجدهم فى شرق آسيا
الصغرى وأطراف العراق والشام ، وكان لهم دور بارز فى تاريخ الحروب
الصليبية.



وقع الصراع فى شمال الشام بين اثنين من أمراء السلاجقة الأول
سليمان بن قتلـمـش فاتح الأناضول من نيقية إلى أنطاكية والثانى تتش أخو
السلطان ملكشاه. تنازع تتش مع سليمان وفى معركة قرب حلب انهزم فيها
سليمان وسقط قتيلـا فى عام ١٠٨٦/٤٧٩م. وقد ترتب على مقتل سليمان بن
قتلمش نتائج خطيرة بعيدة الأثر . وصار الأناضول فى أعوام (٤٧٩-
١٠٨٦/٤٨٥-١٠٩٢) بغير حاكم قوى من السلاجقة، فتولى صغار الأمراء
من التركمان الحكم. كما أن هذا الموقف مكن الحملة الصليبية الأولى من
تخطى آسيا الصغرى دون مشقة كبيرة إلى الشام، فاستولوا على نيقية
وحققوا انتصاراتهم على السلاجقة فى صورليوم فيما بعد . كما أن مقتل
سليمان بن قتلـمـش عند حلب أثار الفرقة بين الأمراء السلاجقة وصار
سلاجقة الروم يحققون على أقرانهم سلاجقة فارس والشام لمقتل سليمان بن
قتلمش، واستمر تفرق السلاجقة حتى بعد ظهور الخطر الصليبي ولم

يحاول السلاجقة أن يقيموا جبهة متحدة لصد الصليبيين. وقد سهل هذا الموقف على الصليبيين مواجهة السلاجقة متفرقين مما مكنهم من تحقيق النصر على السلاجقة .

أما تتش أخو ملكشاه فقد واجهه ملكشاه ووجد تتش أن من المصلحة ألا يواجه أخاه وتركه يدخل حلب قادماً إليها من أصفهان عن طريق الموصل، وفي حلب قام ملكشاه بإعادة توزيع الإمارات الشامية فمنح حلب حاجبه أقسنقر مؤسس البيت الزنكي ٤٨٠هـ / ١٠٨٧م فجدها وعامل أهلها بإحسان. ثم اتجه ملكشاه إلى أنطاكية فتسلمها من الحسن بن طاهر وزير سليمان بن قتلمش ثم اتجه إلى السويدية وهي ميناء انطاكية فصلى عند الشاطئ شكراً لله.

لقد مد ملكشاه نفوذه إلى كثير من أراضى الدولة الإسلامية وقد منح ملكشاه الرها إلى قائده يوزان التركي فتولاها القائد التركي مؤيد الدولة ياغي سيان. أما تتش فقد كانت له دمشق وفسطين وبقى بيت المقدس في يد الأمير أرتق، ولما توفي أرتق في عام ٤٩٤هـ / ١٠٩١م أعقبه أبنة سكرمان الأول. وبذلك حد السلطان ملكشاه من أطماع أخيه تتش في إقامة دولة كبيرة موحدة بالشام.

لقد أخطأ تتش حين حارب سليمان معركة الشام عام ٤٧٩/١٠٨٦ التي انتهت بمقتل سليمان فأدى ذلك إلى حرمان آسيا الصغرى من رجل قوى يقود السلاجقة لقتال الصليبيين وصدّهم عن الأرض المقدسة في الشام، وقد نتج عن صراع السلاجقة أن استفاد الصليبيون من الانقسامات

بين السلاجقة فى أسيا الصغرى. ولما لجأ تتش إلى أخيه ملكشاه لىسمح له بالتوسع على حساب الفاطميين وافقه السلطان وصرح له بما أراد وطلب من أمراء حلب ويزان معاونة أخيه تتش. وقد أطلق ملكشاه لأخيه تتش حرية التصرف فى ملك السلاجقة بسوريا وجعلها وراثية فى بيت تتش فقامت بذلك دولة السلاجقة فى سوريا وهكذا قام الصراع بين القوى الإسلامية فى بلاد الشام بين السلاجقة بعضهم وبعض وبين الفاطميين وأيضا القبائل العربية التى كونت لنفسها إمارات مستقلة فى بلاد الشام. وقد حدث هذا فى الوقت الذى بدأ فيه الخطر الصليبي يظهر فى الافق فى الأرض الشامية.



بلغ ملك السلاجقة فى عهد ملكشاه أقصى اتساع فأصبح يمتد من حدود أفغانستان فى الشرق إلى حدود الدولة البيزنطية والدولة الفاطمية فى الغرب. وقد زادت العلاقة إرتباطا بين السلاجقة والعباسيين بعدما تزوج الخليفة المقتدى ابنه ملكشاه ورزق منها ولدا اسماه أبا الفضل جعفر ، إلا أن هذا الولد كان سببا فى إضعاف العلاقة بين ملكشاه وبين الخليفة المقتدى لأن الخليفة كان قد أوصى بولاية العهد الأكبر أولاده وهو الذى سبلى الخلافة باسم المستظهر، وعندما دخل ملكشاه بغداد عام ١٠٩٢/٤٨٥ الزم الخليفة بخلع المستظهر لتكون ولاية العهد لسبطه جعفر وطلب اليه تسليم بغداد لجعفر ويخرج هو إلى البصرة . فتضايق الخليفة وعارض السلطان ولكن ملكشاه أصر على رأيه فطلب منه الخليفة مهلة عشرة أيام فوافقه السلطان.

ثم إن السلطان مرض فى خلال هذه الأيام ومات فحمل إلى أصفهان ودفن بها فى عام ١٠٩٢/٤٨٥ . وبعد وفاة السلطان بدأت دولة السلاجقة فى التفكك. وكان للسلطان ملكشاه ثلاثة أبناء هم بركيارق ومحمد وسنجر وأخ رابع غير شقيق هو محمود. ثم إن المستظهر تولى الخلافة بعد أبيه وتزوج من خاتون ابنة ملكشاه. على أن نجاح السلاجقة واتساع ملكهم فى عهد ألب أرسلان وملكشاه يرجع الفضل فيه الى الوزير نظام الملك وهو أبو على الحسن بن على قوام الدين نظام الملك الطوسى. وقد نشأ نظام الملك فى مدينة الراذ قرب طوس. درس الحديث والفقه ومارسه وتقابل بعد ذلك مع داود بن ميكائيل السلجوقى والدألب أرسلان فلما وثق به داود أسند إليه رعاية ابنه ألب أرسلان وقال لابنه أطعه كأبيك. وقد تمكن ألب أرسلان من تدبير ملكه وساعده نظام الملك مدة عشر سنوات ثم مات ألب أرسلان وورثه ابنه ملكشاه الذى تولى أمره نظام الملك خلال عشرين عاما.

وأول من أطلق عليه أتابك - أى مربى الأمير - هو نظام الملك . وقد جمع نظام الملك حوله العلماء من الفقهاء والصوفية فى طوس وهى فى تلك الأيام من أكبر المراكز للدراسات الدينية والعلمية وكان الشاعر الكبير عمر الخيام والفيلسوف الإسلامى الغزالى والحسن الصباح من وصفاء نظام الملك.

اهتم نظام الملك بشئون التعليم فبنى الكثير من المدارس والربط والمساجد. وقد تبعه فى هذا السبيل الملوك والأمراء. ونظام الملك هو الذى أنشأ المدارس النظامية فى نيسابور وبغداد وبلخ والموصل وهرات ونظامية بغداد وهى أهمها. وصار لهذه المدارس تقاليدها التى ميزتها عما كان قبلها

من معاهد العلم كالمساجد والجوامع حيث عين المدرسين المتفرغين للعلم والتعليم وخصص لها الأوقاف للإنفاق على المدرسين والعاملين فيها.

على أن الخطر الذي واجه السلاجقة في بلاد الشام هو أن تنتش لم يرض عن التنظيم الذي أجراه أخوه ملكشاه في الشام في عام ١٠٨٦/٤٧٩ حيث كان يأمل أن تكون بلاد الشام كلها من نصيبه إذا بالسلطان ملكشاه يعطى حلب لحاجبه أقسنقر مؤسس البيت الزنكي عام ١٠٨٧/٤٨٠. وبذلك لم يبق لنتش أخو السلطان ملكشاه غير دمشق وأواسط الشام. وبعد وفاة ملكشاه هاجم حلب فاذعن له أقسنقر حاكمها وتبعته أنطاكية والرها في الخضوع لنتش الذي اتجه بعد ذلك إلى فارس ليحظى بالسلطنة وفي الطريق اتجه إلى فارس.

استولى نتش على الرحبة ثم إلى نصيبين وفتحها غصبا ثم استولى على الموصل في عام ١٠٩٣/٤٨٦ ثم استولى على ميفارقين ثم دخل فارس عن طريق أذربيجان لخلع بركيارق بن ملكشاه. وهُنا وقعت المفاجأة إذ تخلى عنه اتباعه وانضموا إلى برقيارق فاضطر نتش إلى العودة إلى الشام بون أن يحقق أغراضه في السلطنة. هذا بينما دخل بركيارق بغداد في نهاية عام ٤٨٦ / ١٠٩٣ م.

على أن نتش لم يتراجع عن تنفيذ خطته في تولية عرش السلطنة فهاجم حلب واستولى عليها. ثم اتجه نتش إلى الفرات واستولى على حران والرها. ثم واصل نتش بعد ذلك سيره حتى وصل إلى الرى لمقابلة خصمه بركيارق وفي عام ١٠٩٥/٤٨٨ دارت معركة بين الطرفين انتهت بمقتل تاج

الدين تتش بعد أن تكررت خيانة قادته له حين تخلوا عنه في المعركة مما يدل على أن شدة تتش وقوته مع قادته دفعت بقادته لعدم الإخلاص له والتخلي عنه في لحظات الخطر. حدث هذا بين السلاجقة في الوقت الذي أخذت غرب أوروبا تعد نفسها للحرب الصليبية .

وفي عام ١٠٩٦/٤٩٠ تفككت دولة السلاجقة حتى صارت منقسمة إلى خمس ممالك هي سلطنة فارس (أصبهان) ويحكمها بركيارق وتتبعه خراسان وما وراء النهر، ومملكة حلب ويحكمها رضوان بن تتش ومملكة دمشق ويحكمها دقاق ابن تتش ثم سلطنة سلاجقة الروم ويحكمها قليج أرسلان بن سليمان ابن قتلمش، بينما كان كبادوكيا قد تمكنت من تحقيق الاستقلال الذاتي الأمر الذي زاد من حدة التفكك الذي سهل للصليبيين قدومهم إلى بلاد الشام.

ثم أخذ سلطان السلاجقة يتقلص بسرعة في أواخر القرن الخامس الهجري وأوائل السادس / ١١ ، ١٢ الميلادي، وظهرت الوحدات السياسية التي عرفت بالأتابكيات . ولم تكن تتعد الأتابكية غير مدينة واحدة أو حتى قلعة واحدة ثم زاد عدد هذه الأتابكيات على أنقاض دولة السلاجقة في الشام وفي فارس إلى أذربيجان.

أما فلسطين فقد اتجه إليها الفاطميون لحمايتها من الوقوع في أيدي الصليبيين واستولوا عليها. كما بسط الفاطميون نفوذهم على الساحل الشامي أم طرابلس فقد استقل بها أحد اتباع الفاطميين وهو ابن عمار أبو طالب وجعل منها إمارة مما ساعد على تفتت القوى الإسلامية في الشام وضعفها أما الغزو الصليبي.

أما سلاجقة الروم فقد أصابها الضعف بعد مقتل سليمان بن قتلمش في معركة قرب حلب في ١٠٨٦/٤٧٩ وفي عام ٤٨٥هـ / ١٠٩٢م بعث بركيارق سلطان فارس سراج قلعج أرسلان بن قتلمش الذي تولى حكم نيقية وتزعم سلاجقة الروم، ولم تكن العلاقة بين سلاجقة الروم والتركمان الذين أقاموا لهم إمارة الدانشمند في الركن الشمالي الشرقي من آسيا الصغرى - على وفاق ، إلا أنهم عندما أدركوا الخطر الصليبي عادوا إلى الاتحاد والتعاون فيما بينهم. وظل التعادل في القوى بين السلاجقة والبيزنطيين قائما إلا أنه بعد قدوم الحملة الصليبية من غرب أوروبا إلى الشرق تبدلت الأحوال وتحولت لصالح الصليبيين.



عندما اختلف البيزنطيون مع الأرمن والسريان واليعاقبة بعد محاولة حركة التوسع البيزنطي في الشرق في القرن العاشر تعرضوا جميعهم في القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي لخطورة الهجمات الصليبية - القادمة من غرب أوروبا الكاثوليكية - عليهم جميعا .

فقد قام البيزنطيون في عهد حنا شمشقبق بعد الإستيلاء على أنطاكية وضمها لبيزنطة، قام البيزنطيون بحملة عدائية ضد رجال الدين الأرمن . ولما اتخذ الأرمن (آنى) عاصمة لهم تعرض بطرس الأرمني ثم ابن أخته جاجك الأول (٣٨٠-٤١١/٩٩٠-١٠٢٠) لمضايقات من البيزنطيين لإجبارهم على الأخذ بنظام المبادئ الأرثوذكسية .

كذلك واجه الحكام الأرمن الذين تنازلوا عن بلادهم للامبراطورية البيزنطية فى مقابل إقطاعات فى كبادوكيا أرغمتهم بيزنطة لقبول الدخول فى المذاهب الأرثوذكسية الذى تتبعه الكنيسة البيزنطية وقد تداول الأرمن والبيزنطيون العداء بسبب الخلافات الدينية فيما بينهم. وكذلك فعل البيزنطيون مع السريان المسيحيين بعد استرداد أنطاكية والرها. ولم يكن السلاجقة يضايقون المسيحيين بل يحترمون عقيدتهم ولا يتعرضون لهم بأذى . ولذلك طالما اتصل الوفاق بينهم وبين السلاجقة المسلمين.

ولو أن بيزنطة تخلت عن عدائها للأرمن والسريان الكاثوليك لظلت هذه الجماعات حليفة لبيزنطة عند قدوم الحملة الصليبية من أوروبا الغربية الكاثوليكية إلى آسيا الصغرى وبلاد الشام ولكن التعصب الدينى دفع بالسريان والأرمن واليعاقبة إلى التقرب من البابوية ومقابلة الحركة الصليبية لغرب أوروبا ضد الشرق بالارتياح التام.



عندما تعرضت بيزنطة فى النصف الثانى من القرن الخامس / الحادى عشر الميلادى لهجمات السلاجقة فى آسيا الصغرى، تعرضت أيضا أقاليمها فى أوروبا الغربية لخطر النورمان . فقد تزعم وليم هوتفيل جماعات النورمان فى عام ١٠٤٢/٤٣٤ فى الهجرة من دوقية نورمان يافى . غرب فرنسا إلى جنوب إيطاليا ووسطها وأيضا إلى صقلية ، ثم قام روبرت جويسكارد بتأسيس دولة النورمان فى إيطاليا وصقلية فى عام ١٠٥٩/٤٥١ . وقد انتزع جويسكارد آخر معاقل البيزنطيين ومنها أوترنتو وبرنديزى فى

عام ١٠٦٢/٤٥٤ ثم بارى العاصمة فى عام ١٠٧١/٤٦٤. ثم اتجه النورمان إلى الشاطئ الشرقى للبحر الأدرياتى واستولوا على ابيروس ومقدونيا، بل إنهم فكروا فى غزو القسطنطينية العاصمة البيزنطية.

كذلك أخذ فريق آخر من النورمان فى إتجاه بيزنطة للإلتحاق بالجيش البيزنطى كجند مرتزقة ولما هزمت بيزنطة بيد السلاجقة فى ملازكرد عام ١٠٧١/٤٦٤ حاول النورمان أن يقيموا لأنفسهم إمارات مستقلة فى آسيا الصغرى.

فقد قام أحد النورمان وهو رسل باليل ببسط سلطانه على إقليم كبادوكيا والجهات المجاورة لها فى ٤٦٦-٤٦٧هـ / ١٠٧٣-١٠٧٤م. ثم أعقبه روبرت جويسكارد الذى قاد جيشه فى عام ١٠٨١/٤٧٤ وحارب الكسيوس كومنين عند أفلونا ثم اتجه إلى نوراوواستولى عليها أوائل عام ١٠٨٢/٤٧٥ ثم سار بجيشه إلى القسطنطينية إلا أن الظروف فى إيطاليا أرغمته على الانسحاب والعودة لمواجهة المشاكل الداخلية بها بعدما ترك قواته فى البلقان وكلف ابنه بوهيموند بقيادة الجيش فى غياب أبيه.

ولما حارب بوهيمون الامبراطور الكسيوس كومنين واستولى منه على عدة مراكز هامة فى ابيروس ومقدونيا وتساليا حتى خشى البيزنطيون على دولتهم من السقوط فى أيدي النورمان اتجه البيزنطيون إلى طلب النجدة من السلاجقة بزعامة سليمان ابن قتلмыш فأمد سليمان بيزنطة بسبعة آلاف مقاتل. وبهذه القوة السلجوقية تحول النصر إلى البيزنطيين فانسحب بوهيموند عائداً إلى بلاده فى عام ١٠٨٣/٤٧٦. ولما عاود بوهيموند مهاجمة

بيزنطة واجهه اسطول البندقية حليف بيزنطة قرب كوفوه، وفي خلال تلك الحرب توفي روبرت في عام ١٠٨٥/٤٧٨ فانسحب النورمان ثانية عاندين إلى إيطاليا.

كما أن النورمان لم يهدأ لهم بال وظلوا يواصلون محاولاتهم لغزو الشرق حتى تمكنوا من تأسيس إمارة لهم في أنطاكية.



الفصل الرابع

الحملات الصليبية

- * الحملة الصليبية الأولى.
- * سقوط الرها.
- * الموقف الإسلامي قبل سقوط أنطاكية
- * تفرق جهود القوى الإسلامية ضد الصليبيين
- * القوى الإسلامية في موقعة العمق.
- * سقوط أنطاكية.
- * سقوط بيت المقدس.
- * سقوط طرابلس
- * الصليبيون والأرمن في الرها.
- * الصليبيون والأرمن في الأراتقة.
- * الخلاف بين الإخوة السلاجقة أضعفهم وأطعم فيهم الصليبيون.
- * وقوع بلدوين الثاني في الأسر.
- * بلدوين يعود لحكم الرها.
- * صراع الأضداد.
- * الخلاف بين بلدوين دي بوج والأرمن.
- * بدء الصحوة الإسلامية في أرض الشام.
- * الصراع الأرمني ضد الصليبيين.
- * إستغاثة الأرمن بالسلاجقة.

لقد بدأت الحروب الصليبية فعلا قبل الحملة الصليبية الأولى فى عام ١٠٩٥/٤٨٨ . فمنذ ظهور الإسلام وانتشار انسلمين وتوسعهم فى مختلف الأنحاء من العالم ، ثم فى حوض البحر المتوسط لم تنقطع الحروب بينهم وبين مسيحي أوروبا وقد اتخذت تلك الحروب الصبغة الدينية وأشهر ميادينها آسيا الصغرى وأسبانيا وشمال أفريقيا وصقلية. وبعض الجزر مثل صقلية وكريت.

ثم بدأ الغرب الأوروبى بإرسال الحملات الكبرى لاسترداد بيت المقدس من المسلمين، وبدأت الحرب الصليبية الكبرى . حدث ذلك بعد موقعة ملازكرد التى ألحقت الهزيمة بالبيزنطيين على يد الأتراك السلاجقة فى عام ٤٦٤هـ / ١٠٧١م والاستغاثة التى خرجت من بيزنطة تستنجد بالغرب الأوروبى ضد المسلمين السلاجقة. ولكن لم تلق بيزنطة استجابة لوجود مشاكل داخلية فى الغرب الاوروبى مما أعاق الاستجابة لانقاذ بيزنطة من السلاجقة المسلمين.

وبعد تولى الكسيوس كومنين عرش بيزنطة ٤٧٤-٥١٢/١٠٨١م اتجه إلى البابوية واتبع سياسة المرونة واللباقة مع البابا أوربان الثانى ٤٨١-٤٩٣/١٠٨٨-١٠٩٩ حتى أن البابا فكر فى إرسال حملة صليبية وعزم على طرد المسلمين من آسيا ويسط نفوذه على الكنيسة الشرقية فى نفس الوقت ثم أخذ البابا أوربان الثانى يعمل على تسوية المشاكل القائمة بين بيزنطة والبابوية. وفى عام ٤٨٣/١٠٩٠ بعث الامبراطور الكسيوس كومنين يؤكد اخلاصه ومحبه للبابا أوربان الثانى.

ثم أرسلت بيزنطة تطلب العون المادى من الغرب الأوربى وسرعان ما استجاب البابا وأعلن دعوته لاستخلاص الأراضي المقدسة من المسلمين. وطالب البابا بالإسراع وأن يكون الجميع على أتم الاستعداد للرحيل إلى الشرق. وهكذا بدأت فكرة الحرب الصليبية لتى قدر لها أن تستمر عدة قرون.

ثم اختار البابا أحد الاساقفة ليكون مندوبا عنه فى مرافقة الحملة الصليبية، وهو بذلك قد بسط سلطان البابوية على الأرض المقدسة فى فلسطين. ثم أعلن البابا أن كل من يتردد أو يتقاعس عن تأدية هذا الواجب المقدس يتعرض للعقوبة والحرمان.

وشرع البابا فى الإعداد للحملة وأعلن فى مختلف المدن ومنها جنوا التى استجابت لنداء البابا فأعدوا اثنتى عشرة سفينة حربية للقتال مع الحملة . وقد شارك فى هذه الحملة فرنسا وإيطاليا وأسبانيا فضلا عن اسكتلندا والدانمرك. تزعم بطرس الناسك وهو قسيس فرنسى حاول تأدية فريضة الحج قبل ذلك لكنه واجه الأتراك السلاجقة الذين أساعوا معاملته، فدعا إلى تخليص الأرض المقدسة. وقد أثار حساس الكثيرين، فأسرع الناس وتركوا منازلهم وحقولهم والتفوا حوله بعد أن استجابوا لدعوته.

سار بطرس وقد اجتمع معه كثير من الناس رجالا ونساء قاصدين القسطنطينية عن طريق البحر غير أن المجريين تعرضوا لهذه الجموع وقتلوا منهم الكثيرين لأنهم سلبوا ونهبوا قراهم. ولما بلغت هذه الجموع القسطنطينية رحب بهم الامبراطور البيزنطى على الرغم من ارتكابهم بعض الأعمال التخريبية فى بعض البلدان البيزنطية.

اصطدمت جموع بطرس الناسك بالأتراك السلاجقة فى أسب
الصغرى غير أن السلاجقة تغلبوا عليهم فى ١٠٩٦/٤٨٩ وقتلوا غالبيتهم.
ففشلت حملة الشعوب فى الوصول إلى أغراضها وكانت نقطة سوداء فى
تاريخ الحركة الصليبية.



فى جمادى الأولى عام ٤٩٠ / مايو ١٠٩٧ تعهد كل من صليبي الغرب
بقيادة بوهيموند وبيزنطة بقيادة الامبراطور الكسيوس كومنين على التعاون
ضد المسلمين بحيث أن أقسم الصليبيون الغربيون على الولاء والتبعية
لبيزنطة مع التعهد برد جميع الممتلكات البيزنطية فى الأراضى المقدسة متى
استولوا عليها. كما أن بيزنطة تعهدت بمساعدة الحملة الصليبية الأولى
عسكريا.

وعند الشاطئ الآسيوى قرب أزمير اجتمعت القوات الصليبية التى
اتفقت على البدء بالهجوم على مدينة نيقية المركز الرئيسى لقلج أرسلان
ومقر حكمه، وقد بدأ الصليبيون بنيقية حتى لا تشكل شوكة فى ظهرهم
وتهدد خطوط مواصلاتهم وهم فى اتجاههم نحو الأراضى المقدسة. وقد
قدمت بيزنطة للصليبيين آلات الحصار والطعام والمؤن.

أما سلاجقة الروم فقد انشغل زعميهم قلج أرسلان بمشاكل فى
كبدوكيا ولم يعط اهتماما للصليبيين الذين اتجهوا نحو بلاده خاصة وأن
السلاجقة قد قضوا على اتباع بطرس الناسك فى سهوله ويسر، كما أن
بيزنطة أوهمت السلاجقة بالخلاف القائم بين الصليبيين خدعة لكى يهمل

أمرهم ولا يعطى لهم أهمية فيسهل تغلبهم على السلاجقة. ولما أدرك السلاجقة خطورة الموقف وحاولوا إدراك ما فاتهم، لم يحققوا لانفسهم شيئاً حيث أن الصليبيين كانوا قد تمكنوا من الوصول إلى نيقية وحصارها فى جمادى الأولى عام ٤٩٠ / مايو ١٠٩٧. وفى أثناء حصار الصليبيين مدينة نيقية عمد أهلها إلى الاتصال براجينطة لدخولها مفضلين البيزنطيين عن غيرهم، وقد استجاب البيزنطيون لأهل نيقية فأسرعوا برفع أعلامهم البيزنطية فى أرض نيقية فى جمادى الآخر عام ٤٩٠ / ١٠٩٧.

وقد فوجئ صليبيو الغرب بما حدث حيث أخفى البيزنطيون إتفاقهم مع أهل نيقية لاستلام المدينة قبل وصول الصليبيين إليها. وقد انزعج الصليبيون لمسلك الامبراطور البيزنطى المفاجئ لهم وحسن معاملته لأسرة قلج أرسلان حيث سمح لها بالخروج بأولادها من المدينة دون فدية. ولم يكن يدرك الصليبيون هذا التسامح بين الأعداء فحقنوا على الامبراطور وكرهوامنه هذا السلوك. وعدوه خيانه لهم.

وعلى الرغم من ذلك اتفق الطرفان على توزيع الأنوار فيما بينهم ضد السلاجقة المسلمين بحيث اتجه الصليبيون إلى محاربة السلاجقة فى فريجيا وضورليوم ونيقية. بينما الامبراطور يتجه إلى الشواطئ الغربية لآسيا الصغرى من أقاليم ميسيا وأيونيا وليديا.

بعد سقوط نيقية ارتفعت الروح المعنوية لدى صليبي الغرب وزاد عدد المشاركين فى الحملة الصليبية الأولى وتوالى الإمدادات. كما تحولت المدن الإيطالية إلى المشاركة فى الحملة الصليبية بعد تردها قبل سقوط نيقية.

وفى جمادى الآخرة عام ٤٩٠هـ / اواخر يونيو ١٠٩٧م اتجه الصليبيون فى اتجاهين الأولى فى الاتجاه الشمالى الشرقى وهم نورمان إيطاليا يقودهم بوهيموند وتنكرد، ونورمان فرنسا بزعامة روبرت والأخرى إلى الجنوب الشرقى يرافقها المندوب البابوى ادهمار ومعه جودفرى بوايون وريموند .

وصل الفريق النورمانى من الصليبيين إلى مرتفعات صورليوم فى الوقت الذى اتحد فيه بنوداتشمند وقلبيج ارسلان وهم سلاجقة بقصد مواجهة الصليبيين، وفى سبيل التخلص من الخطر الصليبي وصده تهت مصالحة بين الطرفين. وعند ذلك أدرك بوهيموند مدى الخطر المحرق به فأسرع يطلب نجدة من إخوانه الصليبيين جودفرى بوايون الذى سرعان ما لبى النداء هو والآخرين من أعوانهم .

وفى رجب ٤٩٠ / يوليو ١٠٩٧ اشتبك الجانبان فانتصر الصليبيون وجمعوا كثيرا من الغنائم . وقد زاد هذا النصر ضد السلاجقة من عزيمة الصليبيين على مواصلة القتال ضد السلاجقة المسلمين ثم لم يلبثوا أن واصلوا السير فى الاتجاه الجنوبى الشرقى إلى فريجيا. وعلى الرغم من الصعوبات التى واجهت الحملة من قلة الماء والمؤنة ودرجة الحرارة العالية التى لم يعتادوا عليها كما لم تتحمل خيولهم وبوابهم هذه الصعوبات فهلك أكثرها فتعذر عليهم حمل امتعتهم ولكنهم واصلوا سيرهم إلى أن وصلوا إلى سهول قونية فى شعبان عام ٤٩٠ / أغسطس ١٠٩٧ حيث الكلا والشجر.

وأما السلاجقة الأتراك فقد أثروا إنسحابهم تاركين مدنهم يدخلها الصليبيون. ودخل قونية ولم يترك بها السلاجقة ما ينفع الحملة الصليبية فقام الأرمن الذين يتبعوا السلاجقة فى انسحابهم ويقوا فى المدينة قد أفاقوا الصليبيين حيث قدموا لهم النصيحة بعمل الماء قبل مواصلة الرحيل حيث تواجههم الصحراء وليس بها ماء. وفى هرقله اشتبك السلاجقة مع الصليبيين ولكن تغلب الصليبيون عليهم حيث استولوا على هرقله التى استقروا بها بضعة أيام وفى رمضان ٤٩٠ / سبتمبر ١٠٩٧ تفرقوا إلى فئتين فئة بلدوين وتنكرد الذين اتجهوا إلى قيليقية جنوب شرقى آسيا الصغرى، واتجهت الفئة الأخرى ويقودها المندوب البابوى بوهيمند وريموند إلى الشمال الشرقى ناحية قيصرية فاستولوا عليها فى رمضان ٤٩٠ / سبتمبر ١٠٩٧. ثم واصلوا سيرهم من قيصرية إلى الجنوب الشرقى فاستولوا فى شوال / أكتوبر من نفس العام على بلاكنتيا القلعة الأرمينية فى جبال طوروس وهى ذات موقع هام. ثم قام الصليبيون بتسليم القلعة للقائد البيزنطى المرافق للحملة وفقا لما تم الاتفاق عليه مع الامبراطور البيزنطى.

ثم واصل الصليبيون سيرهم يعبرون القرى والضياع الأرمينية ويرحب بهم الأهالى وبعد أن عبروا مجموعة من سلاسل جبال طوروس حتى وصلوا إلى مرعش فى شوال ٤٩٠ / أكتوبر ١٠٩٧ وفيها رحب بهم الأهالى ثم سلموا المدينة إلى القائد البيزنطى ثم من مرعش اتجهوا إلى الشام. وفى شوال ٤٩٠ / أكتوبر ١٠٩٧ وصلوا إلى جسر الحديد على نهر العاصى فى شرقى انطاكية فى أرض الشام.



أخذ الأرمن يقدمون المساعدات لبلدوين الذي أحرز تقدما كبيرا بمعاونة الأرمن له حيث رأوا في قدوم الصليبيين فرصة للخلاص من حكم الأتراك المسلمين وقد عمد ثوروس حاكم الرها إلى دعوة بلدوين للقدوم إلى الرها لمعاونته في ربيع الأول ٤٩١ / فبراير ١٠٩٨ واستجاب بلدوين لنداء ثوروس فأسرع بالتوجه إلى الرها ورحب به أهلها كثيرا وساعد على صفاء العلاقة بينهما قرب الكنيستين الأرمنية والغربية منها إلى بيزنطية. ثم وجه ثوروس الأرمنى نظر بلدوين إلى مهاجمة سميساط التركية وفعلا هاجم بلدوين سميساط في ربيع الأول ٤٩١ / النصف الثانى من فبراير ١٠٩٨ وساعد الجيش الأرمنى في خطته حيث بدأوا فى مهاجمة الضياع المكشوفة واستولوا عليها إلا أنهم فوجئوا بقوة من الأتراك تنقض عليهم و قتل منهم ما يقرب من ألف من الأرمن. وقد ترك فشل الأرمن فى الهجوم على سميساط أن يغير بلدوين من موقفه تجاه الأرمن ويحول الرها إلى إمارة لاتينية، بينما كان ثوروس عندما استعان ببلدوين كان يهدف إلى أن يكونوا قوة تخدم كمرتزقة ولكن لم يقبل بلدوين هذه الفكرة وعرض على ثوروس أن يجعله كإبن له ووليا للعهد ولم يعارض ثوروس هذه الفكرة حيث لم يكن له وريث. وتمت الموافقة بين الطرفين بموافقة الكنيسة الأرمنية.

وهكذا صارت الرها فى انتظار تحولها إلى إمارة لاتينية بمجرد إعتلاء بلدوين العرش كوريث بعد وفاة ثوروس الأرمنى. وقد بلغ الغضب بالأرمن من ثوروس أنهم قتلوه فى ثورة عارمة، فانتقلت السلطة إلى بلدوين فى الرها فى ربيع الآخر عام ٤٩١ / مارس ١٠٩٨ وقد ساعدت هذه الإمارة الصليبيين فى حماية ممتلكاتهم بالشام من أى هجوم قادم من الشرق.

وفي هذه المرة لم يف بلدوين بوعده في تسليم ممتلكات بيزنطة
للامبراطور كسابق عهده وإنما اعتبر أن ثورة الأهالي من الأرمن هي التي
منحته إمارة الرها . ولذا فليس للامبراطور حق في مطالبته بإعادتها له.
وصارت منذ ذلك التاريخ الرها ذات صبغة لاتينية أرمينية ولم يستطع
الامبراطور البيزنطي الكسيوس معارضة بلدوين حيث لم يكن من القوة إلى
هذا الحد.

ثم تقدم سميساط التركي بعدما شعر بصعوبة الدفاع عنها إلى
بلدوين يعرض عليه أن يشتري منه سميساط مقابل عشرة آلاف دينار وقد
رحب بلدوين بالفكرة وكان في خزانة أمير الرها السابق مبالغ هائلة فقدم
العشرة آلاف دينار مقابل شراء سميساط من الأمير التركي ووفر على نفسه
ضرورة الحرب.

استولى بلدوين على سميساط وكان بها عددا كبيرا من الأسرى
والرهائن الأرمن وغالبيتهم من أبناء الأرمن في الرها فأعادهم بلدوين إلى
أهلهم وبذلك حظى بشعبية كبيرة بين الأهالي . ثم بدأ الأرمن يدفعون ببلدوين
إلى توسيع ممتلكاته فيستولى على مركز آخر في الجنوب الشرقي وهو
حصن سروج في أول الطريق بين الموصل وحلب وكان حاكم الحصن هو نور
الدولة بك بن بهرام بن أرتق، رأى بك الاتصال ببلدوين يستعين به على
مواجهة معارضة من رعاياه من العرب. فما كان من أهل الحصن إلا أنهم
هم أيضا يعلنون رغبتهم في الدخول في طاعة بلدوين، فقام بلدوين بعزل بك
وضم مدينة سروج إليه ثم قام بلدوين بعد ذلك بالاستيلاء على قلعة البيرة
وتقع على نهر الفرات وهي ذات موقع هام على الطريق بين الرها وعينتاب.

جهد بلدوين فى توثيق الصلة بين الأرمن والصليبيين وبدأ بنفسه بزواجه من الأميرة أردا ابنة أحد زعماء الأرمن، ثم أحضر عددا كبيرا من الصليبيين لكنهم إتخذوا لأنفسهم وضعا متعاليا جعل الأرمن يشعرون بشئ من الأسى والأسف خاصة وأن الضرائب لم تخفف عنهم وإنما بقيت كما كانت من قبل ثم أخذ الصليبيون من اللاتين يستولون على الضياع الزراعية فى خارج أسوار المدينة ثم عاملوا الفلاحين من الأرمن بما يشبه معاملتهم لفلاحيتهم فى أوربا الغربية فلجأ الأرمن بالعدل ضد الصليبيين ولكنهم لم ينجحوا وأنزل بلدوين بهم العقاب الأليم فى نهاية صفر عام ٤٩٢هـ/ ديسمبر ١٠٩٨.



استولى بلدوين على إمارة الرها بينما أخذ بقية الجيش الصليبي الكبير يتجه إلى شمال الشام قاصدا أنطاكية العاصمة البيزنطية القديمة لذلك الإقليم، وفى شوال عام ٤٩١/ أكتوبر ١٠٩٧ غادر الصليبيون مرعش ثم استولوا على حصن بغراس وقلعة إرتاح أثناء زحفهم . وفى أواخر شوال ٤٩١/ أكتوبر ١٠٩٧ وصلت طلائع الجيش الصليبي إلى أنطاكية يقوده بوهيموند.

وقد سهل مهمة الصليبيين فى الإستيلاء على أنطاكية، الدور الذى قام به ياغى سليمان أمير أنطاكية فى أشغال لخلاف بين الأخوين رضوان صاحب حلب ودقاق صاحب دمشق. فلما هاجم الصليبيون أنطاكية لم يجد ياغى سليمان من يقف معه لصد الهجوم الصليبي على أنطاكية فضلا عن إثارته مشاعر المسيحيين الشرقيين ضده بسبب سوء تصرفه معهم مما

دفعهم إلى الترحيب بالصلبيين وتسهيل مهمتهم لغزو البلاد.

أمتد حصار بوهيموند لأنطاكية نحو سبعة أشهر حتى وصل إلى ميناء السويدية عند مصب نهر العاصي اسطول يحمل إمدادات صليبية من جنوا وكان وصوله إلى السويدية في محرم ٤٩٢هـ / نوفمبر ١٠٩٨م.

وقد حاول ياغى سليمان طلب النجدة من القوى الإسلامية حوله ومن الخلافة العباسية في بغداد . ثم أعد نفسه لحصار طويل. ثم فاجأ ياغى الصليبيين المحاصرين لأنطاكية بالهجوم عليهم وأوشك أن يحقق نجاحا في فك حصارهم عن المدينة إلا أن ريموند إستطاع أن يتغلب على هذه المفاجأة وأرغم ياغى على الانسحاب إلى داخل المدينة.

ثم بعث دقاق من دمشق بنجدة إلى انطاكية يقودها دقاق بنفسه وبرفقته أمير حمص العربي جناح بن هلاعب، ثم دارت معركة عند البارة على نهر العاصي، وقد تمكن المسلمون من قتل جماعة من الصليبيين في هذه المعركة. وقد ظل الموقف بين الصليبيين والمسلمين حتى أوشك الضعف أن يتمكن من الصليبيين وأخذ بعضهم يفر من المعركة.



لم يدرك الوزير الفاطمي الأفضل شاهنشاه بن بدر الجمالي مدة حكم الخليفة الفاطمي المستعلي (٤٨٧-٤٩٥هـ / ١٠٩٤-١١٠١م) وحتى عهد الخليفة الفاطمي الأمر عام ٥١٥/١١٢١م. لم يدرك الوزير الأفضل حقيقة نوايا الصليبيين في غزو بلاد الشام وجعلها صليبية حيث أنه عقد معهم حلفا

فى سبيل حصول الفاطميين على بيت المقدس ويحصل الصليبيون على أنطاكية، فكأن الأفضل حالف الصليبين ضد القوى المتحالفة الإسلامية من عرب وأتراك وسلاجقة. وقد استفاد الصليبيون من الخطة الفاطمية التى مكنتهم من الحصول على وضع سياسى معترف به فى أنطاكية فأعطاهم قوة تمكنهم من العمل على استرداد الأراضى التى كانت تابعة للبيزنطيين قبل ذلك والواقع أن الصليبيين استطاعوا مواجهة القوى الإسلامية متفرقة وغزو إمارة بعد إمارة من البلدان الإسلامية فى أرض الشام.



اتجهت القوى الإسلامية لانقاذ أنطاكية من الحصار الصليبي فاجتمعت قوات ديار بكر وحماه وحمص ومن الأرائقة فى إقليم الجزيرة واجتمعوا فى حارم القلعة التى تبعد ثلاثين كيلومترا من أنطاكية إلى الشرق منها وتم الاتفاق على هجوم تلك القوات على أنطاكية وفى نفس الوقت تخرج قوات ياغى من الداخل لعمل كماشة فى مواجهة القوات الصليبية المحاصرة للمدينة ودحرها.

ولكن لم يكتب لتلك الخطة النجاح بعد ن علم بها مسيحيو أنطاكية من السريان والأرمن فبعثوا سرا إلى الصليبيين يخبرونهم بها فى صفر ٤٩١ / فبراير ١٠٩٨ فأسرع بوهيموند لمواجهة هذه الخطة الإسلامية الموحدة وخرج على رأس قوة مكونة من سبعمائة فارس تاركا المشاة من الصليبيين يحاصرون المدينة. ونزل بوهيموند فى موقع بين بحيرة العمق من ناحية ومجرى العاصى من ناحية ثانية ثم اشتبك ثم اشتبك بوهيموند مع

المسلمين فهزمهم فانسحبوا إلى حصن حارم. ثم تمكن الصليبيون من الاستيلاء على حصن حارم بمساعدة من السريان والأرمن الذين فى الحصن. وهكذا ضعف الدفاع عن أنطاكية من ناحية حلب. ولما حاول ياغى مهاجمة المساء من الصليبيين المحاصرين لانطاكية لم يتمكن منهم حيث تقلب الصليبيون بعد عودة بوهيموند بفرسانه منتصرا فى حارم.



أدرك ياغى حاكم انطاكية ضعف موقفه فبعث إلى بركيارق سلطان سلاجقة فارس وكربوغا أتابك الموصل، فأسرع الصليبيون ببناء قلعة فوق تل قريب من أنطاكية أحكم الحصار على أنطاكية حتى صار من الصعب الخروج أو الدخول إلى القلعة حيث أحكم الحصار وعندما خرج كربوغا لملاقاة الصليبيين فى أنطاكية تلبية لدعوتهم للمساعدة، عرج كربوغا على الرها وظل يحاصرها ثلاثة شهور ولكن تعذر عليه فتحها ولم يتمكن بعد ذلك من مهاجمة صليبي انطاكية حيث استفادوا من مدة غيابه فى محاولته حصار الرها. ولو أنه أسرع إلى أنطاكية أولا لأمكنه لتغلب على الصليبيين قبل أن يحكموا الحصار حول انطاكية.

كما أن الموقف تحول لصالح الصليبيين بعد أن اتصل نيروز ببوهيموند ليخبره بوسيلة لمهاجمة المدينة من أحد أبراجها مقابل وعود من بوهيموند إلى نيروز لمنحه مالا وإقطاعا كان قد صودر منه بمعرفة ياغى سليمان.

تقدم بوهيموند إلى الأمراء الصليبيين يأخذ الوعود بأخذه أنطاكية

لنفسه متى تم له تخليصهم من الخطر المحدق بهم. حيث لم يخبرهم بما تم بينه وبين الخائن نيروز الرزاد.

أسرع الصليبيون أتباع بوهيموند بعد أن فتح لهم أبوابها أهلها من السريان والأرمن وقد ذاع خبر سقوط أنطاكية في العالم الاسلامي والمسيحي لما كان لها من أهمية وشهرة تاريخية منذ عهد الامبراطورية الرومانية . ثم أطلق الصليبيون على بوهيموند لقب (أمير أنطاكية)



وفي شعبان عام ٤٩١ / يوليو ١٠٩٨م عقد الصليبيون مجلسا، لتحديد يوم الزحف على بيت المقدس فاختاروا شهر محرم ٤٩٢ / نوفمبر ١٠٩٨ لهذا الغزو. وفي شعبان ٤٩١ / يوليو ١٠٩٨ هاجم الصليبيون معرة النعمان فأسرع صاحب حلب بإرسال قوة من عسكر حلب فانهزم الصليبيون وارتدوا إلى تل منى. وفي نهاية شوال ٤٩١ / سبتمبر ١٠٨٩ هاجم ريموند الصنجيلي البارة التابعة لحلب في شرقي نهر العاصي بين جسر الشغور ومعرة النعمان واستولى عليها في نهاية شوال / سبتمبر من نفس العام.

وفي بداية صفر عام ٤٩٢ / ديسمبر ١٠٩٨ سقطت معرة النعمان في أيدي الصليبيين بقيادة بوهيموند وريموند وأحرقوا المعرة ولم يبروا بعهدهم بالأمان للمسلمين فيها. وفي بداية ربيع الاول ٤٩٢ / يناير ١٠٩٩ خرج ريموند من معرة النعمان على رأس الجيش الصليبي للزحف على بيت المقدس وتبعه الصليبيون. وأما بوهيموند ففضل البقاء في أنطاكية ليحقق أطماعه في إمتلاكها. وسار ريموند يقود الحملة الصليبية إلى بيت المقدس.

وفى رجب عام ٤٩٢/ يونيو ١٠٩٩ بدأ الصليبيون فى حصار بيت المقدس ثم شرعوا فى مهاجمة المدينة يستخدمين آلات الحصار والهدم وخلال هذا الحصار وصلت إلى يافا بعض السفن الجنوية واستولت على المدينة فصار الطريق مؤمنا للصليبيين فى بيت المقدس وسهل عليهم الحصول على الإمدادات التى تصلهم بحرا ثم أقام الصليبيون برجين أحدهما بباب صهيون والآخر بباب العمود. وقد تمكن الصليبيون من الزحف بالبرج الثانى والصقوه بالسور ورموا بالمجانيق والسهام بقوة فانهزم المسلمون ودخل من باب العمود وقام تنكرد باحتلال قبة الصخرة بما فيها من تحف ثمينة ثم قام الصليبيون بالانتقام من المسلمين بمنتهى القسوة ولم يسلم اليهود من عقاب الصليبيين إذ جمعوهم فى الكنيسة وأشعلوا النار فيهم.

وفى شعبان ٤٩٢/ يوليو ١٠٩٩ أجمع الزعماء الصليبيون على قيام جودفرى بوايون بحكم بيت المقدس وأعلن جودفرى موافقته بقبول لقب (حامى بيت المقدس). وهكذا جعل جودفرى نبيت المقدس الصفة الدينية ليجعل من الكنيسة نوعا من الإشراف عليها.

وفى رمضان ٤٩٢/ اغسطس ١٠٩٩ تولى أرنولف ما لكورن وظيفة بطريرك بيت المقدس بإجماع من رجال الدين المسيحي. وقد قصر أرنولف نشاطه على المسائل الكنسية واضفى عليها الصبغة اللاتينية الكاثوليكية واستبعد القساوسة الأرثوذكس من تلك الكنيسة.



فى عام ٤٩٣ / ١٠٩٩ استولى ريموند على انطربوس (طرسوس) وقد كانت تابعة لبنى عمار وقت مجئ الحملة الصليبية الأولى ، ثم عاد بنو عمار واستردوها فى غياب ريموند فى أسيا الصغرى، ولكن فى صفر عام ٤٩٥ / فبراير ١١٠٢ استطاع ريموند أن يستردها ثانية بمساعدة جماعة من بقايا الصليبيين فى حملة الصليبية فاشلة فى شمال شرقى اسيا حيث هزمهم الأتراك السلاجقة وقتلوا منهم مائة وخمسين ألفا أو يزيد - ثم جعل ريموند من طرسوس قاعدة لأعماله ومشروعاً فى محاولة لغزو مدينة طرابلس.

عند ذلك أسرع فخر الملك أبو على بن عمار إلى القوى الإسلامية المجاورة يطلب النجدة لمحاربة الصليبيين فبعث إلى دمشق وحمص الذين أسرعوا بإرسال النجدة إليه. وتقاتل المسلمون والصليبيون ولكن لم يكتب النجاح للمسلمين وظلت طرابلس تحت الحصار بقيادة ريموند حتى عرض حاكم طرابلس جزية من المال والخيل فقبل ريموند وفك الحصار عن طرابلس وعاد إلى طرسوس بعد نحو شهر من الحصار

ثم لجأ ريموند إلى بناء قلعة - أطلق عليها المسلمون قلعة صنجيل نسبة إلى ريموند صنجيل - لإحكام الرقابة على طرابلس بناها على الجبال المقابلة للمدينة. ولما حاول ابن عمار هدم القلعة تعذر عليه ذلك إلا أن بعض القلعة المشتعلة أصاب ريموند بجروح مات بسببها فى عام ٤٩٩هـ / ١١٠٥م. وهكذا لم يتمكن ريموند من الاستيلاء على طرابلس إلا أنه سهل لخلفائه مهمة الاستيلاء عليها.

اختار الصليبيون بعد موت ريموند ابن خالته وليم جوردان الذي تابع سياسة ريموند وظل يحاصر طرابلس برا، وعندما حاول البيزنطيون مساعدة الصليبيين بوساطة السفن البيزنطية استطاع ابن عمار أن يأسر سفينة بيزنطية ويستولى عليها في ميناء طرابلس وعندما رحل ابن عمار عن طرابلس يبحث عن نجدة من إحدى القوى الإسلامية فلم يجد إلى ذلك سبيلا وعلم بعد ذلك وهو في طريق العودة إلى طرابلس أن الفاطميين قد استولوا عليها فلجأ إلى قلعة جبله وتقع على الساحل بين اللانقية والمرقب . أما الفاطميون فلم تكن لديهم القوة اللازمة لحماية طرابلس من أطماع الصليبيين.

ثم تمكن وليم جوردان من الاستيلاء على حصن عرقه في شعبان ٥٠١هـ / ابريل ١١٠٨م. بعد حصار دام ثلاثة أسابيع. وظل وليم جوردان أكثر من ثلاث سنوات في حصار طرابلس ثم بعد ذلك ظهر برترام بن ريموند الصنجيلي ووريث أبيه قادما من الغرب الأوربي مارا ببيزنطة حليفة أبيه. ولكنه وجد في الشام معارضة شديدة اضطرت خلالها إلى طلب النجدة من بلدوين ملك بيت المقدس يلتمس منه الحضور لمساعدته ضد جوردان.

ولما وجد أهل طرابلس صعوبة الدفاع عن المدينة لجأوا إلى مخاطبة بلدوين الأول والأمير برترام للتسليم بشروط قبلها الملك بلدوين. وفي محرم عام ٥٠٢هـ / يوليو ١١٠٩م استولى الصليبيون بقيادة بلدوين على طرابلس ونفذوا الشروط التي قطعوها على أنفسهم للمسلمين وغادر القائد الفاطمي ورجاله المدينة منحسبا. ولكن الجنويين لم يتقيدوا بالشروط التي قبلها بلدوين وأنوا أهل المدينة بعد دخولهم فيها.

وهكذا استطاع الصليبيون فى حملتهم الأولى تأسيس أربع إمارات لاتينية فى الشرق هى إمارة الرها وإمارة أنطاكية ومملكة بيت المقدس وإمارة طرابلس. وقد نجح الصليبيون فى ذلك الوقت فى تحقيق أهدافهم بسبب ضعف العالم الإسلامى وانقسامه على نفسه مما سهل على الصليبيين اللاتين الغزاه مهمتهم.



استطاع بلدوين تأسيس أول إمارة صليبية فى الرها وجعل منها الدرع الواقى للصليبيين بالشام من أخطار هجمات المسلمين من سلاجقة فارس والعراق، واستطاع بلدوين العمل على نهو هذه الإمارة على امتداد ضفتى الفرات، إلا أن الرها لم يكن لها حدود طبيعية تحميها ولم يكن أهلها غير مجموعات من مسيحي الشرق من السريان والأرمن والصليبيين الغربيين، وأيضاً المسلمين الذين عاشوا فى مدن فى إمارة الرها مثل قلعة سروج. وقد قام الحكام الصليبيون فى الإمارة بتحسين المدن والقلاع التى أقاموا فيها. كما قاموا بجمع الضرائب من المناطق المحيطة بالإمارة.

وقد لجأ الأمير بلدوين إلى الاهتمام بالأرمن حيث أنهم شكلوا ثلاثة أرباع سكان الإمارة. وفى عام ٤٩٤ / ١١٠٠ قام بلدوين الأول بتولى حكم بيت المقدس بعد وفاة أخيه جودفرى. وعين ابن عمه بلدوين دى بوج فى حكم إمارة الرها نيابة عنه باسم بلدوين الثانى فقام بلدوين الثانى على الدرب الذى سار عليه سلفه فى حكم الرها.

عمد بلدوين الثانى إلى توثيق الصلات بين الأرمن والصليبيين

الغربيين. كما أنه جمع منهم الأموال اللازمة للدفاع ضد السلاجقة الاتراك . وأحسن معاملة الكنيسة الأرمنية وأحسن معاملة اليعاقبة الأمر الذي أدى إلى تقوية الروابط بين المسيحيين الشرقيين والصليبيين اللاتين القادمين من الغرب الأوربي . كما لجأ إلى الزواج من أرمنية وأبوها جبريل حاكم ملطية وإسمها (مورفيا) وكان جبريل هذا يتبع أمير الرها الذي ساعده بلدوين الأول في حربه ضد بني دانشمند في عام ٩٤هـ / ١١٠٠م.

ثم ظهر جوسلين دي كورتناي ابن عمه بلدوين الثاني الذي قدم إلى الرها وقابل كورتناي الأمير بلدوين الثاني فرحب بلدوين بابن عمته ومنحه جميع أراضي الرها غربي الفرات وحصن تل باشر ودلوك التي تقع بين مرعش وحلب والرها وعينتاب جنوب شرقي -لوك. وقد اتخذ كورتناي من حصن تل باشر قاعدة له. وبهذا فقد صار كورتناي يحكم تلك المنطقة الهامة بين سلاجقة حلب وسلاجقة فارس.



اتجه بلدوين الثاني دي بوردج إلى التوسع في الموصل وديار بكر وبدأ بالأراتقة في ديار بكر واستولى من بك بن أرتق على مدينة سروج وتبعد أربعين كيلو جنوب غربي الرها وضمها إلى ممتلكاته ثم ملكها للفارس الصليبي فوشيه دي شارتز.

ولما حاول سقمان بن أرتق صاحب حصن كيفا مهاجمة سروج اعترضه بلدوين الثاني ومعه فوشيه دي شارتز واشتبك الطرفان في معركة سقط فيها فوشيه قتيلا في ذي القعدة ٤٩٤هـ / يناير ١١٠١م، واستولى

الاراتقة على سروج دون قلعتها التى بقيت فى يد الصليبيين وانسحب بلدوين الثانى واتجه إلى الرها. ثم تقدم بطلب المعونة من تنكرد فى أنطاكية، فرحب به تنكرد وأمدّه بالمعونة التى ساعدته على معارضة القتال مع الأراتقة واقتحم سروج وأنزل العقاب بأهلها وعاد إلى الرها بكثير من الأسرى فى ذى الحجة ٤٩٤هـ/ فبراير ١١٠١ م .

وفى ذى الحجة عام ٤٩٦هـ/ سبتمبر ١١٠٣ سار بلدوين الثانى إلى ماردين وحارب الأراتقة فأسر منهم وحصل على كثير من الغنائم ثم عاود الهجوم فى محرم ٤٩٧هـ/ اكتوبر ١١٠٣ م على بعض المدن والقلاع المجاورة فى إقليم الجزيرة فى جعبر والرقّة على الفرات وحارب بنى عقيل وأسروا منهم واستولوا على مواشيهم.



وعلى الرغم من ضعف موقف الصليبيين بعد وقوع الأمير بوهيموند أمير أنطاكية فى أسر بنى دانشمند فى حملة الصليبيين اللومبارديين فى عام ٤٩٤-٤٩٥هـ/ ١١٠٠-١١٠١م فى الأناضول، إلا أن المسلمين من أتابكية الموصل لم يتمكنوا من استغلال هذه الفرصة التى سنحت لهم للإنقضاض على الرها والإستيلاء عليها من الصليبيين لأنهم كانوا فى شغل بالخلافات فيما بينهم بسبب الأطماع الشخصية التى أضعفت من قوة السلطان بركيارق على أتابكية حلب ودمشق وسلاجقة الروم إزاء تفرق هؤلاء الأتابكة ونزاعاتهم المستمرة.

وقد كان لخلاف الأخوين بركيارق ومحمد بعد وفاة أبيهما ملكشاه تلك

النتائج السيئة التي أضعفت باتفاق في كفاحهم ضد الصليبيين إلى أن انتهى ذلك الخلاف باتفاق الأخوين في عام ٤٩٧ / ١١٠٤ بحصول بركيارق على حكم فارس وبغداد وحصول محمد على حكم الأقاليم الغربية للدولة السلجوقية وهي ديار بكر والجزيرة والموصل والشام. ومع ذلك فلم يغن هذا الاتفاق عن احتفاظ الاتابكة من الحكام المحليين بالتنفيذ الفعلي . الأمر الذي تنبه له الصليبيون فعملوا على الإستفادة منه إلى حد كبير في سبيل الحاق الهزيمة بالمسلمين.



وفي عام ٤٩٧ / ١١٠٤ أراد بلدوين الثاني محاصرة حران في الجنوب الشرقي من الرها للإستيلاء عليها بعدما علم بالمؤامرات التي تدبر داخلها بسبب الأطماع في حكمها، واصطحب بلدوين الثاني معه كلا من جوسلين كورتناه حاكم تل باشر، وبوهيموند أمير أنطاكية وابن أخته تنكرد وجماعة من الأمراء الصليبيين ورجال الدين. وظل بلدوين ومن معه في حصار المدينة حتى تعلن إستسلامها للصليبيين - وبينما الأمر على هذا الحال إذا بخلاف قام بين بلدوين الثاني وبوهيموند أمير أنطاكية فيمن يحق له رفع علمه منهما أولا بعد دخول المدينة وعقب سقوطها.

وقد حدث هذا بينهما في المساء فلما أصبح الصليبيون وهم لا يزالون في حصارهم إذا بجيش كبير من المسلمين الأتراك يقوده جكرمش أتابك الموصل وسقمان صاحب كيفا مقبلون على المدينة لإنقاذها لقد بلغ تعداد هذا الجيش الإسلامي نحو عشرة آلاف مقاتل من الأتراك والعرب والأكراد.

وفى رمضان ٤٩٧هـ / ٧ مايو ١١٠٤م دارت معركة فى موقعة حران على ضفاف نهر البليج بين الصليبيين والمسلمين حقق فيها المسلمون انتصارا عظيما حتى بلغ عدد القتلى من الصليبيين عشرة آلاف. وتم أسر كلا من بلدوين الثانى وجوسلين دى كورتناى . واتفق السلاجقة على توزيع الأسيرين بحيث يكون بلدوين الثانى مع السلاجقة والأسير الآخر مع التركمان. وهكذا ضعف موقف كلا من الرها وأنطاكية وبقي الاتصال قائما بين المسلمين فى كل من الأناضول والعراق والشام، ولم يكتب للصليبيين النجاح فى فصل القوى الإسلامية بعضها عن بعض.

كذلك أظهر الأرمن سخطهم على الصليبيين بعد هزيمتهم أمام المسلمين فى حران، وبسبب سوء معاملة الفرنج للأرمن عمل الأرمن على الاتصال سرا بالأتراك لمعاونتهم فى التغلب على الصليبيين. ولو لم يختلف الزعماء من المسلمين مع بعضهم البعض لما تحقق للصليبيين البقاء فى تلك البقاع من أرض الشام.

وفى رمضان عام ٤٩٧ / يونيو ١١٠٤ اتجه جكرمش لحصار الرها وكان بوهيموند وتنكرد قد رفعوا الروح المعنوية فى الأهالى بعد عودتهما سالمين إلى الرها. وقد استعدت المدينة للهجوم القادم عليها من المسلمين، وفى هذا الوقت انضم الأرمن فى الرها إلى بوهيموند ودعوا تنكرد لتولى شؤون المدينة حتى يعود إليهم أميرهم بلدوين الثانى من الأسر.

ثم خرج بوهيموند متجها إلى أنطاكية قبل وصول جكرمش إليها، إلا أن تنكرد وقف يدفع الأهالى إلى الثبات والمقاومة وفى الوقت بعث إلى خاله

بوهيموند فأسرع الأخير بالتوجه لإنقاذ الرها. إلا أن السلاجقة قرروا العودة بعد حصار دام نحو اسبوعين.



وفى عام ٥٠١هـ / ١١٠٧م أفرج السلاجقة الأتراك عن جوسلين دى كورتناى حاكم تل باشر والذي سبق أسره فى موقعة حران، أخرجوا عنه مقابل فدية قدرها عشرين ألف دينار . ثم أسرع جوسلين بعد الإفراج عنه إلى دفع فدية إلى جاولى الذى عزل من الموصل بسبب خلافات مع السلطان محمد السلجوقى فاتجه إلى قلعة جعبر ومعه أسير بلدوين الثانى وقد اضطرته ظروفه بعد خلافه مع السلطان إلى مفاوضة الصليبيين لإطلاق سراح بلدوين الثانى بشروط منها دفع فدية قدرها سبعة آلاف دينار والإفراج عن جميع الأسرى المسلمين فى الرها، وعقد صداقة وتحالف بين جاولى والصليبيين ضد أعدائهم.

وفى عام ٥٠٢هـ / ١١٠٨م أفرج جاولى عن بلدوين الثانى مع تقديم مظاهر الحفاوة والتكريم حيث تحولت العلاقة بين بلدوين وجوسلين من ناحية وجاولى من الناحية الأخرى إلى قوى متحالفة ضد الأعداء. وفى عام ١١٠٨/٥٠٢ حصل بلدوين الثانى على حريته بعد أن تم فك أسره وعندئذ اتجه إلى أنطاكية ليسترد إمارته من تنكرد إلا أن تنكرد تنكر لبلدوين ورفض تسليمه إمارة الرها لأنه جاهد فى سبيل المحافظة عليها وانفق عليها وظل يحكمها مدة أربع سنوات ، ولكنه قدم إلى بلدوين الثانى فى نفس الوقت من المال والخيول والسلاح ليعوضه عن فقد الإمارة، ثم كلف نائبه

ريتشارد دى سالرنو فى إمارة الرها عدم تسليم الإمارة إلى بلدوين وعند ذلك اتجه بلدوين إلى تل باشر واجتمع مع جوسلين حاكمها وبدأ فى الإعداد الحربى لمواجهة تنكرد واسترداد الإمارة منه بالقوة المسلحة. وفى سبيل تحقيق هذا الهدف اتصل بجاولى ليعاونه فى إستعادة إمارة الرها من تنكرد الذى تنكر له فى رد إمارته إليه. وبعث إليه بمائه وستين من الأسرى المسلمين عنده ليكونوا عدة الحرب القادمة فى مواجهة تنكرد .

ثم انضم حليف آخر مع بلدوين هو كونج باسيل الزعيم الأرمنى حاكم كيسوم وتقع فى الجزء الشرقى للفرات من مرتفعات طوروس وتقدم كونج باسيل الأرمنى إلى بلدوين يعرض عليه خدماته باعتبار أن بين بلدوين والأرمن صلة نسب حيث أن بلدوين متزوج من أميرة أرمينية ويميل إلى الأرمن بعكس تنكرد الذى تتجه سياسته إلى مناهضة الأرمن ومهالاة اللاتين. والإساعة إلى الأرمن من جانب ابن عمه ريتشارد دى سالرنو فى حكم الرها مدة تبعيتها المؤقتة لتتكرد وفى غياب بلدوين حين وقوعه فى الأسر ثم مفاوضاته بون التوصل إلى نتيجة ثم تدخل فى النزاع بين الطرفين بطريك أنطاكية الذى تمكن من فض النزاع بينهما عندما أصدر حكمه بأن تعود إلى بلدوين الرها ويعودة تنكرد إلى أنطاكية . وقد تم ذلك فى صفر عام ٥٠٢هـ / سبتمبر ١١٠٨م.

وعندما عادت إلى بلدوين إمارته أطلق سراح جميع من عنده من الأسرى المسلمين مجاملة منه إلى جاولى الحليف الذى وقف معه فى محنته ضد تنكرد.



بعد أن انتهى الصراع بين تنكرد حاكم أنطاكية وبلدوين حاكم الرها بعد تدخل بطريرك أنطاكية.

عاد الخلاف بينهما إلى الظهور من جديد بعد ظهور من الإتراك من يشجع كل فريق على الآخر فاشتعل الموقف بينهما بحيث انضم إلى بلدوين جاولى صديقه القديم وانضم رضوان حاكم حلب إلى تنكرد واشتبك الفريقان في معركة قرب منبج غربى الفرات على الطريق بين حلب والرها وفيها تحقق النصر لتنكرد بينما انسحب كلا من جوسلين عائدا إلى تل باشرو وبلدوين إلى دلوک فى ربيع الأول ٥٠٢هـ / اكتوبر ١١٠٨ ثم رجع تنكرد عائدا إلى انطاكية بعد أن انتهت المعركة بسقوط ألفين من الصليبيين قتلى فى ميدان القتال.



بعد أن علم الأرمن بهزيمة بلدوين وجوسلين أمام تنكرد تو جسوا خيفة أن يعود إليهم حكم تنكرد وريتشارد دى سالرنو نو السمعة السيئة بين الأرمن لسوء معاملته لهم، فعقد الأرمن إجتماعا دعوا إليه رئيس الأساقفة الكاثوليكي وتناولوا عليه مما ترتب عليه توتر الموقف بين الأرمن والصليبيين فى الرها. فعظم ذلك عنده فتغيرت معاملته مع الأرمن وأوقع بهم أشد الأذى من اضطهاد وسلب للممتلكات وطرد من المدينة ثم تحول بعد ذلك إلى أن صار يعتمد على الصليبيين اللاتين القادمين من الغرب الأوروبى دون الأرمن الذين أصابهم الشعور بالأسى من سياسة بلدوين فاتجهت مشاعرهم إلى الأتراك واتصلوا بموود أتابك الموصل فى عام ٥٠٦هـ / ١١١٢م يقدمون إليه وعوذهم بتسهيل دخوله الرها ووصلت أخبارهم إلى

بلدوين فاشتدت قسوته عليهم وأمر بطردهم جميعا ما عدا السريان
واليعاقبة وبعض الطوائف المسيحية الأخرى.



بعد أن خرج جاولى أتابك الموصل عن طاعة السلطان محمد
السلجوقي حرض السلطان محمد القائد مودود لمحاربة جاولى فى الموصل
وتولى حكمها بدلا منه. وبعد أن تمكن مودود من الاستيلاء على الموصل فى
عام ٥٠٣ / ١١٠٩ أمره السلطان محمد ليبدأ فى مطاردة الصليبيين
وقتلهم، وقد تمكن القائد مودود حاكم الموصل الجديد من إعداد حملة حربية
لمواجهة الصليبيين، فجمع معه سكران القطرى أمير خلاط وميافارقين، ونجم
الدين إيلغازى بن أرتق أمير ماردين فى ديار بكر الذى جمع معه كثيرا من
الدكران.

وفى رمضان عام ٥٠٣هـ/ ابريل ١١١٠ اتجهت الحملة إلى الرها
وقامت بحصارها، ولما علم بلدوين الأول ملك بيت المقدس بـ سرعة بإرسال
قواته إلى الرها فى شوال/ مايو من نفس العام إلا أن مودود قام برفع
الحصار عن الرها ووجه قواته إلى حران. وفى الطريق انضم إلى مودود
طفكتين بجيش من دمشق. وفى حران أخذ مودود يراقب موقف الصليبيين
فعلم أن جيوشهم قد عبرت الفرات تلبية لدعوة الدفاع عن بيت المقدس التى
هاجمتها القوات الفاطمية، وتركوا خلفهم بضعة آلاف من المهاجرين الأرمن
ينتظرون دورهم فى عبور النهر فأسرعت قوات مودود بمهاجمة أولئك
اللاجئين من الأرمن فى المناطق الجبلية المحيطة بكيسوم فى مزارع وقرى
الفرات واستطاع أسر أعدادا كبيرة منهم مع ما لا حصر له من الغنائم ثم

عادوا جميعهم إلى حران.

أما بلدوين فقد ترتب على إنسحابه لمواجهة خطر الهجوم الفاطمي على بيت المقدس أن تمكن المسلمون من اجتياح المزارع والضياع المسيحية الواقعة شرق الفرات والفوز بالغنائم والأسرى دون أن يلاقوا مقاومة تذكر لغياب القوات المدافعة عنها وهكذا ضعف موقف الصليبيين كثيرا عند أطراف الفرات حيث أصبحت الرها وسروج وهما أكبر قلعتين في تلك المنطقة واقعة وسط أرض خالية من السكان.

وهكذا ربح المسلمون بالغنائم بينما عاد الزعماء الصليبيون يتعنون فشلهم حين عاد بلدوين الأول إلى بيت المقدس وتكرر إلى أنطاكية، وعاد بلدوين الثانى إلى الرها فوجدها محاطة بأرض جرداء خالية بعدما كانت عامرة بالسكان والخيرات.

وفى أوائل القرن السادس الهجرى/ الثانى عشر الميلادى اجتمع وفد من حلب واتجه إلى بغداد وأظهر سخطه الشديد وطالب الخليفة العباسى المستظهر بمواجهة الخطر الصليبي فى البلاد، وأدرك الخليفة خطورة الموقف وبعث إلى السلطان محمد السلجوقى يطلب منه الجهاد ضد الصليبيين فى أرض الشام. وسرعان ما استجاب السلطان محمد وكلف ابنه مسعود والأمير مودود أتابك الموصل بالاستعداد لقتال الصليبيين.

لم يكن الصليبيون فى ذلك الوقت على وفاق مع البيزنطيين وبلغ العداء بين الطرفين إلى درجة أن الامبراطور البيزنطى بعث يحرض الخليفة العباسى على قتال الصليبيين الغربيين وإبعادهم عن أرض الشام.

وفى عام ٥٠٥ هـ / ١١١١ استطاع الأمير موبود حاكم الموصل أن يجمع حوله حكام الأقاليم فى الدولة السلجوقية وهم سكران القطبى صاحب خلاط وتبريز وبعض ديار بكر والأمير إيلنكى بن برسق وزنكى بن برسق وكانت همدان وخوزستان يحكمها إبننا برسق ، وصاحب مراغه فى أذربيجان وهو الأمير أحمدىل وصاحب أربل والأمير أبو الهيجاء. وبعث إيلغارى صاحب ماردىن بإبنة إياذ نيابة عنه للمشاركة فى الجهاد ضد الصليبيين.

اجتمع هؤلاء الأمراء بقواتهم قريبا من سنجار ثم ساروا بقصد مهاجمة الصليبيين فى الرها، ولم يتمكن المسلمون من الاستمرار فى حصار الرها لأنهم توقعوا مثل هذا الهجوم على بلادهم وأعدوا عدتهم للمقاومة ضد وأدرك المسلمون تعذر تحقيق هدفهم من الحصار فاتجهوا إلى تل باشر، إلا أن حاكمها جوسلين دى كورتناى استطاع مقاومة الحصار مدة خمسة وأربعين يوما بعث خلالها إلى أحمدىل الكردى صاحب مراغة الأموال مقابل فك الحصار عن المدينة فاستجاب له أحمدىل. ولما ابتعد المسلمون عن تل باشر أسرع جوسلين بمداهمة مؤخرة جيش المسلمين فقتل منهم نحو ألف رجل وعاد معه الغنائم إلى تل باشر.

ثم اتجهت القوات الإسلامية بقيادة موبود إلى حوض نهر العاصى لاستعادة ما أخذه تنكرد فى معركة النعمان وعند معركة النعمان اجتمع جيش طغتكين أتابك دمشق مع جيش موبود وحلفائه وتخلف رضوان صاحب حلب بسبب ما داخله من خوف من الأطماع المتوقعة نحوه من الأمراء المسلمين.

كذلك فعل طغتكين مثلما فعل رضوان وعمل على توجيه جيش المسلمين إلى طرابلس، إلا أن القادة المسلمين خشوا تنفيذ هذه الفكرة لبعد المسافة بينهم وبين طرابلس، وهكذا انفرط عقد القوة الإسلامية المعدة للجهاد لتخوف الأمراء المسلمين على مناصبهم ورأوا أن الأوضاع بحالتها التي هي عليها في أرض الشام هي التي تكفل لهم الأمان فتفرقوا.

أما الصليبيون فإنهم أحسوا بخطورة موقفهم فاجتمع بلدوين دي بوج أمير الرها وجوسلين دي كورتناي أمير تل باشروتنكرد أمير أنطاكية وتلاقوا جميعهم مع بلدوين الأول ملك بيت المقدس وبرترام أمير طرابلس وغيرهم من كبار الصليبيين ثم التقت جيوشهم قرب فامية على الضفة الشرقية لنهر العاصي في مواجهة جيوش المسلمين بقيادة طغتكين ومودور على الضفة الغربية للنهر عند شيزر. وتقدم إليهما سلطان بن منقذ صاحب شيزر وشجعهما على جهاد الصليبيين.

وفي صفر عام ٥٠٥ هـ / سبتمبر ١١١١ عبر الاتراك إلى الضفة الغربية من النهر ووقعت مناوشات بين الفريقين، ثم رأى مودور الانسحاب والعودة من حيث أتوا. وهكذا ظل المسلمون على تفرق كلمتهم بينما الصليبيون في أرض الشام من شماله إلى جنوبه في إتحاد استطاع بفضل الصمود في وجه القوى الإسلامية غير المتحدة.



وفي عام ٥٠٦ هـ / ١١١٢ م واصل مودور جهاده من جديد ضد الصليبيين فبدأ بحصار الرها وظلت قواته تحاصرها مدة شهرين بينما

اتجه هو إلى سروج المركز الثانى للصليبيين شرقى نهر الفرات ولكن يقظة جوسلين لم تترك الفرصة لمودود ليحقق غرضه فى سروج فهاجمه وتغلب عليه، ويرجع سبب هزيمة مودود فى حصاره لسروج أنه أبقى بعض جيشه فى حصار الرها بينما كان بإمكانه التخلي عن الرها والضغط بكل قوته على سروج ولكنه لم يفعل وتغلب عليه جوسلين

ثم حاول مودود العودة إلى الرها فسبقه إليها جوسلين. ولما حاول الأرمن الحاقدين على بلدوين الثانى تقديم العون لمودود أسرع جوسلين لإحباط هذه الخطة واتجه إلى القطاع الشرقى من الرها واحتل القلعة التى كانت على وشك أن يمتلكها مودود ويدخل عن طريقها إلى المدينة. وهكذا أفسد خطة الأرمن فى نصرة مودود.

وقد تغيرت سياسة بلدوين الثانى تجاه الأرمن وأنزل بهم أشد العقاب ثم أمر بعد ذلك بقليل بطردهم من الرها. ثم بدأ الصليبيون يظهرون عداهم للزعيم الأرمنى كوغ باسيل فتحالف ضده كل من بلدوين الثانى أمير الرها وتنكرد أمير أنطاكية وقام تنكرد باحتلال رعبان وبدأ فى محاصرة كيسوم إلا أنهما تصالحا بعد ذلك.

وفى عام ٥٠٧هـ / ١١١٣ تمكن الأمير مودود حاكم الموصل من جمع الأمير تيمرك صاحب سنجار والأمير إياز الارتقى بن ايلغازى أمير ماردين وطغتكين أتابك دمشق الذى استطاع توجيه هذه القوى الإسلامية ضد مملكة بيت المقدس.

علم بلدوين الثانى بتحرك مودود ضد بلدوين الأول ملك بيت المقدس

فأبلغه بخطورة موقفه فأسرع بلدوين الأول باستدعاء الأمراء الصليبيين القريبين منه، روجر الأنطاكي ويونز أمير طرابلس . ولكن لم يكتب لهذه الحملة التي يقودها مودود النجاح بعد مقتن مودود في دمشق في ربيع الأول ٥٠٧هـ / سبتمبر ١١١٣م.

ولما دب الخلاف بين بلدوين الثاني أمير الرها وجوسلين حيث بدأ بلدوين يشك في إخلاص جوسلين بعد تودده إلى الأرمن وهم أعداء بلدوين فلجأ بلدوين إلى القبض على جوسلين ثم عاد وأطلق سراحه بعد إبعاده عن تل باشر.

وعند ذلك اضطر جوسلين إلى التوجه إلى بلدوين الأول ملك بيت المقدس فاستقبله بلدوين استقبالا حسنا ومنحه إمارة طبرنة والجليل . وهنا تحمس جوسلين في محاربة المسلمين وتغافل عن أفعال بلدوين وإسائه إليه فلم يتحدث عنه لأحد يسؤ. ثم حدث أن توفي بلدوين الأول في محرم ٥١٢هـ / إبريل ١١١٨ وخلفه على بيت المقدس بلدوين الثاني الذي حفظ لجوسلين مودته فأعلن رضاؤه عن جوسلين وأعادته إلى مكانه حاكما على تل باشر وسلمه أيضا إمارة الرها.



ظلت العلاقة بين الصليبيين والأرمن عادائية إلا أن تكرار ظهور العداء من جانب الأرمن والرد عليه من جانب الصليبيين الذين ظلوا يعاقبون الأرمن بالطرد والمصادرة حتى لم يبق بمدينة الرها غير السريان والصليبيين الغربيين، وصارت خسارة للصليبيين لم يستطع بعدها بلدوين الاستمرار في

خطته العدائية ضد الأرمن فعاد ورحب بهم وطالبهم بالعودة إلى بلادهم
الرها مرة ثانية فى رمضان عام ٥٠٧ / فبراير ١١١٤ .

وفى نفس العام قاد أقسنقر حاكم الموصل - بعد وفاة موبود - حملة
لمواجهة الصليبيين فى الرها ورافقه فى هذه الحملة إبنه عماد الدين زنكى
وتيمرك صاحب سنجار وقد أعد أقسنقر نفسه إعداد جيدا لهذه الحملة
فاستولى قبل بدء الحملة على جزيرة ابن عسر من أعمال الموصل وأيضا
ماردين أخذ من صاحبها إيلغازى الذى بعث بإبنه إياز ليلحق بأقسنقر عند
مهاجمة الرها. وبعد حصار أقسنقر للرها مدة شهرين رجع عنها واتجه إلى
سروج وسميساط .

ثم وصلت رسالة إلى أقسنقر من دغاباسيل حاكم أكسيوم ورعبان
يقدم خدماته وعقد محالفة مع المسلمين ضد أعدائهم الصليبيين وقد
استجاب أقسنقر وقبل تبعية باسيل له مع فردى جزية رمزية لتأكيد تبعيته.
إلا أن ذلك لم يفد الأرمن إذ اضطر باسيل إلى تسليم أكسيوم ورعبان
لبلدوين الثانى فى عام ٥١٠ / ١١١٦ .

ثم واصل بلدوين مهاجمة الإمارات الأرمينية فى أطراف الشام فخرج
بلدوين فى عام ٥١١ / ١١١٧ وصحب معه سروج وهاجموا البيرة واستولوا
عليها من حاكمها أبو الغريب وهى ذات موقع هام بين الرها وعينتاب ثم
جعل لها صفتها المستقلة ثم اتجه بلدوين إلى قلعة قورش شمالى حلب
واستولى عليها .

الفصل الخامس

الحياة الاجتماعية والحريية للصليبيين فى الشام

- * نظم الحكم والإدارة
- * الكنيسة والمجتمع
- * الحياة الاقتصادية
- * طبقات المجتمع الصليبي فى أرض الشام.
- * بلدوين الثانى ملك بيت المقدس.
- * فرسان الاسبتارية والداوية
- * التحالف الإسلامى بين دمشق والقاهرة
- * موقعة البلاط.
- * الصراع بين المسلمين والصليبيين فى أرض الشام.
- * الخلاف بين مسيحي الكاثوليك اللاتين ومسيحي الشرق.

منذ الحملة الصليبية الأولى ٤٩٠ - ٤٩٣هـ / ١٠٩٦-١٠٩٩م) التي دعا إليها البابا اربان الثاني في عام ١٠٩٥/٤٨٩ والتي تمكنت من تأسيس أربع إمارات لاتين صليبية في أرض الشام. وكان سبب نجاح تلك الحملات الصليبية ليس إلا ضعف العالم الإسلامي وانقسامه فسهل ذلك على الصليبيين مهمتهم في الغزو ولكن الصليبيين الذين عاشوا ما يقرب من قرنين من الزمان في البلاد الإسلامية حتى طردهم منها عام ٦٩٠هـ / ١٢٩١م.

لم يقدر لهم أن يسيطروا على تلك البلاد بأجمعها وإنما احتلوا أجزاء متفرقة منها لا تربط بينها رابطة وتفصل بينها أراض ومدن إسلامية كبرى بقيت محتفظة بكيانها الإسلامي لم تصل إليها يد الصليبيين. مثل حلب وحماه ودمشق.

ولما لم تكن نوايا الصليبيين خالصة للأهداف الدينية وإنما خالطتها النوايا والأطماع السياسية فلذلك تعذر ظهور وحدة سياسية تجمع الصليبيين في بلاد الشام. وهكذا قامت إمارة الرها وإمارة انطاكية كما قامت مملكة بيت المقدس وبعدها إمارة طرابلس.



سار الحكام الصليبيون في إماراتهم الجديدة في بلاد الشام على أساس النظم التي سار عليها الغرب الأوربي وهو النظام الإقطاعي فكان الرئيس هو ملك بيت المقدس وله أملاكه الخاصة. كما يتبعه أربعة أمراء كبار يسيرون على نفس النظام الذي يسير عليه ملك بيت المقدس. ثم يليهم في الأهمية مجموعة من الأمراء وهم نحو إثني عشر أميراً ولكل أمير من هؤلاء

السيد الإقطاعي الذي يقدمون له الخدمات العسكرية من حيث تقديم الفرسان للحرب في الوقت الذي يحتاج فيه اليهم دون التقيد بمواعيد محددة وإنما في أي وقت من العام حيث الحروب دائمة الاشتعال بين المسلمين والصليبيين.

وكان لكل أمير قطعة موحدة من الأرض مثل مدينة أو حصن أو عدة قرى مجتمعة باستثناء الضياع التي تمتلكها الكنيسة التي حصلت عليها مثل هبة أو تبرع . وكذا الضياع التي تتبع الهيئات المحاربة مثل الاسبتارية والداوية التي حصلوا عليها بالحرب. وهذه كانت موزعة ومتناثرة في مختلف الجهات.

كذلك اعتمد الحكام على ما يحصلون عليه من الغنائم من القرى والضياع والقوافل الإسلامية فضلا عن الأراضي المزروعة في المناطق التي يسيطر عليها الصليبيون والضرائب التي تحصل من الصادرات والواردات والحجاج والضرائب الجمركية في الموانئ.

أما رجال الدين فقد بلغ نفوذهم الغاية فلم يكن ملك بيت المقدس المتوج سلطان يعلوا سلطان رجال الدين في بيت المقدس وهي مدينة المسيح. ولذلك فقد امتنع جودفري عن قبول التاج عندما قبل حكم بيت المقدس بعدما استولى عليه الصليبيون في عام ١٠٩٩ / ٤٩٣.

وقد جعل الصليبيون الحكم في بيت المقدس ملكيا ولكنه بالانتخاب حتى جاء عهد تولية بلدوين الرابع ملكا علي بيت المقدس وهو في الثالثة عشر من عمره بعد أن توفي والده، واتفق الأمراء على الأخذ بالمبدأ الوراثي

للمملكة . وعلى الرغم من التحول إلى جهل المملكة وراثية، فقد جعلوا للأمراء حق مراجعة الملك عند إتخاذ قراراته الملكية وكذلك للمحكمة الإدارية العليا رأيها فلا يتم إبعاد أمير عن إقطاعه دون الرجوع إلى المحكمة العليا.

وقد بدأت المحكمة كهيئة قضائية ثم أمتد سلطانها إلى هيئة تشريعية بحيث أن كل تشريع جديد أو البت فى خلافات تقوم بين الأمراء يكون للمحكمة كلمتها فى كل هذه الأمور . فقد جمعت المحكمة بين كبار رجالها وكبار رجال الدولة ومن الهيئات المتعددة فى الدولة أمراء وممثلين للجاليات الأجنبية.

وهكذا خضع ملك بيت المقدس لنفوذ المحكمة العليا فى البلاد عند اتخاذ القرارات العليا المتعلقة بأمور البلاد. وكان بجوار المحكمة العليا توجد المحاكم البرجوازية الخاصة بالطبقة البرجوازية من الفرنجة وأقيمت تلك المحاكم فى المدن الكبرى لتتولى النظر فى مختلف المعاملات بين هؤلاء الأفراد. وقد بلغ عدد المحلفين اثنا عشر محلفا يختارهم أمير المدينة ويرأسهم فيكونت المدينة.

وفى المدن التى كان غالبية سكانها من الايطاليين أو يوجد أحياء خاصة بالإيطاليين، فقد خصصت لهم المحاكم التجارية للبت فى المسائل التى تتعلق بالشؤون التجارية . ومحاكم الموانى. والسفن التى أقيمت فى الموانى البحرية كان قضائها من القنصل أو من وكيله. وقد قام بالاشراف على الجهاز الإدارى مجموعة من كبار الموظفين. وقد تنوعت الأعمال الإدارية فى مملكة بيت المقدس بحيث صار لكل فرد من رجال الإدارة

نشاطه الخاص. وقد سارت الإمارات الصليبية فى بلاد الشام على نفس
النظم الإدارية والقضائية التى سارت عليها مملكة بيت المقدس.



قامت الحروب الصليبية بجهد من البابا الذى دعا إليها وساندها بقوة
وجمع لها الجموع وحشد لها القوات من كل أوربا الغربية ولذلك فقد صار
للبابوية نفوذ على الحركة الصليبية منذ قيامها من أول خطوة إلى غزوها
للبلاد الشامية. ولذلك حرصت البابوية على بقاء سلطانها على الحكام
الصليبيين فى الشام، ولم تشجع قيام حكومة ذات طابع دينى مستقل خشية
ظهور رجل دين قوى ينافس البابا فى روما، خاصة أن بيت المقدس هو مهد
المسيح. ومع ذلك فإن الكنيسة الكاثوليكية استطاعت مع قدوم الحملة
الصليبية الأولى إلى الشام فرض نفوذها على بيت المقدس وأن يحل رجال
الدين الكاثوليك محل رجال الدين الأرثوذكس، وسيطر الكاثوليك على كل
شئ من امتلاك الأراضي والأموال وكثير من المنح والهدايا التى لا حصر
لها مما جعل الكنائس التى بناها الكاثوليك فى بلاد الشام تعيش فى ثراء لا
حدود له، وصار لها ممتلكات كثيرة ليس فى الشرق العربى فحسب بل فى
أوربا أيضا.

وقد بلغ نفوذ رجال الدين الكاثوليك وممتلكاتهم حدا جعل دير صهيون
فى بيت المقدس يمتلك فى عام ٥٧٤هـ / ١١٧٨م أحد أحياء مدينة القدس مع
حقه فى فتح أسوار المدينة متى شاء، كما كان للدير فوق كل ذلك أراض
وبساتين وأسواق فى مدن عسقلان ويافا ونابلس وقيساريه وعكا وصور

وأنطاكية وغيرها . كذلك قدم حجاج بيت المقدس للدير ضياعا وأملاكاً هديه خالصة للدير فى أنحاء بلدان ومدن أوربا المختلفة . وكان النبلاء والفرسان من الصليبيين مستأؤن من هذه الامتيازات التى يحصل عليها رجال الدين من أموال وضياع وإعفاء من الضرائب ومن الخدمة العسكرية فى حين أن العسكريين هم المسؤولون عن الدفاع عن جميع الصليبيين ويتعرضون للأخطار من كل حدب وصوب وليس لهم ما للكنيسة من إمتيازات فاقت الحد .

وقد قام النظام الدينى فى الكنائس فى العهد البيزنطى على وجود بطريرك لبيت المقدس ويتبعه خمسة من رؤساء الاساقفة فى صور وقيسارية والناصرية والكرك وبصرى ويتبعهم تسعة أساقفة . ويطريرك ثان فى أنطاكية وتتبعه كنائس أنطاكية وطرابلس والرها وغيرها .

وقد ظهرت فى بلاد الشام الهيئات الدينية التى أهمها الاسبتارية والداوية وكانوا أكثر الصليبيين شجاعة وقوة وساهموا فى الحروب ضد المسلمين مساهمة فاقت الوصف . ولكنهم وفى نفس الوقت كانوا على درجة عالية من الإهتمام بأفراد الشعب من الفقراء فأقاموا الملاجئ والمستشفيات وساهموا فى إيواء الفقراء وعلاج المرضى وبذلوا لهم المعونات التى أثارت الإعجاب من الآخرين .



اشتغل الصليبيون بأعمال الرعى على سفوح الجبال حيث تكثر المراعى واشتغلوا بزراعة الخضروات واهتموا ببساتين الفاكهة ومزارع

الزيتون فى الأراضى التى حول المدن. وكان لهم نشاط فى تصدير بعض الحاصلات مثل الزيتون والمواالح إلى أوربا. كما اشتغلوا بزراعة قصب السكر وأقاموا له المصانع فى عكا وصور وفى غيرها ونشطوا فى تصدير السكر. كما صدروا الأقمشة والملابس الحريرية والتيلية. كما أهتم اليهود فى صور وأنطاكية بانتاج الزجاج وتصديره إلى غرب أوربا. وقد نافسهم المصريون فى تصدير هذه الحرفة إلى أوربا.

وقد استفاد ملوك وأمراء الصليبيين من حركة التجارة العابرة القادمة من بلاد الشرق مارة بأرض الشام والمتجهة إلى غرب أوربا ففرضوا الرسوم على البضائع الواردة والمصدرة وكان الإيطاليون من البنادقة والجنوئين لهم نشاط تجارى كبير حتى صارت لهم أحياء خاصة بهم فى أرض الشام وأقاموا فيها الفنادق الخاصة بأبناء جنسهم من الإيطاليين.

وقد برزت ميناء عكا حتى فاقت غيرها من الموانى مثل صور والموانى التى فى شمال الشام مثل اللانقية والسويدية. كما ساهمت هذه الموانى فى خدمة التجار المسلمين القادمين من البحر متجهين إلى أرض الشام فى دمشق وغيرها.

لم تكن المجتمعات التى شكلت المجتمع الصليبي فى أرض الشام على وفاق فيما بينهم. أما الصليبيون القادمون من الغرب الأوربي فقد كانوا قلة بين المجتمع الشامى الذى تشكلت غالبية من مسيحي الشرق، خاصة بعد عودة الكثيرين من الصليبيين إلى بلادهم فى غرب أوربا. وعلى الرغم من مشاركة هؤلاء الصليبيين مسيحي الشرق فى عاداتهم وتقاليدهم الشرقية إلا

أنهم جعلوا من أنفسهم طبقة ارسنقراطية حاكمة بقيت على قلتها بسبب كثرة الضحايا فى الحروب. وكان المقدّر لهذه الطبقة أن تمثل الغالبية للمجتمع الصليبي بأرض الشام.

أما طبقة المحاربين من عامة الصليبيين الذين شكلوا الغالبية وتكونت منهم فرق المشاة للجيش الصليبي فهؤلاء أندمجوا مع مسيحي الشرق بالتزاوج مثل الأرمن. وقد نشأت من هذا الإختلاط طبقة الأخلاط وهذه الطبقة اندمجت مع الطبقة السابقة بمضى الزمن.

أما مسيحيو الأرمن والموارنة والبيزنطيين والسريان واليعاقبة والاقباط ، فلم يحمل لهم صليبيو الغرب مودة أو محبة بل فرقت بينهم الاختلافات المذهبية من كاثوليك وأرثوذكس، والشك من أن يتعاونوا مع البيزنطيين وهم على المذهب الشرقي الأرثوذكسي، مع أنهم كانوا نوى مهارات يدوية ولا يمنعهم شئ عن الإشتغال بالأعمال البسيطة التي كان يأنف من ممارستها الصليبيون الغربيون.

وقد بقى قلة من المسلمين حيث أن غالبيتهم هاجروا إلى أرض جديدة فلجأ الحكام الصليبيون إلى فتح بلادهم للأرمن وساعدوهم على البقاء فى المجتمع الصليبي اللاتيني لتعمير البلاد ومنحوهم الوظائف الهامة فى البلاد. كما تزوج الصليبيون من الأرمن وكونوا روابط أسرية.

أما التجار الإيطاليون : فقد ظلوا يشكلون طبقة مستقلة وقد احتفظوا بلغتهم الإيطالية وبقي اختلاطهم مع الآخرين قاصرا على المعاملات التجارية والمالية.

والمسلمون : فعلى الرغم من هجرة كثير من المسلمين فقد ظل بعضهم باقيا لم يهاجر، وقد شغل المسلمون فى المناطق الصليبية من بانياس إلى عكا، وفى حوض نهر العاص وقد سكنوا سهل البقاع فضلا عن البدو الرحل الذين يتنقلون مع مواشيهم وراء المراعى من مكان لآخر ولم يتخلوا عن التعرض لقوافل الصليبيين وممتلكاتهم بين الحين والآخر.

أما رقيق الأرض والقن. فقد اشتغل هؤلاء الرقيق والاقنان فى زراعة الأرض وبعض الأعمال الصعبة، حيث كان الصليبيون يعاملونهم بقسوة بالغة بعكس ما كان عليه الحال أيام العهود الإسلامية.

وهذا المجتمع الصليبي غير المتجانس هو الذى أضعف من القوى الصليبية وقلل من تعذر المقاومة ضد القوى المجاورة لهم من المسلمين ومن غيرهم.



اختلف الصليبيون فيمن يتولى عرش بيت المقدس بعد موت الملك بلدوين الأول، وبعد صراع وقع الإختيار على بلدوين دى بوج الذى تصادف أنه كان فى طريقه من إمارة الرها إلى بيت المقدس للحج والزيارة.

حضر بلدوين دى بوج إلى بيت المقدس وفى محرم ٥١٢هـ/أبريل ١١١٨م جلس بلدوين دى بوج ملكا على بيت المقدس ولقب ببلدوين الثانى ولم تكن الأمور ميسرة للملك الجديد فقد رفض بونز أمير طرابلس الاعتراف بولاء الملك الجديد. وفى هذه الظروف أتجه بلدوين الثانى للإطلاق حرية

التجارة. وفى عام ١١٢٠/٥١٤ أمر بحرية نفل البضائع من وإلى المملكة
وسمح لجميع مسيحي الشرق بحرية دخول المملكة وممارسة التجارة.



أما الاسبتارية والداوية. فقد بدأت هذه الجماعات بالعمل على رعاية
المرضى الصليبيين والعناية بهم فى ظل الحروب الصليبية ثم تطور الحال بها
إلى أن تحولت إلى الناحية الحربية وقامت بدور الدفاع عن الممتلكات
الصليبية بالشام وحماية الصليبيين ضد المسلمين. وقد جعلوا من البابا
قائدهم الأعلى وليس لأحد سلطان عليهم غير البابا. ولم يعترض على ذلك
أحد من القادة الصليبيين.

وقد ساهمت الاسبتارية والداوية فى الدفاع عن طرق المواصلات
الصليبية وعن بيت المقدس ، وعلى الرغم من مساعدة وتعاطف بلدوين الثانى
لهؤلاء الفرسان فإنهم ظلوا على ولائهم وتبعيتهم للبابوية. ولما بلغت هذه
الهيئات درجة كبيرة من الثراء تحولت عن مبادئها التى صارت مستقلة عن
الكنيسة الكاثوليكية. كما لم يتورعوا عن مناهضة الكنيسة الأرثوذكسية فى
القسطنطينية.



اتفق الفاطميون فى عهد الوزير الأفضل مع طغتكين حاكم دمشق على
مهاجمة الصليبيين وجعلوا القيادة العسكرية لطغتكين، وصارت مملكة بيت
المقدس بين فكي كماشة. فأسرع بلدوين الثانى بطلب النجدة من أنطاكية

وطرابلس ثم اتجه بلدوين الثانى شمالى عسقلان وعسكر بها مدة تزيد عن شهرين. ثم تم فض الاشتباك دون قتال بين الفريقين.

ثم كلف بلدوين جوسلين دى كورتناى بالإغارة على عرب طبرية فى عام ٥١٣/ ١١١٩. ثم اتجه بعدها إلى وادى السلالة ولكن العرب التفوا حول جوسلين فأسرع بالهرب وفى العودة تاد جوسلين فى الطريق فأحاط العرب بالصليبيين وقتلوا منهم سبعين وأسرروا آخرين وتمكن جوسلين من اللجوء إلى طرابلس واصطحب معه جماعة من الفرسان وأغاروا على عسقلان ولكنهم هزموا مرة ثانية فانسحبوا خاسئين.



لما ساءت الأحوال فى حلب بعد وفاة ملكها رضوان فى عام ٥٠٧/ ١١١٣ وخلفه ابنه ألب أرسلان الذى قتل فى ربيع الثانى عام ٥٠٨/ سبتمبر ١١١٤ ثم تولى بعده الوصاية على الإمارة بدر الدين لؤلؤ البابا ٥٠٨-٥١١/ ١١١٤-١١١٧ ثم أعقبه فى ولاية حلب يارقتاش بن الملحى.

وفى بداية عام ٥١٢/ ١١١٨ صارت حلب تحت رحمة النورمان فى أنطاكية فأسرعت حلب إلى إيلغازى الأرتقى ليدفع عنهم خطر روجر الأنطاكى.

وفى عام ٥١٣/ ١١١٩ هاجم روجر بزاغ واستولى عليها فأصبحت حلب تحت الحصار من ثلاث جهات . فاتجه إيلغازى إلى جمع قواته من التركمان واجتمع معه الأمير أسامة بن المبارك بن شبل الكلابى والأمير

طغان صاحب بدليس وأرزن وقبل طغتكين صاحب دمشق الحضور بنفسه للمشاركة وكذا أمير شيزر أبو العساكر سلطان ابن منقذ الذي أبلغهم بقيامه بمهاجمة إمارة أنطاكية من الجنوب.

وفى عام ١١١٩/٥١٢ بدأ إيلغازى قيادة القوات المتحالفة واتجه بها إلى الفرات ابتداءً وهاجم تل باشر والرها ثم عبر الفرات ناحية بالس واتجه إلى قنسرين فألى حلب لحمايتها من الصليبيين.

ولم يهتم روجر بالجيش الإسلامى الذى بلغت قوته أربعين ألف ، ولكنه استدرك وبعث إلى بلدوين الثانى ملك بيت المقدس الذى أعلن خروجه للمشاركة فى قتال المسلمين وبرفقته أمير طرابلس.

وظل روجر على تسرعه فى البدء لمهاجمة المسلمين قبل أن تصل إليه الإمدادات . ولم يكن معه من الفرسان غير سبعمائة فارس ومن المشاة أربعة آلاف ولما وصلت أخبار روجر إلى إيلغازى من الطلائع أسرع بالإتجاه من قنسرين إلى روجر والتقى به فى سهل قريب من أرتاح والتحم الفريقان فى قتال سقط فيه جيش روجر حتى لم يبق فيهم من هو على قيد الحياة ثم قتل روجر فى المعركة التى عرفت بموقعة البلاط.

وقد حصل إيلغازى بعد تحقيق النصر على الصليبيين على تقدير عامة المسلمين، وبعث إليه الخليفة العباسى المسترشد بالله يشكره على جهاده فى سبيل نصرة الإسلام والدفاع عن المسلمين. وقد دفعت هزيمة الصليبيين هذه بالمسيحيين من السريان والأرمن والإثوذكس إلى مناهضة الصليبيين وتدبير الخطط ضدهم. إلا أن بلدوين الثانى لجأ إلى معالجة الأمور فاتجه مسرعاً

أنطاكية التي تولى الوصاية عليها حتى قدم إليها من الغرب الأوربي
بوهيموند الثانى بن بوهيموند مؤسس الإمارة.

أما المسلمون فقد واصلوا جهادهم ضد الفرنجة فاتجه إيلغازى
الأرتقى وطغتكين معا إلى محاصرة الأتارب وأستولوا عليها فى جمادى
الأولى ٥١٢هـ / أغسطس ١١١٩م وساروا بعدها إلى زردنا وفتحوها بعد
جهد . وفى عام ٥١٢ / اغسطس ١١١٩ اشتبك بلدوين الثانى مع القوى
الإسلامية عند دانيت وتغلب بلدوين على المسلمين فى هذه المعركة التي
انتهت بعودة إيلغازى وطغتكين ومعهما كثير من الأسرى الصليبيين إلى
حلب.

وظل الصراع مستمرا بين الصليبيين والمسلمين حتى وقع جوسلين
أمير الرها أسيرا فى أيدي المسلمين حيث أسره بك غازى بن بهرام
الأرتقى صاحب خرتبرت فى جمادى الآخر ٥١٦ / سبتمبر ١١٢٢ وأصبح
على بلدوين الثانى ملك بيت المقدس أن يكون وصيًا على الرها كما قام
بالوصايا من قبل على أنطاكية.



وفى صفر عام ٥١٧ / ابريل ١١٢٣ غامر بلدوين الثانى بنفسه لمهاجمة
خرتبرت لتحرير جوسلين أمير الرها من أسر المسلمين فوقع بلدوين نفسه
فى الأسر بيد الأمير بك الذى فاجأ بلدوين عند قنطرة سنجة وقاده مكبلا
بالحديد إلى قلعة خرتبرت ليرافق الأسير الأول جوسلين أمير الرها.

بعد ذلك اتجه بلك فى ربيع الآخر عام ٥١٧هـ / أواخر يونيو ١١٢٣ إلى مواصلة الإعداد للمعارك القادمة مع الصليبيين فقام بضم حران ومن بعدها حلب ثم بدأ يهاجم أنطاكية واستولى على البارة غربى معرة النعمان ثم أسرع بالعودة إلى خرتبرت فوجد أن الأرمن قد سهلوا هروب جوسلين من الأسر فى خرتبرت أما بلدوين ملك بيت المقدس فقد فاجأه بلك قبل أن يتمكن من الفرار وأعادته إلى السجن فى خرتبرت من جديد ثم قام بلك بنقل أسيره من خرتبرت إلى حران حتى لا يتمكن أحد من الصليبيين من فك أسره وقد عرفوا مكانه.

وفى ربيع الأول عام ٥١٨هـ / مايو ١١٢٤ استشهد بلك حيث أصابه سهم فى أثناء حصار منبج وخلفه فى حكم حلب ابن عمه حسام الدين تمرتاش بن إيلغازى بن أرتقى الذى تحول من حلب إلى ماردين ليجعلها مقرا للحكم بعيدا عن جو الحروب مع الصليبيين.



ظل الصراع بين المسلمين والصليبيين مستمرا فى أرض الشام ، والحرب بينهما سجال. لكن الأمور لم تنتظم للصليبيين فى سهولة ويسر. فقد واجهتهم مشاكل عديدة كانت أن تقضى على الجهاز الصليبي بأرض الشام، نتيجة للأطماع السياسية للأمراء من ناحية ورجال الدين من الناحية الأخرى.

أما بلدوين الثانى فبعد أن تم فك أسره وعودته ثانية إلى عرش بيت المقدس الملكى، عمل على العودة إلى محاربة المسلمين بشراسة أشد من

السابق، كما بعث إلى فرنسا فى عام ٥٢٣هـ / ١١٢٨م لاختيار شخصية تحل محله فى تولى حكم مملكة بيت المقدس حيث لم يكن له من ذرية غير أربع بنات تزوجت إحداهن وهى ابنته إليس من الأمير بوهيموند الثانى صاحب أنطاكية، إلا أنه لم يرغب فى ترشيح زوج أبنته بوهيموند الثانى لتولى عرش المملكة. وقد قتل بوهيموند الثانى فى معركة مع المسلمين فى عين زربة فى عام ٢٢٥/١١٣٠ بعد أن انجبت منه طفلة هى كونستانس.

وفى فرنسا اختار الملك الفرنسى لويس السادس أحد الأمراء الفرنسيين الممتازين لتولى حكم مملكة بيت المقدس فيما بعد تلبية لرغبة بلدوين نفسه. وفى عام ٥٢٤ / ١١٢٩ وصل الأمير فولك المرشح لوراثة بلدوين الثانى فى الحكم، وقد رحب بلدوين وزوجه من ابنته الكبرى ميلزاند وقدم إليه مدينتى صور وعكا إقطاعا لزوج ابنته فولك الأنجوى.

وفى عام ٥٢٦ / ١١٣١ مات بلدوين الثانى بعد حكم دام ثلاثة عشر عاما ثم خلفه فى حكم بيت المقدس فولك الأنجوى فى ربيع الثانى ٥٢٦ / سبتمبر ١١٣١ .

وفى أواخر عام ٥٢٦ / ١١٣١ توفى جوسلين أمير الرها وخلفه فى الحكم ابنه جوسلين الثانى الذى اتصف بعكس أبيه بعدم المبالاة وقد تملكه الخوف من المسلمين فرحل عن الرها واتجه إلى تل باشر ينشر الأمن والسلام فتطلع المسلمون إلى فتح الرها وضمها إليهم.

ولم يكن حال أنطاكية بأحسن من الرها، فقد كانت الأميرة إليس تعمل على تولى حكم أنطاكية والتجأت إلى عماد الدين زنكى لموازنتها. ولم

تنجح خططها فعاودت محاولتها ولجأت فى سبيل تحقيق هدفها إلى ضم الأمراء الصليبيين وهم وليم صاحب حصن صهيون الذى يبعد قليلا عن اللاذقية وجوسلين الثانى أمير الرها ويونز أمير طرابلس. وفى عام ١١٢٢/٥٢٧ علم فولك ملك بيت المقدس بمحولة الأميرة إليس للعودة إلى أنطاكية حيث أن إبنتها الأميرة كونستانس الطفلة وريثة أبيها المتوفى بوهيموند الثانى جعلتها تطمع فى تولى عرش انطاكية تحت أى ظرف، أسرع فولك إلى أنطاكية وتولى بنفسه الوصاية على الأميرة الطفلة كونستانس، وقد ترتب على هذه الخطوة قيام ثورة بين الأمراء الصليبيين فى الشمال يتزعمهم بونز أمير طرابلس. وبعد إتمام فولك اجراءات الوصاية فى انطاكية اتجه إلى الثوار لمواجهةهم ، وأسرع الأمير بونز بالانسحاب ثم إن فولك أعلن عفوهُ عما بدر من الثائرين ويادر بالعودة إلى مملكته فى بيت المقدس. ثم بدأ فولك فى إقامة الحصون والقلاع لتأمين طريق الحجاج بين يافا وبيت المقدس لحمايتهم من الهجمات التى يقوم بها المسلمون من عسقلان . وفى عام ١١٣٣/٥٢٨ شيد الصليبيون حصنا فى الطريق بين اللد وبيت المقدس وفى عام ١١٣٧/٥٣٢ أقام فولك قلعة بيت جبرين بين الخليل وعسقلان وجعل من الاسبتارية حماة لها.



لم يكن الصليبيون الكاثوليك القادمين من غرب أوروبا على وفاق مع الصليبيين الأرثوذكس من البيزنطيين أو من مسيحي الشرق. فعندما سقطت صور فى أيدي الصليبيين فى عام ١١٢٤/٥١٨ اختلف الصليبيون هل تتبع أسقفية صور بطريركية بيت المقدس أم أنطاكية، فقد كانت صور فى العهد

البيزنطى مركزا يشرف على أساقفة عكا وصيدا وبيروت وجبيل وطرابلس وانطرطوس . وكان هؤلاء الساقفة ومعهم رئيسهم فى صور يتبعون بربطك أنطاكية دون بيت المقدس .

فلما استولى صليبيو بيت المقدس على صور لم يقبل بطريرك بيت المقدس إلا أن تتبعه صور دون غيره. وقد انتهى الأمر بأن مملكة بيت المقدس ضمت إليها جميع القوى الصليبية فى بلاد الشام تحت نفوذها، أما الكنيسة الأرمنية فقد عملت على توحيد المسيحيين الشرقيين تحت سلطانها. كما أن البابا أنوسنت الثانى أدلى بدلوه فى المشكلة وساعد على حلها حلا موفقا.

الفصل السادس

القوى الإسلامية في الشرق الإسلامي

- * الطوائف المذهبية
- * الشيعة.
- * الموحدون (الدروز)
- * النصيرية (العلوية)
- * أهل الذمة
- * الموارنة
- * اليهود
- * عماد الدين زنكي والصحوة الإسلامية.
- * المسلمون والصليبيون في أرض الشام.

قام محمد بن ملكشاه سلطان سلاجقة فارس (٤٩٩-٥١٢/١١٠٥-١١١٨م) بتدعيم نفوذ الدولة السلجوقية، وجاهد في محاربة الصليبيين. فعندما عهد إلى أقسنقر البوسقى بحكم الموصل كلفه بالجهاد ضد الصليبيين فقام أقسنقر على رأس حملة عسكرية ضد الرها في عام ١١١٤/٥٠٨، وشاركه ابنه عماد الدين زنكى وتميرك صاحب سنجار فبدأ أقسنقر بالإستيلاء على ماردین من صاحبها إيلغازى ثم بعث إيلغازى بإبنه إياز لمرافقة أقسنقر لمهاجمة الصليبيين في الرها ولما تعذر إخضاعها إتجه بقواته إلى الضياع الصليبية المحيطة لسروج وسميساط . وعند ذلك بادر حاكم كيسوم ورعبان الأرمنى بالإنضمام إلى أقسنقر فى قتاله ضد الصليبيين.

لقد استطاع السلطان محمد السلجوقى أن ييسط نفوذه على الأمراء السلاجقة لمحاربة الصليبيين. وبعد وفاته فى عام ١١١٨/٥١٢ تولى مكانه فى السلطة ابنه محمود وهو فى الرابعة عشر من عمره ولكنه لم يبد إهتماما بالسلطنة وعهد بها إلى عمه سنجار شرف الدين أنو شروان الذى غفل عن الصليبيين وجعل همه إلى الشرق من الامبراطورية . كما أن سلاجقة الروم شغلتهما الخلافات الداخلية، وأهملوا أمر المسلمين بالشام.

لم تتمكن الخلافة العباسية من تشكيل جبهة إسلامية لدفع الخطر الصليبي عن بلاد الشام. ولما حاول الخليفة المسترشد العباسى (٥١٢-٥٣٠/١١١٨-١١٣٥) بناء جيش عباسى يواجه به الأعداء واجه من السلطان محمود السلجوقى معارضة قوية انتهت بقبول الخليفة الرجوع عن فكرته وأبدى اعتذاره وعادت الأحوال إلى الهدوء فى عام ١١٢٧/٥٢١.

وقد لحق الضعف بالدولة الفاطمية بعد مقتل الوزير الفاطمي الأفضل منذ رمضان عام ٥١٥هـ / أوائل ديسمبر ١١٢١ .

وفى أوائل القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي بداية الضعف الذي صارت عليه القوى الإسلامية من السلجوقية إلى الفاطمية والعباسية الأمر الذي مهد للصليبيين أن يعيشوا فترة من الهدوء والاسترخاء.



الشيعة: للشيعة في العالم الإسلامي دور خطير وخاصة في عصر الحروب الصليبية ، أثر في مجرى الأحداث مما يتعين معه إيضاح هذا الدور. والشيعة بمعنى الذين شايعوا عليا بن أبي طالب أمير المؤمنين وقالوا بإمامته وخلافته ، وأن الإمامه لا تخرج عنه وعن بنيه إلا بظلم، وأن عليا وذريته أحق الناس بالخلافة ويجمعهم القول بوجوب التعيين للإمام بالنص عليه ممن قبله وثبوت العصمة للأئمة عن الكبائر والصغائر . ويجمع الشيعة حب علي، ويختلفون فيمن سواه.

ومن الشيعة من يرى أن الإمام في الكمالات وهي الصفات الروخانية، نون النبي وفوق البشر. وهم يعتبرون الإمامة ركنا من أركان الإيمان. ومن الملاحظ أن الباطنية التي هي أساس الدعوة لطوائف الشيعة، وقد لزمهم هذا اللقب «الباطنية» لقولهم بأن لكل ظاهر باطنا ولكل تنزيل تأويلا. والمقصود بكل هذا هو القرآن الكريم والحديث فهو أشبه بالتفسير عند السنه وبالفقه. وقد دعوا الناس إلى إمام في كل زمان يعرف موازنات العلوم الدينية والمذهبية الشيعية يهتدى إلى مدارجها.

وهم فرق متعددة منها فرقة أولاد الحسن لأنه أكبر أولاد علي، وفرقه في أولاد الحسين لأن الحسن قد سلم الخلافة لمعاوية فأضاع حق أولاده. وفرقة جعلتها في محمد بن علي من غير فاطمة (محمد بن الحنفية) الإبن الثالث لأن الحق آل إليه بعد وفاة أبيه وأخويه. ففي مقدمتهم في الشام الشيعة الإسماعيلية وهم غالبية الشيعة في الشام. وهم القائلون بإمامة إسماعيل بن جعفر الصادق وأن الإمامة انتقلت إليه بعد أبيه. وهو التسلسل الذي نشأ منه الخلفاء الفاطميون في المغرب ومصر إلى الخليفة المستنصر بالله. وقد انتقلت الإمامة إلى المستنصر بالله الفاطمي (٤٢٧-٤٨٧هـ/ ١٠٣٦-١٠٩٤م). وهو الخامس من خلفاء الفاطميين في مصر وهو الثامن من أول نشأة الخلافة الفاطمية.

كذلك وأن أصل هذه الفرقة من أصل قرامطة البحرين ومنهم القرامطة الذين كانوا هم والفاطميون فرقة واحدة أول الأمر قبل الانشقاق في عهد الخليفة المعز فأرادوا أن يستأثروا بالشام من دون الفاطميين فهاجروا فيه وانتقلوا بقبائلهم إليه وزعيمهم الحسن بن بهرام القرمطي.

وبعد موت الخليفة المستنصر بالله الفاطمي عام ٤٨٧/١٠٩٤ انقسم الفاطميون على أنفسهم لقسمين وهم النزارية أنصار نزار بن المستنصر الأكبر، والمستعلوية أنصار المستعلي ابن المستنصر الأصغر، وقيل أن الزعيم الفارسي الحسن بن الصباح (ت ١١٢٤/٥١٨) طلب من المستنصر أن ينص على خلافة الإمامة فأنهم الخليفة أن نزار سيكون ولي عهده، ولكن بعد موت المستنصر تولى الخلافة ابنه المستعلي ولقب أبو القاسم أحمد (٤٨٧-٤٩٥ / ١٠٩٤-١١٠٢) وتمسك الحسن بن الصباح وأتباعه بإمامة

نزار - الذى لقب بالمصطفى لدين الله - وفاء لعهد المستنصر . فصارت الإسماعيلية الفارسية التى ببلاد المشرق (بأصبهان) تأخذ بمذهب النزارية، ونزار هو الأكبر وهو جد أصحاب الدعوة بقلعة الموت، دعوة ابن الصباح الذى مالبت أن انفصل عن الخلافة الفاطمية وأصبح له مذهب جديد (الدعوة الجديدة) وهو الذى أطلق مذهب الإسماعيلية رجوعاً للأساس لمذهب الشيعة وكون ابن الصباح فرعاً بالشام ضد المستعلوية.

وعلى العكس فإن غالبية الشيعة الذين هم بالشام فى أيام الفاطميين أخذوا بمذهب المستعلوية، ومما يؤيد صحة ذلك ما ذكره المؤرخون المعاصرون من أن الخليفة الفاطمى المستعلى بعث بكتاب إلى رضوان بن تتش السلجوقى فى عام ٤٨٩/١٠٩٥ بالدخول فى الطاعة فاستجاب رضوان وأعلن الخطية لنفسه والمستعلى فى حلب ودمشق.

وقد ذكر القلقشندى فى كتابه (صبح الأعشى) أن المستعلوية أنكروا إمامه نزار بن المستنصر وقالوا بأن الحق فى الإمامة والخلافة للمستعلى بالله، وأن من الضلال اتباع الحسن بن الصباح داعية نزار وأخذت الشيعة الذين هم بالشام بقلاع الإسماعيلية بمذهب المستعلوية وصاروا شيعة لمن بعد المستعلى من خلفاء الفاطميين واشتهروا باسم الفداوية لأنهم منذ الحسن بن الصباح وهذا أصبح إسمالهم. وهذا أمر طبيعى يبين وحدة القطرين مصر والشام فظهر حتى فى المذهب الشيعى لأن المستعلوية هى التى سادت مصر.

وما ورد هنا من أن الإسماعيلية فى الشام هم الإسماعيلية المستعلوية منقول عن كتاب (صبح الأعشى) للقلقشندى وهذا بخلاف ما ذكرته بعض

المراجع الحديثة التي تقول بأن اسماعيلية الشام هم الإسماعيلية
النزارية^(١).

وهكذا كانت إمامة المستعلى معترفا بها من الإسماعيلية في مصر
والشام باستثناء الإسماعيلية الفارسية التي لم تعترف إلا بإمامة نزار.

ويبدو أن التشيع بالشام قد أصبح من الضرورة أن يتميز ويعادى
التشيع الذي كان في مصر فالقرامطة كانوا يخالفون الفاطميين في الشام
وهذا هو السبب في انقسام التشيع دلالة منذ ذلك الوقت.

وبعد موت رضوان حاكم حلب السلجوقي عام ١١١٣/٥٠٧ تعرض
الإسماعيلية لسوء المعاملة لمنعهم من نشر دعوتهم في حلب ، ولكن لم يلبث
أن ظهر داعية فارسي آخر قدم من بغداد يدعى بهرام استطاع أن يستميل
أنصارا كثيرين خلال عدة أعوام قليلة واستطاع أن يحتل بانياس في سنة
١٢٢٦/٥٢٠.

ثم انتشرت الدعوة في دمشق وملكوا عدة حصون في الجبال عرفت
بقلاع الدعوة منها الخوابي والكهف في عام ١١٣٧/٥٢٢ والقدموس عام
١١٣٠/٥٢٥ ومصيف عام ١١٤٠/٥٣٥ م والمنيقة عام ١١٥١/٥٤٦ وصار
مقرهم في نواحي طرابلس التي أهم مدنها صهيون والمرقب وحصن الأكراد
حتى عصر صلاح الدين.

(١) انظر (العنوان الصليبي في بلاد الشام) لمؤلفه جوزيف نسيم يوسف القاهرة ١٩٧١، ص

وقد حاصر صلاح الدين الإسماعيلية فى مصاف فى عام ١١٧٦/٥٧٢ لمحاولة قتله لاختلاف المذهب والمنافسة فى الحكم وهذا يعنى أن الشام يريد ذاتيته، ثم عاد وانصرف عنهم بعد تدخل شهاب الدين خال صلاح الدين فى الصلح بينهم. وظلوا بقلاعهم بأعمال طرابلس.

وقد أورد ابن بطوطة - ت ١٢٧٧/٧٧٩ كثيرا من المعلومات عن حصون الفداوية فى الشام وأحوالها فى أيام المماليك - الذى رحل إلى الشام ومر بحصون الفداوية وهى القصر وأشغر بكاس وصهيون والقدموس والمنيقة فى العليقة ومصاف والكهف. وذكر أن هذه الحصون لطائفة الإسماعيلية وهم أيضا الفداوية . وذكر أنه لا يدخل حصونهم غيرهم. وأنهم فى عهد الملك الناصر الأيوبي (٦٤٨-٦٥٩ / ١٢٥٠-١٢٦٠) كانوا يحصلون على مرتبات نظير قيامهم باغتيال أعدائه، فضلا عن أن من يقوم بمهمة فداوية يكلفه بها السلطان يحصل على دينه مقدما، فإن سلم فالدية له، وإن أصيب فهى لولده. وأنهم كانوا يحملون سكاكين مسمومة لقتل من كلفوا بقتله. ومثلما فعل صلاح الدين أيام الأيوبيين بتأديب الفداوية ، فعل الظاهر بيبرس فى أيام المماليك نفس الشئ وهو تأديب الفداوية ولكن المماليك تمكنوا أكثر من الأيوبيين من بسط سلطانهم على الفداوية وإخضاعهم للسلطة المركزية فى مصر مما يدل على بقائهم زمن المماليك، فقد ذكر ابن بطوطة حصونا بإسمها بعضها قد اختفى الآن من خريطة الشام الحالية فى عصره وهى حصون مصاف والكهف والقدموس والعليقة والمنيقة وغيرها.

وفرض المماليك جزية عليهم يدفعونها بلغت مائة ألف درهم وقد سميت فى عهد المماليك جزية، مع أن الجزية خاصة بأهل الذمة يدفعونها لحمايتهم

وبقى إسمها كما هي بسبب أنهم كانوا ملتزمين بها لدى الصليبيين، وتحولت هذه القلاع الفداوية إلى قلاع تخدم نيابات الشام التي ورد ذكرها في التقسيم الإداري أيام المماليك ، ومنذ ذلك الحين صارت الإسماعيلية في الشام شيعة لمصر المملوكية.

وهم أيضا الحشيشية وهم فرعا من الاسماعيلية النزارية الشرقية ويسمون الفداوية الذين لعبوا دورا مهما في الحروب الصليبية حيث كانوا يحتلون الحصون الجبلية في الشام. وقد عرفت هذه الجماعة باسم الحشاشين. والأرجح أن هذا الاسم أطلقه عليهم الأعداء كما ذكر ابن الأثير الذي قال بان الحسن بن الصباح مؤسس هذه الفرقة كان رجلا شهما كافيا عالما بالهندسة والحساب والنجوم (وكان أيضا متشددا في تحريم الخمر وغيرهما من المفاسد فكيف يسمح لأعضاء فرقته بتعاطي الحشيش)^(١) وقد سماهم ابن خلكان باسم الفداوية، وأهم ما يميزهم أنهم (جماعة سرية يطيع أفرادها أئمتهم طاعة عمياء)^(٢).

وقد تمكن الحشيشية في عهد الأمير السلجوقي رضوان بن تتش الذي اعتنق مذهبهم من تثبيت أقدامهم في حلب لفترة ثم تمكنوا بقيادة بهرام وهو داعية فارسي حضر من بغداد إلى الشام أوائل القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي ليعمل على نشر الدعوة ببلاد الشام.

وقد استطاع بهرام وأعوانه احتلال بانياس عام ١١٢٦/٥٢٠ ثم فتحوا الحصون في شمال الشام نواحي طرابلس مثل كهف وقدموس وعليقة

(١) د. عبد المنعم ماجد، ظهور خلافة الفاطميين وسقوطها ص ٤٢٠

(٢) المقرئ، السلوك، ج١ ق٢، ص ٢٧٧، دائرة المعارف الإسلامية مجلد ٧ ص ٤٣٤

والخوابى، وكان على رأسهم شيخ الجبل ، ومن أشهر حكامهم راشد الدين سنان، وكان بقلع الدعوة فى عهد صلاح الدين. ولما سقطت قلعة الدعوة فى يد سلاطين المماليك صارت الحشيشية شيعة لمصر وملوكها.



الموحدون- الدرّوز: هم فرقة من الشيعة وهم الدرّوز يسمون أنفسهم أصلاً الموحدين وهم مبعثرون فى أماكن مختلفة من بلاد الشام وخاصة جبال لبنان وحران فى جنوب دمشق ، وعملهم الأصلى الزراعة واقتناء الأراضى، وقد كان بدء ظهور الدرّوز فى الشام فى عهد الحاكم الخليفة الفاطمى فى مصر (٣٨٦-٤١١هـ / ٩٩٦-١٠٢١) وحسب المذهب الفاطمى الذى ظهر رسمياً فى مصر فإن الحاكم هو خليفة فاطمى فى أوائل القرن الخامس الهجرى/ الحادى عشر الميلادى وبالأذات فى عام ١٠٢١/٤١١ قامت طائفة الدرّوز وهم من الإسماعيلية. ومن أشهر دعائهم محمد بن اسماعيل أنوشتكين الدرّزى الذى فسر طبائع وخصال حاشية الحاكم بأوصاف بأنها الإسماعيلية الحقّة التى ذكرت فى التّأويل ، وأنها نفس الإمامة التى أوردها التّزويل ، وأن ممثلاً هو النّبي الذى خلع الإمامة على الحاكم بدستور غير طبيعى متلبساً فى العقل الكلى.

ونتيجة لحدوث عدة اضطرابات فى عهد الحاكم، قام الحاكم بتكليف زعيم آخر هو حمزة بن على، ويعتبر حمزه المؤسس الحقيقى لمذهب الدرّزية، وإن كان اسمه الذى أطلقه على نفسه مذهب التوحيد. وقد بدأ حمزة رسالته أو ولايته عام ١٠١٧/٤٠٨ فى محيط الدرّوز وبعد موت الدرّزى فى عام ١٠١٩/٤١٠ حاول حمزة احتواء جميع الحركة تحت رايته، وكان مذهبه

واضحاً كالأصل عند مذهب الدرزي وهو الذي سمي أتباعه من الدرزية (الموحدين). وقد ألف حمزة أنظمة جديدة. وربما كانت القواعد التي فسر حمزة من المذهب الشيعي الفاطمي الذي دعا إلى تنظيمه قد تطورت في الشام بظهور أحوال شخصية يتعامل بها أتباعه، إذ أنه طالب باستقلال ديني متأسيا بالسنة وبالتأويل الإسماعيلي.

وبالرغم من ذلك فإن الدروز قبلوا من المذهب السني للإمام أبي حنيفة في حدود ما سمح به الحاكم مع بعض التعديلات. وقد شارك الدروز في الدفاع عن بلاد الشام. ومن أمثلة ذلك مشاركتهم المماليك في معركة مرج دابق شمال الشام ضد العثمانيين في ١٥١٦/٩٢٦ وقد أظهروا من الشجاعة والنجدة ما تقريه العيون. وينسب فيليب حتى الدروز إلى جماعات عرقية مختلفة من فرس وعرب.

أما شكيب أرسلان فإنه ينسب الدروز إلى قبائل بني معروف من القحطانية عرب الجنوب وينفي عن الدروز أنهم من أجناس مختلفة ويرى أنهم من عرب الجنوب لأن في لغتهم اصطلاحات تدل على ذلك بينما ذكر القلقشندي بني معروف عند ذكره لبني المنتفق أنهم من العدنانية يعني أنهم عرب خلص وليسوا عناصر وافدة على الشام غريبة عن جنس العرب. ويتصف الدروز بصفات تميزوا بها هي الولاء للجماعة، وحب الحرية والاستقلال والصبر على تحمل المكاره والشدائد.

على أن قبائل عربية مثل التنوخيين انضموا إلى الدروز وكانت هذه القبائل العربية مقيمة في جبال لبنان الساحلية حازا بين الصليبيين والمسلمين في دمشق وحلفاء للمسلمين



النصيرية (العلوية) : وهم من الشيعة الإسماعيلية سكنت في شمال لبنان في جبل النصيرية ويسمى الأنصارية وهو جزء من جبل لبنان وتمتد بلاد النصيرية شرقا حتى سهل حماه وحمص وحلب وشمالا حتى أنطاكية . ثم تمتد حتى حدود الأناضول . ويعرف النصيرية (بالعلوية) بينما اسمهم الأصلي (النصيرية) نسبة إلى مؤسس الطائفة النصيرية وهو الفقيه الشيعي محمد بن نصر الذي توفي عام ٨٢٦/٢٦٠م.

والنصيرية التي كانت تقيم في وادي التيم من أعمال بعلبك هي التي قتلت بهرام الداعية الإسماعيلية الذي خرج من بانياس في عام ١١٢٨/٥٢٢ واتجه باتباعه إلى وادي التيم من أعمال بعلبك وهضبة النصيرية، وحاصروهم وقتلهم ولكنهم هزموه وقتل بهرام في المعركة عام ١١٢٨/٥٢٢ وانسحب اتباعه بعد هزيمتهم إلى بانياس.

أهل الذمة : كان أهل الذمة قبل الإسلام معظمهم من العرب المنتصره على عقيدة مذهب مصر اليعقوبى وهو الذى يؤمن بالطبيعة الواحدة وأقليتهم من الموارنة . وكان على أهل الذمة أن يؤدوا الجزية فيؤمنون على أنفسهم وأسرهم ومالهم. ولكن عرب الشام مثل تغلب وهم من ربيعة من العدنانية عرب الشمال. وكانت النصرانية غالبية عليهم لمجاورة الروم على حدود الشام على المجرى الأدنى لنهر الفرات وكانوا يعفون من الجزية وأن النبي صلى الله عليه وسلم وضع القواعد لعرب الشام حين توجه إلى المدينة وفد من تغلب، وبعضهم مسلمون وبعضهم نصارى وعقد الرسول

لنصارى تغلب صلحا أبقوا فيه على دينهم على ألا ينصروا أولادهم. وفى عهد الخليفة عمر ذهب إليه وفد من تغلب عرب الشام ليضع عنهم اسم الجزية أنفة منهم وجعل الصدقة مضاعفة.

وقد عاش أهل الذمة فى بلاد الشام ومصر فى ظل الإسلام عيشة طيبة حتى عصر سلاطين المماليك وكانوا يلبسون أفخر الثياب ويركبون البغال والخيول المسومة، ويستخدمون فى المناصب الكبرى السلطانية ولدى أمراء المماليك، ثم تغيرت أحوالهم وصدرت الأوامر السلطانية فى عهد السلطان محمد بن قلاوون بمنعهم من العمل فى الدواوين أو لدى الأمراء المماليك ولا يركبون خيلا ولا بغالا. ولبس النصارى عمائم زرقا ولبس اليهود عمائم صفرا. ونشر ذلك الأمر من دنقله إلى الفرات، وطبق فى الآفاق وخاصة أهل دمشق فإنهم نفذوا هذا الأمر السلطاني على أهل الذمة بمنتهى الدقة.

وكان صدور هذا الأمر السلطاني فى عام ٧٠٠/١٣٠٠ وذلك عندما شاهد أحد الوزراء المغاربة - وكان فى زيارة للقاهرة - أحد النصارى ممطيا فرسا فى ميدان القلعة وجماعة من الناس يمشون حوله يلتمسون منه قضاء مصالحهم فى ذل وتضرع وهو لا يلتفت إليهم ولا يكلمهم ولكن ينهرهم ويحرض حراسه لابعادهم عنه. فانزعج الوزير المغربى من هذا المنظر وطلب لقاء السلطان فاجتمع معه السلطان، ثم طلب السلطان الأمراء وجمع مجلسا حضره رجال الدين من المسلمين وأهل الذمة ثم أصدر السلطان هذا القرار وكلفهم بتنفيذه.

أما الموارنة : فكان هو اهم لكان الدين مع الصليبيين حتى أن فرنسا هي التي عملت على قيام إمارة لبنانية مستقلة عن سوريا في عام ١٢٧٨/١٨٦١ والموارنة هم الكسروانيون وهم تركمان. وقد ذكر يوسف الدبس رئيس أساقفة بيروت الماروني الكسروانيين الموارنة بجبال لبنان غير تركمان كسروان الذين طردهم المصريون من جبل لبنان بعد اشتراكهم في ثورة منطاش التي انتهت بهزيمته وعودة الشام إلى مصر عام ١٢٨٨/٧٩١.

أما عن السريان الذين كانوا يسكنون في جبل لبنان فقد ذكرهم ابن خلدون في العبر فقال أنهم قد اندرسوا وانقطع أثرهم ثم استدرك فذكر أنه يقال أن السريانيين من أهل تلك الأجيال.

إلا أن القلقشندی ذكر أن السريان من بنى سوريا ولم ينسبهم إلى قبيلة. وقد ذكر يوسف دربان الذي كان نائب البطريرك الماروني في مصر السريان فقال السريان هم الموارنة الذين كانوا يسكنون جبل لبنان وهم الذين وصفهم أسقف صور بأنهم المؤمنين السريان الذين قدموا خدماتهم للفرنج عندما زحفوا على القدس بعد فتح أنطاكية وذكر أن شهادة اسقف صور يثبت أن هؤلاء المؤمنين السريان إنما هم الموارنة، لأن النواحي التي عددها هذا الاسقف والمؤرخ الجليل لم يكن يسكنها تلك الأيام غيرهم ممن يكن دعوتهم بهذا الاسم.

ومع تتبع تدخل الموارنة في سياسة الممالك يتضح أنها لم تكن ثابتة في اتجاه واحد. فقد كانوا منقسمين في سياستهم مع الممالك فكان بعضهم بحكم سكنهم في الشام يقبل المودة والتعاون وبعضهم بحكم عدائه ويغضبه كان يقف دائما موقف معاديا للممالك. وإزاء ما تقدم فإن

الموارنة كانوا جزءا من أهل الشام، ومعادين للمماليك فى معظم الأحوال لأنهم كانوا دائما فى نصرة الصليبيين بحكم الدين.

وكان ثمة أرمن فى أملاك المسلمين يخدمون الخلفاء، ولكنهم أسلموا مثل الأمير على الأرمنى الذى توفى عام ٨٦٢/٢٥٠م بعد توليته على أرمينية وأذربيجان بوقت قصير. وكان الأرمن يوجدون فى مصر بجيش الطولونيين. وفى منتصف القرن الرابع الهجرى/ العاشر الميلادى قام الأرمن الذين هاجروا إلى الأراضى البيزنطية بتعمير قيليقية وشمالى الشام بعد غزو الروم لها. وهاجر منها الأهالى من المسلمين.

وقد تمكن أساقفة الأرمن فى أنطاكية وطرطوس فى عهد خاجيك الأول ٣٢٦-٣٨٢ / ٩٧٢-٩٩٢ من تحسين أوضاع الأرمن بتلك الأراضى. ثم عمد بعض ولاية هذه المدن من الضباط الأرمن إلى تكوين إمارة أرمينية خلال الغزو السلجوقى لآسيا الصغرى.

وقد تعاون الأرمن مع الفاطميين فى مصر وكان بدر الجمالى الأرمنى الأصل قائدا للجيش المصرى فى الشام ثم صار وزيرا للفاطميين ٤٦٦-٤٨٧ / ١٠٧٣-١٠٩٤ ثم كثر عدد الأرمن فى مصر بتشجيع من بدر الجمالى. مثل بهرام الأرمنى الذى ولى منصب الوزارة الفاطمية وظل نصرانيا، وقد لقى هؤلاء الأرمن رعاية من بعض الخلفاء الفاطميين.

وكان بعض وزراء التفويض من الأرمن . وقد لعب هؤلاء الوزراء الأرمن دورا أساسيا كبيرا فى عصر الدولة الفاطمية. وقد تمكن الأتراك السلاجقة بعد معركة ملازكرد عام ١٠٧١/٤٦٤ من إنهاء سيطرة البيزنطيين

على أرمينية وإحلال التركمان ، واستقرارهم فى أرمينيا وكبادوكيا ومعظم مناطق آسيا الصغرى.

ولما ظهر الصليبيون فى أرض الشام تمكن الأرمن بزعامة ليو الكبير ملك الأرمن من اجتذاب عددا عظيما من الأرمن وظهرت قبايل قبايلية عام ١١٩٨/٥٩٥ حتى أطلق عليها أرمينية الصغرى فى عهد أحد الحكام الأرمن هو الأمير ملة الذى دخل الإسلام مضطرا بسبب صراع الأحزاب المناوئة له، وتحول عدد كبير من الأرمن إلى الإسلام.

وقد بسط نور الدين حمايته على هؤلاء الأرمن ثم ضعف الأرمن وانتقل ملكهم إلى سبيس الأرمينية المجاورة لحلب فى شمال الشام، وظلوا يؤدون الجزية للمسلمين حتى العصر الأيوبي. وكان مع الأرمن من الثغور المصيصة وأردن وطرسوس واستولوا عليها من الروم، وابقاهم عليها صلاح الدين.

ثم شقوا عصا الطاعة وقطعوا ما كانوا يؤدونه من المال وغدروا بالتركمان المجاورين لهم فحاربهم صلاح الدين وزحزحهم ورجعوا إلى ما كانوا عليه من أداء الجزية وحسن الطاعة وكان الأرمن فى شمال الشام حتى عصر سلاطين المماليك تارة يشقون عصا الطاعة وينضمون إلى الأعداء وتارة يسيرون على الطاعة وحسن الجوار .

وكان مع الأرمن من البلاد قبل عام ١٠٠٩/٤٠٠ من الثغور والعواصم إياس وأدنه والمصيصة وطرسوس وبغراس وبهسنى والدريسك وسيس قلعة الروم وغيرها. ومنعوا ما كانوا يؤدونه من الجزية .

وفى العصر المملوكى فى عام ٦٦٨ / ١٢٦٩ حارب الظاهر بيبرس الأرمن وانتزع منهم بغراس ويهسنى والدريسك وغيرها.

وفى عهد الأشرف خليل عام ٦٧١ / ١٢٧٢ فتح الأشرف خليل قلعة الروم، وكانت من أهم قلاعهم، وكان يقيم بها خليفة الأرمن وسماها قلعة المسلمين.

وفتح محمد بن قلاوون فى سلطنة الثانية ٧٣٨ / ١٣٣٧ قلعة إياس فى شمال الشام وكانت تابعة لنائب الشام المملوكى، ثم صارت إلى نائب حلب المملوكى وفتح طرسوس على ساحل البحر الأبيض وهى من أملاك الأرمن.

وفى عهد الأشرف خليل قامت حملة عسكرية بقيادة قشتمر المنصورى نائب حلب بفتح سيس وجميع بلاد الأرمن. وصارت بلاد الأرمن من يومئذ من البلاد الخاضعة لسلطان دولة المماليك.

أما مساكن الأرمن فى الشام نفسه فى أيام المماليك فكانوا فى حلب وفى جبال لبنان من مقاطعة كروان. واشتغلوا بالتجارة والصناعة والزراعة والرعى.

وأما اليهود : وكانوا يعيشون فى الشام فى مدن القدس وحلب وبيروت ودمشق وهم فرق ثلاثة : الربانيون والفراعون والسامرة. ولهم رئيس يقوم على أمور الدين لطائفته، وهى تماثل وظيفة البطريرك فى النصارى، ويليه الخزان ومهمته الخطابة والوعظ والإرشاد، والشليح صبور ويؤم اليهود فى الصلاة.

ولكل من الريانيين والقرائين تورا خاصة بهم وينفرد الريانيون بشروح موضوعه لفرائض التورا وتفريعات على التورا نقلوها عن النبي موسى ويصفون ما وقع من صفة الله في التورا، ويذكرون لهم تأويلا في الصفات الربانية.

أما القرائون فإنهم يقفون مع ظواهر نصوص التورا ولا يزيدون عليها فيذكرون أفعال الله علي ظواهرها . وهؤلاء الريانيون والقرائون ينكرون أن طائفة السامرة التي لها تورا تختلف عن تورا الطائفتين السابقتين في كثير من الأحوال ينكرون أن هؤلاء السامرة من اليهود.



عماد الدين زنكى والصحو الإسلامية : أدت الخلافات الداخلية التي قامت بين الأمراء السلجوقية إلى إهمالهم أمر المسلمين بالشام وصارت القوى الإسلامية السلجوقية والفاطمية والعباسية في حالة من الضعف. وقد أدرك الصليبيون ما أصبح عليه حال المسلمين من تفكك وضعف ترتب عليه أن قوى موقف الصليبيون وبدأوا في الضغط على أهل الشام وشنوا الغارات عليهم فتعرضت حلب لهجمات الصليبيين حيث هاجمها بوهيموند الثانى أمير أنطاكية وجوسلين أمير الرها : كما هدد بلدوين الثانى ملك بيت المقدس دمشق فى عام ٥٢٤هـ / ١١٢٩م.

وفى هذه الظروف القاسية ظهر عماد الدين زنكى بن قسيم الدولة أقسنقر الحاجب الذى خدم فى جيش السلطان ملكشاه السلجوقى حتى جعله أقرب القادة إليه، ثم منحه حلب عام ٤٨٥هـ / ١٠٩٢م.

أما عماد الدين زنكى فقد اشتغل بخدمة أتابك الموصل جاولى والبرسقى ثم وصل إلى حكم البصرة ثم كلفه السلطان محمود السلجوقى فى عام ١١٢٦/٥٢٠ بمهمة عسكرية ضد العباسيين انتهت بتقوية مركز السلطان محمود عند الخليفة المسترشد فى عام ١١٢٧/٥٢١ الأمر الذى دفعه إلى تولية زنكى أتابك الموصل وحلب فى نفس العام.

تولى عماد الدين زنكى قيادة الموصل ثم اتجه بقواته بعدها إلى نصيبين التى استولى عليه من الأراتقة، ثم اتجه إلى حران واستولى ليها. ثم رأى زنكى أن يعقد هدنة مع جوسلين أمير الرها حتى يتفرغ للإعداد بتقوية موقفه الداخلى أولاً.

اتجه زنكى إلى حلب التى سبق أن لجأ أهلها إلى السلطان محمود السلجوقى يلتمسون معه تعيين حاكم لها يمكنه الوقوف فى وجه الصليبيين وتهديداتهم لحلب.

وفى جمادى الآخر ٥٢٢/ يونيو ١١٢٨ دخلها زنكى ورحب به أهلها أيما ترحيب . وقد أوقف قدوم زنكى إلى حلب أطماع الصليبيين فيها لما عرف عنه من شجاعة وإقدام .

وبعد وفاة طغتكين أتابك دمشق فى صفر ٥٢٣/ فبراير ١١٢٩ أخذ زنكى فى وضع خطواته المستقبلية لتوحيد القوى الإسلامية فى الشام والعراق موضع التنفيذ فتزوج من خاتون بنت الملك رضوان بن تتش ملك حلب السلجوقى الأسبق لتقوية مركزه ثم اتجه بعدها إلى مقابلة السلطان محمود السلجوقى الذى منحه حق امتلاك الجزيرة والشام فى عام ١١٢٩/٥٢٤م.

وبعد عودة زنكى إلى دمشق عقد العزم على إعداد نفسه للجهاد ضد الصليبيين فى الشام، وقد تقدم الأمير خيرخان أمير حمص وسلطان بن منقذ صاحب شيزر وأعلنا ولاءهما لزنكى .

ولما ظهرت قوى الأراتقة المعارضة لازدياد نفوذ زنكى فى أرض الشام حين اجتمع حسام الدين تمرتاش بن إيلغازى صاحب ماردين وابن عمه ركن الدولة داود بن معين الدولة سقمان بن أرتق صاحب حصن كيفا وبقيّة الأراتقة فى ديار بكر فبلغ عدد قواتهم عشرين ألفا من التركمان والتقوا مع قوات زنكى عند سرجين بين ماردين ونصيبين فهزمهم زنكى فقوى ذلك من نفوذ زنكى فى البلاد الشامية كما توطدت علاقات زنكى مع الدولة العباسية وخاصة الخليفة العباسى المقتدى (٥٣١-٥٥٦هـ / ١١٣٦-١١٦٠م).



فى ربيع عام ٥٣٠ / نوفمبر ١١٣٥ أخذ زنكى يهاجم بعض الحصون الصليبية التى جعلها الصليبيون مراكز لشن الهجمات على بلاد الشام فى شرقى نهر العاصى. وتمكن من غزو (الآثارب) وزرنا وتل أفدى ومعرّة النعمان وكفر طاب واستولى عليها، ثم أخذ يعمل على إعادة الأهالى إلى تلك البلاد ورد أملاكهم إليهم. ثم بدأ بعد ذلك فى مهاجمة مدن شيزر وحمص وقنسرين . وفى خريف عام ٥٣٠/١١٣٥ عاد إلى مقر حكمه بالموصل.

وفى رجب عام ٥٣٠ / أبريل ١١٣٦ قام سيف الدين سوار نائب زنكى فى إمارة حلب بغزو أراضى أنطاكية حتى بلغت غزواته مائة قرية وقد وصل فى تلك الغزوات إلى اللانقية. ولما عاد إلى حلب بلغ عدد الأسرى الذين عاد

بهم سبعة آلاف أسير أو يزيد ومائة ألف رأس من الأنعام والخيل.

وفى عام ٥٢١ / ١١٣٦ هاجم الدمشقيون بقيادة بزواش مقدم العسكر إمارة طرابلس ، وجمع بزواش الدمشقى معه كثير من الغزاة المتطوعة ومن التركمان واشتبك بزواش عند قلعة صنجيل فى معركة مع الصليبيين الذين يقودهم بونز أمير طرابلس فى رجب ٥٢١ / أواخر مارس ١١٣٧ قتل بونز أمير طرابلس وأسر كثير من أتباعه من الصليبيين واستولى المسلمون على كثير من الغنائم.

وفى شوال عام ٥٢١ / يوليو ١١٣٧ سار زنكى إلى قلعة بعرين والتقى بالقوات الصليبية التى يقودها فولك ملك بيت المقدس والأمير ريموند الثانى أمير طرابلس الذى خلف بونز فى الإمارة وكانا فى طريقهما لمقابلة زنكى وهو يحاصر مدينة حمص بقصد توحيد الجبهة الإسلامية، وتقاتل المسلمون والصليبيون فانهزم الصليبيون وسقط منهم الفين من القتلى غير من وقع منهم فى أيدي المسلمين من الأسرى ومنهم ريموند الثانى أمير طرابلس واستولى المسلمون على كثير من الغنائم من الصليبيين. ولما أسرع الملك فولك بالهروب إلى قلعة بعرين، بادر عماد الدين زنكى إلى محاصرة الملك. وقبل أن تصل النجدات الصليبية التى استغاث بها الملك فولك تم عقد صلح بين المسلمين والصليبيين فى ذى الحجة ٥٢١ / أغسطس ١١٣٧ على فك الحصار عن الملك وجميع الأسرى ودفع فدية مقدارها خمسين ألف دينار فضلا عن استعادة المسلمين لبعرين والمراكز التى فى شرقى نهر العاصى وهى زردنا ومعرة النعمان وكفر طاب وقد تم هذا الاتفاق قبل أن تصل نجدة الصليبيين إلى بعرين ففاز المسلمون بالغنيمة وانهزم الصليبيون.

لقد استطاع عماد الدين زنكى أن يستولى على هذه الحصون بعد أن أحرز انتصارات رائعة على الصليبيين فى الاشتباكات التى وقعت بينه وبينهم وما زال عماد الدين زنكى ينتقل من نصر إلى نصر حتى استولى على الرها عام ١١٤٤/٥٣٩ التى كانت تشكل خطرا جسيما على المسلمين لوقوعها على خطوط المواصلات بين الشام والعراق وآسيا الصغرى حيث اتخذها الصليبيون قاعدة لشن هجماتهم على شمال العراق.

لقد كان لسقوط الرها آثار بعيدة المدى على المسلمين حيث أنها أول إمارة صليبية قامت فى الشرق، ولم يعد للصليبيين بعد سقوط الرها غير بلاد ساحلية. فصارت طرق المواصلات فى غير متناول الصليبيين. وأصبح المسلمون آمنون فى بلادهم .

ولما استفحلت قوة المسلمين فى شمال الشام بادر ريموند دى بواتيه أمير أنطاكية بالذهاب إلى القسطنطينية عام ١١٤٥/٥٤٠ يستنجد بالامبراطور البيزنطى وقد أعلن ولاءه وتبعيته للإمبراطور مانويل كومنين فوعده بمساعدته ضد المسلمين.

الفصل السابع

الحملات الصليبية من الثانية حتى السادسة

* الحملة الصليبية الثانية.

* موقعة حطين وانتصارات صلاح الدين في فلسطين.

* الحملة الصليبية الثالثة.

* الحملة الصليبية الرابعة.

* الحملة الصليبية الخامسة.

* الحملة الصليبية السادسة.

الحملة الصليبية الثانية (٥٤٢-٥٤٤/١١٤٢-١١٤٩)

قامت الحملة الصليبية الثانية ومن بعدها تتابعت الحملات الصليبية القادمة من غرب أوروبا، ولكن لم تستطع تلك الحملات الصليبية أن تحقق شيئاً يذكر . فالحملة الصليبية الثانية التي بشر بها القديس برنارد في عام ١١٤٦/٥٤١ من أجل استرجاع الرها التي استولى عليها عماد الدين زنكى في عام ١١٤٤/٥٣٩ من جوسلين الثانى انصرفت حين وصولها إلى الشرق عن هدفها إلى المنازعات الداخلية ثم حاول قائد الحملة لويس السابع ملك فرنسا وكونراد الثالث امبراطور ألمانيا للاستيلاء على دمشق فأخفقا في هذا أيضا وعادا أدراجهما دون أن يحققا الغرض الذى قاما من أجله وكانت النتيجة أن خابت الحملة تماما وأضرت بالقضية الصليبية إلى أبعد مدى.

فحين اتجهت هذه الحملة إلى دمشق رغبة في السيطرة على الطريق الداخلى إلى القدس إلا أن الحملة لم تستطع ان تصل إلى غرضها حيث أن سيف الدين غازى ونور الدين محمود إبنى عماد الدين زنكى هاجما الصليبيين بعنف وأرغموهم إلى العودة من حيث أتوا. ثم بدأ نور الدين يزيد من هجماته على الصليبيين وتابع سياسة أبيه في تأسيس جبهة إسلامية متحدة لدحر العدوان الصليبي .

وبعد وفاة نور الدين محمود، قاد صلاح الدين يوسف بن أيوب حركة قوية لتكوين جبهة إسلامية جمعت بين مصر والشام والعراق ثم أخذ في مواجهة الصليبيين في عدة معارك حربية. ولم يكتف أرناط أمير حصن

الكرك بأن يحارب المسلمين ويتربص بقوافلهم المارة بين دمشق والقاهرة عبر الطريق الذي يقع فيه حصن الكرك وإنما جهز حملة في عام ١١٨١/٥٧٧ قاصدا بها الجزيرة العربية بقصد العدوان على أهلها والمقدسات الإسلامية فيها.

وعند ذلك واجهته القوات الإسلامية بقيادة صلاح الدين التي تغلبت على تلك الحملة الصليبية، ثم وجه أسطولا حريبيا إلى شواطئ الحجاز فتصدى له العادل نائب صلاح الدين في مصر، فبعث بقوات تصدت للقوات الصليبية في شمال ينبع وفرقت جمعها ووقع كثير منهم في الأسر وفر أرناط ورجاله منسحبين. ولما بالغ أرناط في عدوانه على القوافل الإسلامية المارة بحصن الكرك ، أقسم صلاح الدين بن يقاتله بالسيف أنى وجده. وشرع صلاح الدين في الإعداد لحملة عسكرية ضد الصليبيين، بعد أن وصلت الإمدادات العسكرية من مختلف الأنحاء.



انتصار صلاح الدين في فلسطين (موقعة حطين)

وفي جمادى الأولى عام ٥٨٣/ يوليو ١١٨٧ كانت الدعوة إلى الجهاد قد جمعت أكبر جيش قادة صلاح الدين في حياته وعلى رأس هذا الجيش الضخم عبر نهر الأردن وانقض على شمال فلسطين واستولى على طبرية وأصبحت بيت المقدس الآن خطوط مقطوعة عن أى أمل فى تلقى تعزيزات من طرابلس وأنطاكية. وواجه الصليبيون الإختيار الصعب. إما أن يخرجوا للقتال بشروط صلاح الدين وإما أن يبقوا فى بيت المقدس وينتظرون

حصاراً . أشار معظم فرسان ملك بيت المقدس بالانتظار فى العاصمة حتى يبدأ جيش صلاح الدين الضربة الأولى، ولكن عندما وصمه رينولد بالجبن وافق على خلاف رأيه الصائب على الخروج لمحاولة استرداد طبرية . ما كان يمكن أن يقع بأحسن من هذا فى أيدي صلاح الدين. فبدلاً من أن يخطر السلطان إلى مواجهة الجزء الأكبر من القوات الصليبية فى مدينتهم الحصينة أمكنه الآن أن يختار ساحة المعركة.

كان الموقع الذى وقع عليه الإختيار قريباً من حطين وهى قرية تقع فى التلال المحيطة بطبرية وكانت حطين بمروجها الخضراء وبوفرة الماء المتاح لها من بحيرة طبرية، أمدت المسلمين بفائدة وبمعنوية عالية وعسكرية فى نفس الوقت ضد الصليبيين فحرارة الصيف الشديدة، وطول المسافة للوصول إلى طبرية تحرم الصليبيين من فرصة الحصول على الماء حيث يتعذر عليهم الوصول إلى الماء دون الاحتكاك بالأعداء.

حاول الصليبيون إجراء تعديل فى موقفهم بالإتجاه إلى الهضبة الجافة التى بين القرية وتل مكور خلفها ويعرف باسم قرون حطين واستقروا فى هذا الموقع فى ٢٣ ربيع الآخر ٥٨٢ / ٣ يوليو ١١٨٧ وأراد الصليبيون اختراق خطوط قوات المسلمين بقيادة صلاح الدين ثم انتهى الرأى بهم إلى أن يبقوا ليلة للاسترخاء فى موقعهم أولاً وظلوا يترقبون المسلمين الذين ينشدون ويذكرون البطولات الإسلامية السابقة ضد الأعداء، ثم أخذوا فى إشعال النيران فى الشجيرات الصغيرة الجافة حول الهضبة ، فحولت الرياح الدخان المنبعث من النار إلى خيام الصليبيين المرابطين بجوار القوات الإسلامية فأصابهم بالاختناق وصعوبة الإبصار.

وعند أول النهار أسرع المسلمون بالهجوم على الصليبيين، وعلى الرغم من المقاومة الصليبية إلا أن حالة العطش وحرارة الجو دفعت بالصليبيين إلى التراجع والتخاذل فانسحبوا عائدين إلى القرون والمسلمون وراءهم يرمونهم بالسهام ويضربونهم بالسيوف حتى أتوا على خيمنتهم، ثم التقوا حولهم فأسرع الناجون منهم بالفرار وسقط عشرات الألوف قتلى فى ساحة المعركة ووقع ملك بيت المقدس رينولد فى الأسر فاستقبلهم صلاح الدين فى خيمته وقدم الماء ليشرب الملك فشرب ثم قدم الماء إلى رينولد فقال السلطان صلاح الدين للملك أنه قدم له الماء وليس لغيره الذى لن تكون له حصانه الضيف، ثم وجه السلطان اللوم إلى رينولد يذكره بغدره بالمسلمين وبأعمال القرصنة ثم ضربه بسيفه فقتله فارتعد الملك ولكن السلطان صلاح أعطاه الأمان ثم أعلن السلطان العفو عن جميع الأسرى من الصليبيين، وأمر بعودة غالبيتهم إلى بيوتهم.

ثم بدأ السلطان صلاح الدين فى جهاد الصليبيين فى أنحاء فلسطين ففتح عكا بغير قتال وسلمت نابلس بعد قليل مقاومة ثم أقدم العادل أخو صلاح الدين بفتح يافا ثم فتحت صيدا وبيروت وجبيل وبقيت طرابلس فى يد الصليبيين حيث سبق الاتفاق سرا بين المسلمين وصليبي طرابلس على التزام طرابلس الحياد ووفى المسلمون بالميثاق المبرم بين الطرفين فلم يتعرضوا لطرابلس بأذى.

ولم تستسلم صور وقاومت فتركها صلاح الدين واتجه بجيوشه شمالا. ثم إلى الجنوب. وفى الجنوب فتحت عسقلان ثم غزة وبيت لحم. وبذلك تمكن صلاح الدين من السيطرة على الساحل الصليبي بأجمعه من

الشام إلى مصر.

وفى شعبان عام ٥٨٢ / ٢٠ سبتمبر ١١٨٧ ظهر المسلمون أمام بيت المقدس وظلوا يحاصرونه مدة خمسة أيام ثم بدأوا فى مهاجمته من الناحية الشمالية واستخدموا المجانيق لهدم الأسوار وقوضوا التحصينات من أسفل وظلت المقاومة مستمرة من الداخل ثم تمكن المهاجمون من تحطيم التحصينات وشرعوا يدخلون إلى الصليبيين فتقدم هؤلاء بإعلان استسلامهم للمسلمين بشروط وبعد مفاوضة بين صلاح الدين وحاكم بيت المقدس قبل صلاح الدين بشروط الصليبيين. مقابل فدية يدفعونها قدرها عشر قطع ذهبية عن كل رجل وخمس عن كل امرأة واثنين عن كل طفل يدفعها الصليبيون فى أربعين يوما

وهكذا عادت القدس إلى المسلمين بعد ثمانية وثمانين عاما من الاحتلال الصليبي وأنزلوا الصليب الذهبى الذى نصبه الصليبيون فوق قبة الصخرة وأعيدت الآثار الإسلامية إلى أصحابها. ثم أعلن صلاح الدين أن ارواح المسيحيين وممتلكاتهم فى حماية المسلمين. فلم يتعرض أحد للمسيحيين بأذى.

ولما لم يجد المسيحيون الأموال اللازمة لدفع الفدية ثم الإفراج عن ألف منهم بشفاعة العادل أخى صلاح الدين ثم أطلق صلاح الدين سراح المتزوجين والأرامل والأيتام.



أحدث استيلاء المسلمين على بيت المقدس وفلسطين رد فعل مجنون في غرب أوروبا. وعلى الفرر قامت الحرب الصليبية الثالثة (٥٨٥-٥٨٨/ ١١٨٩-١١٩٢) التي قادها أكبر ملوك الغرب الأوربي فأبحر فردريك بربروسا ملك المانيا ، وريتشارد قلب الأسد ملك إنجلترا وفيليب ملك فرنسا. ولم يكن يوجد لهذه الحملة نظام مركزي للقيادة . فقد سار كل فريق بجيشه في طريق منفرد بغير تنسيق مع الآخرين.

وانحرف ريتشارد ليفتح قبرص. أما فردريك بربروسا فقد جاء عبر البلقان مما أوقعه في مأزق مع السكان المحليين، ولقى من الأتراك السلاجقة في اسيا الصغرى أشد المضايقات ثم انتهى أمر فردريك بسقوطه غريقا وهو يعبر نهرا في كيلىكية. ونتج عن ذلك تأجيل الهجوم الصليبي. وأخيرا وصل الألمان إلى أرض الشام في عام ٥٨٥ / منتصف ١١٨٩ م.

استخدم الصليبيون ميناء صور التي لم يستولى عليها المسلمون وجاءت القوات والإمدادات الصليبية عن طريق صور ثم حاصر الصليبيون عكا بحرا. وعلى الرغم من وصول الإمدادات والسفن من مصر تتخطى الحصار وتقدم الطعام للحامية حتى صمد المدافعون بها ثلاثة وعشرين شهرا إلا أنها استسلمت في رجب ٥٨٧ / يوليو ١١٩١ بشروط قبلها ريتشارد ملك إنجلترا ثم عاد ونكث على عقبيه ورفضها.

وهكذا كانت عكا وصور في يد الصليبيين وحاول ريتشارد أن يستولى على يافا وعسقلان إلا أنه خشى الهزيمة أمام استبسال صلاح الدين والمدافعين معه. وحاول الطرفان التفاوض لفض المنازعات دون قتال بينهما

ولكن فشلت المفاوضات وعادوا إلى القتال فى جمادى الأولى عام ٥٨٨/ مايو ١١٩٢ حين تقدم ريتشارد نحو بيت المقدس، ثم انسحب مسرعا تجنباً للهزيمة أمام صلابة وقوة صلاح الدين.

وفى شعبان عام ٥٨٨/ سبتمبر ١١٩٢ عقدت صفقة تنازل المسلمون عن الساحل من صور إلى يافا وتشمل حيفا وقيسارية وعكا وظلت بقية فلسطين بين المسلمين. واعيدت عسقلان التى بادر المسلمون بتدمير منشأتها العسكرية حتى لا يعود الصليبيون إلى استردادها ثانية وهى قريبة من حدود مصر وتقرر السماح للحجاج من المسلمين والمسيحيين بحرية الأماكن المقدسة بما فيها بيت المقدس. وهكذا ظل الصليبيون بعيدين عن متناول بين المقدس بأذى. وبإستيلاء المسلمين على عسقلان زال الخطر الصليبي عن مصر.

وفى صفر عام ٥٨٩/ مارس ١١٩٣ نوى السلطان صلاح الدين ودفن فى القلعة المجاورة للجامع الأموى الكبير بدمشق. مات صلاح الدين بعد أن وجد العالم العربى من النيل إلى دجلة ضد الخطر الصليبي. لقد وجه صلاح الدين إلى الصليبيين ضربة لم يفيقوا بعدها وجعل للعرب قوة يحسب لها حساب فى العالم أجمع.



لم ترض البابوية عن نتيجة الحرب بين السلطان صلاح الدين وريتشارد قلب الأسد ورفاقه. فقد استعار بيت المقدس فأعد الصليبيون أنفسهم للحملة الصليبية الرابعة فى عام ١٢٠٢/ ٦٠٠ وجعلوا هدفهم

الرئيسى للحملة مصر. وقد دبر الصليبيون خطة لغزو مصر مباشرة لكن الحركة الصليبية انحرفت عن أهدافها الرئيسية حيث تغلبت المصالح التجارية على الصالح الدينى واستطاع البنادقة أن يحولوا وجهة هذه الحملة التى تحولت من مجاهدين إلى عصابات ناهبة استقر زعمائها فى القسطنطينية (٦٠١-٦٦٠/١٢٠٤-١٢٦١) واقتسموا أشلاء الدولة البيزنطية فيما بينهم ونبذوا فكرة الحرب المقدسة وسيطرت عليهم الأطماع الشخصية والمصالح المادية وفشلت السياسة البابوية الخارجية وضاع الدافع الدينى بين غالبية المسيحيين.



ولم يئأس بابا روما على الرغم من تلك النهاية المأساوية التى دفعت بالصليبيين إلى دخول بيزنطة المسيحية ليعثوا فيها فسادا ويعتدوا على كنائسها وأهلها. وعاد البابا يدعو إلى الحملة الصليبية الخامسة التى قادها جان دى برين (٦١٥-٦١٨/١٢١٨-١٢٢١). „

وفى عام ١٢١٨/٦١٥ اتجهت الحملة الصليبية الخامسة إلى مصر وهاجموا دمياط فنصبوا معسكرهم على الضفة الغربية للنيل فى مواجهة المدينة. ولو أنهم اتجهوا للجهة الشرقية للنيل لسهل عليهم العبور إلى الداخل. ولكنهم جرهلوا أرض مصر ثم قاموا بحصار دمياط. وبعد حصار تسعة أشهر سقطت دمياط فى أيدي الصليبيين. ولو أنهم واصلوا السير بعدها إلى القاهرة دون توقف لتغير الموقف لصالح الصليبيين تماما إلا أنهم ظلوا فى دمياط شهورا دون أن يحركوا ساكنا حتى جاء شهر جمادى

الآخرة ٦١٨هـ / أغسطس ١٢٢١م فبدأوا يتحركون فى اتجاه القاهرة عبر النيل. ولجّهم بطبيعة البلاد اتجهوا فى السير فى النيل فى شهر الفيضان حيث حرارة الجو العالية وهنا أسرع السلطان الكامل الأيوبي بقطع السدود ففتحت الترغ من كل مكان وفوجئ الصليبيون وقد غمرتهم مياه الفيضان من كل ناحية فاستغاثوا بالسلطان الكامل يطلبون الصلح. ثم عادوا إلى بلادهم تصاحبهم خيبة الأمل وذل الفشل وعادت دمياط لأهلها.



لم تكد تستقر الأحوال فى مصر حتى أعد الصليبيون أنفسهم للحملة الصليبية السادسة بقيادة الامبراطور الألماني فردريك الثانى (٦٢٦هـ / ١٢٢٨م) . وقد انتهت تلك الحملة بمعاهدة سلمية فى عام (٦٢٨ / ١٢٣٠) مع الكامل محمد سلطان مصر حصل بمقتضاها فردريك الثانى على بيت المقدس دون حرب أو قتال. وذلك أن الملك الكامل لم يكن على وفاق مع أسرته فى الشام، وهذا ما دفعه إلى استخدام المفاوضة مع فردريك الثانى حتى يؤمن نفسه من الأخطار المحدقة به من جانب أسرته التى تنازعه العداء فى الشام.

الفصل الثامن

الحملة الصليبية السابعة

أن نجاح الامبراطور الألماني فردريك الثانى فى الحصول على بيت المقدس دون حرب أو قتال، كان نذيرا بفقدان اللاتين لبيت المقدس وعودته إلى حظيرة الإسلام إلى الأبد وذلك أن الامبراطور الألماني لم يقم فى بيت المقدس، وإنما أهمل أمره ورحل عنه إلى بلاده

على أن هذا الاتفاق لم يرض للمسلمين ولا الصليبيين واسترد المسلمون بيت المقدس فى عهد الملك الصالح بن الكامل. (٦٣٧-٦٤٧/ ١٢٤٠-١٢٤٩) حيث قامت معركة عند غزة فى عام ٦٤٢-١٢٤٤ بين قوات دمشق وحمص والفرنج من ناحية وبين العسكر المصرية والخوارزمية من ناحية ثانية انتهت بانتصار المصريين والخوارزميين انتصارا باهرا على قوات الشام والفرنج وأخذوا الأسرى إلى القاهرة، ثم اتجهت القوات المنتصرة بعد أخذ غزة إلى بيت المقدس واستولت عليه فى نفس العام. ثم اتجه المسلمون إلى باقى ممتلكات الصليبيين طبرية وعسقلان واستولوا عليها فى عام ٦٤٥ / ١٢٤٧م.

وقد ترتب على استعادة بيت المقدس إلى تجمع حملة صليبية جديدة هى الحملة الصليبية السابعة التى تزعمها لويس التاسع ملك فرنسا، لقد قامت حملة لويس التاسع للاستيلاء على بيت المقدس عن طريق القضاء على مصر.

لقد خرجت الرسل من الشرق إلى الغرب الأوربى تلتمس النجدة فاتجه كل من واليران اسقف بيروت وألبرت دى رزاتو بطريرك أنطاكية إلى أوروبا.

وفى منتصف عام ٦٤٣ / منتصف ١٢٤٥ م عقد المؤتمر الكنسى من

ليون بفرنسا برئاسة البابا أنوسنت الرابع وتعرض المؤتمر لمسألة فلسطين فتكلم واليران اسقف بيروت وذكر المصائب التي لقيها الصليبيون من اللاتين فى أرض فلسطين وفقدهم ممتلكاتهم فى الشرق. وتكلم آخرون غيره.

فقام البابا وأعلن تشجيعه للدعوة الصليبية وطالب الجميع بالإشتراك فى الحملة الصليبية إلى الشرق وأعلن أن كل من يحمل الصليب ينال الغفران التام من خطاياہ وذنوبه. ثم بعث البابا بمندوبه ليقوم بدوره فى التبشير بالحملة فى فرنسا وفعل مثل ذلك واليران أسقف بيروت فى أنحاء أوروبا. وقد شارك كثير من الفرنسيين فى الحملة فاق عددهم عن غيرهم ممن قدموا من أنحاء بلدان أوروبا.

وفى عام ١٢٤٥ / ٦٤٥ عقد الملك لويس التاسع مجمعا كبيرا حضره مندوب البابا وكبار رجال المملكة ورجال الدين. وقام الملك الفرنسى وخطب فى الحاضرين يحثهم على قيد اسمائهم فى سجل الحرب المقدسة، وبدأ بنفسه فتبعه الكثيرون وأولهم إخوته الثلاثة روبرت كونت أرتوا وشارك كونت أنجو وألفونس كونت بواتييه وجوا نقيل مؤرخ الحملة السابقة وفارسها.

ثم أخذ الملك يستعد للحرب فجهز اسطولا كبيرا لنقل الجنود والعتاد متجها إلى الشرق كما أحضر مجموعة من السفن من جنوة ومرسيليا لنفسى الهدف وجمع كمية كبيرة من الذخيرة والمؤن فضلا عن اتفاق مع جزيرة قبرص لد الجيش الصليبي بكل ما يحتاجه من المواد الغذائية والمشروبات بأنواعها عند مرور الجيش فى طريقه إلى الشرق.

وقبل البدء فى الرحيل من فرنسا، اتخذ الاجراءات اللازمة لترتيب

شؤون المملكة فجعل أمه الملكة بلانش نائبا عنه فى حكم البلاد وجميع البارونات وكبار رجال الدولة فأقسموا يمين الطاعة والولاء ومراعاة حقوق الملك والمحافظة على العرش والإخلاص لعائلة الملك فى مدة غيابه خارج البلاد.

ظل الملك لويس يعد الأمر بنفسه مدة ثلاث سنوات ومن باريس اتجه الملك إلى ميناء أجمورت جنوبى فرنسا فى صفر ٦٤٦هـ / يونيو ١٢٤٨م ومعه زوجه مرجريت وأخواه أنجو وكونت أرترا وت خلف أخوه كونت بواتيى للحاق به فيما بعد وحاشية كبيرة من الصليبيين.

وفى ربيع الآخر ٤٦٤ / أغسطس ١٢٤٨ سافر الجميع واجتمعوا معا فى قبرص وقد رحبت الجزيرة بالصليبيين الذين ظلوا فى الجزيرة نحو ثمانية أشهر، وقد ترتب على هذا البقاء الطويل فى الجزيرة نفاد المؤن والأموال كما تسربت الأخبار الصليبية إلى مصر فقام سلطان مصر بالإعداد الجيد للمواجهة. واهتم بتحسين مدينة دمياط بالجنود والمؤن والذخيرة.

ففى ٣ صفر عام ٦٤٧ / ١٨ مايو ١٢٤٩ وصل السلطان الصالح نجم الدين أيوب إلى أشمووم طناح قادما من الشام بعدما وصلت أخبار الحملة لمواجهة الصليبيين عند وصولهم إلى دمياط. وقام بتحسين دمياط وأعد لذلك عدته تماما.

ثم بعث السلطان إلى الأمير حسام الدين بن أبى على نائبه بالقاهرة ليجهز قطع الأسطول ويزودها بالعدد وبالمقاتلة. وبعث أيضا الأمير فخر الدين يوسف بن الشيخ مقدم العسكر إلى البر الغربى لدمياط ومعه جيش

كبير لمواجهة الحملة الصليبية عند وصولهم إلى الشاطئ ليصدهم عن النزول في الأرض المصرية.

وفي صفر عام ٦٤٧ / ١٢ مايو ١٢٤٩ بدأت الحملة الصليبية في الرحيل من ميناء اللمسون متجهة إلى مصر في ١٨٠٠ سفينة وخمسين ألف مقاتل بين فرسان ومشاه. وفي منتصف ٢٠ صفر عام ٦٤٧ / ٤ يونيو ١٢٤٩ وصل الأسطول الصليبي إلى الفرع الشرقي للنيل، وأرسى بالبر الغربي تجاه دمياط. وقد أحيطت بمدينة دمياط الأسوار والأبراج وأقيم عند المدخل لفرع دمياط برج ضخم جهز تماما بالمقاتلة وبالسلاسل الحديد التي امتدت منه إلى البرج المقابل على شاطئ دمياط لحجز سفن العدو ومنعه من العبور إلى النيل للوصول إلى المدينة.

لقد جعل الصليبيون من دمياط هدفا لهم لمركزها الهام في مختلف النواحي الجغرافية والتجارية والصناعية فضلا عن قربها عن غيرها من الموانئ إلى بيت المقدس الهدف الرئيسي للحملة الصليبية. كما أن ميناء دمياط يوصل إلى العاصمة المصرية القاهرة الرأس المدبرة للعرب والمسلمين في الصراع ضد الصليبيين.

وفي اليوم التالي لوصول الصليبيين في السبت ٢١ صفر ٦٤٧ هـ / ٥ يونيو ١٢٤٩م استقر رأي الملك وكبار القادة على النزول إلى البر الغربي لدمياط فوجدوا مياه الشاطئ ضحلة لا تسمح لسفنهم بالعبور مما اضطرتهم إلى تركها في عرض البحر واستخدموا قواربهم الصغيرة وقذفوا بأنفسهم في الماء يقودهم الملك لويس التاسع.

حدث هذا فى نفس الوقت الذى رابطت فيه القوات المصرية يقودها الأمير فخر الدين، ومعهم عدد من السفن الحربية المستقرة عند فم النهر لصد الفرنج ومنعهم من النزول وقد أخذ الجنود يقذفون المهاجمين بالسهام والرماح ولم تمنع السهام لويس التاسع وجنوده من النزول وأخذت القوتان تتقاتلان من الصباح حتى الظهيرة ثم استصاع الفرنج أن ينتصروا على المدافعين وقد استشهد الكثير من المسلمين.

أرسل الأمير فخر الدين يبلغ السلطان الصالح نجم الدين بأخبار الحملة فى دمياط دون تلقى ردا على رسائله ولدوافع شخصية رحل فخر الدين من الشاطئ الغربى وعبر الجسر بجنوده إلى الجانب الشرقى من دمياط وأعطى الفرصة للملك لويس الذى عبر بجنوده إلى المدينة مستخدما الجسر الذى يربط بين الشاطئين حيث غفل الأمير فخر الدين عن تحطيمه بعد عبوره إلى الجانب الشرقى.

وقد اضطربت أحوال دمياط وخشى الأهالى على أنفسهم فأسرعوا بالخروج من المدينة متجهين إلى أشمون طنّاح ومنها إلى القاهرة وتحملوا أشد الصعاب فى سبيل الوصول إلى القاهرة. كما أن عرب بنو كنانة لم يروا أن البقاء يفيدهم شيئاً بعد انسحاب جنود السلطان منها. وفى ٢٢ صفر/ ٦ يونيو اتجه المهاجمين إلى دمياط ودخلوها وهى خالية من الجيش ومن الناس وصارت دمياط فى أيديهم دون قتال. وترتب على سقوط دمياط اضطراب الأحوال فى البلاد.

لم يجزع السلطان الصالح نجم الدين مما حدث وبادر بالانسحاب من

أشموم طنّاح متجها جنوبا إلى المنصورة، التى يقع النيل غربها ويحر
أشموم شمالها. وفى ٢٤ صفر ٦٤٧/ ٨ يونيو ١٢٤٩ بدأ السلطان فى
تحصين المدينة فأصلح السور الذى يحيط بها من البحر ثم أقبلت السفن
الحربية وقد أعدت لقتال الصليبيين حيث استقروا ناحية السور ورتب
السلطان الصالح أيوب المطوعين والعربان.

وبعد أن استقر الصليبيون فى دميّاط قاموا بتحويل جامعها إلى
كنيسة كاثوليكية وأطلقوا عليها اسم كنيسة مريم العذراء وجعل المندوب
البابوى أسقفًا لاتينيا للكنيسة، وعند اقتسام الغنائم اختلف الصليبيون
ودبت الفوضى بينهم مما مهد لفشل الحملة فيما يلى ذلك من خطوات. فقد
استمرت الحملة مدة خمسة شهور وأكثر دون التفكير فى التحرك لاستكمال
انتصاراتهم التى حققوها ضد المسلمين. وقد تراضى الجنود وانشغلا باللهو
والمرح حتى دب الخلاف بين الجنود.

أحس المسلمون بما يجرى فى معسكر الأعداء فبدأوا فى شن
الغارات عليهم وأخذ الفدائيون من العرب والمصريين يهاجمون معسكر العدو
وعملوا على إزعاجهم ومنعهم من الاستقرار والراحة وصاروا يقتلون فيهم
ويأسرون. وكانوا يتحيلون فى إختطاف الفرنج بكل حيلة ولا يهابون الموت.

وظل الأمر على ذلك حتى شهر رجب من عام ٦٤٧/ أكتوبر ١٢٤٩
وفى رجب عام ٦٤٧/ أكتوبر ١٢٤٩ حضر إلى دميّاط الفونس كونت بواتيه
يقود نجدة للحملة الصليبية، وهنا أمر الملك بعقد اجتماع أقروا فيه باتجاه
الحملة الصليبية جنوبا إلى القاهرة. وفى ١٢ شعبان ٦٤٧/ ٢٠ نوفمبر

١٢٤٩ بدأت الحملة فى السير متجهة إلى القاهرة.

فى ١٤ شعبان / ٢٢ نوفمبر من نفس العام مات الصالح أيوب فأخفت شجرة الدر أرملة السلطان خبر موت السلطان حتى ينتهى الموقف الصعب الذى تمر به البلاد فى أمان. وبقى الأحوال كما لو كان السلطان حيا لم يمت. ثم بعثوا إلى المعظم توران شاه فى حصن كيفا لتولى الحكم خلفا لأبيه الملك الصالح أيوب .

وأسندت قيادة الجيوش وتدير شؤون المملكة إلى الأمير فخر الدين يوسف. وقد أقر الأمراء جميع هذه الخطوات باعتبار أنها فى مصلحة البلاد.

وفى ١٤ رمضان / ٢١ ديسمبر وصلت الحملة إلى شمال بحر أشموم تجاه جيش المسلمين ويفصل بينهما البحر فأقامت معسكرا على الضفة الشمالية للبحر مواجهها لمعسكر المسلمين فى الضفة الجنوبية الذين رابطوا وصاروا عقبة ضد الحملة دون التقدم جنوبا.

ولما حاولت الحملة إقامة جسر للإلتقاء بالمصريين فى الناحية المقابلة تعذر عليهم ذلك، حتى تمكنوا بوساطة بعض الخونة ممن لاخلق لهم من اكتشاف مخاضة فى بحر أشموم يسهل على الفرسان عبورها خفية دون أن يشعر المسلمون بهم.

وفى ٤ ذى القعدة/ ٨ فبراير ١٢٥٠ عبرت جيوش الحملة المخاضة وفاجأت الجيش الإسلامى من حيث لم يتوقعوا وكبدتهم خسائر فادحة فى

الآرواح ودفعتهم إلى الفرار إلى داخل المنصورة. ووصلت الأخبار إلى الأمير
فخر الدين فاشتبك مع العدو وسقط شهيدا في المعركة.

وكان يقود جيش الحملة الكونت أرتوا الذي كان عليه الإنتظار لقدم
بقية الحملة إلا أن أرتوا تعجل واندفع إلى داخل المنصورة، ففاجأه القائد
المملوكي ركن الدين بيبرس البندقداري وفاجأ رجال مقدمة جيش الحملة
الدين دخلوا المنصورة يقودهم أرتوا فطاربهم من بيت إلى بيت فاجتمع
انسكان على المهاجمين وبدأوا في رميهم بالحجارة من الأسطح والنوافذ
وقذفوهم بالسهم والحجارة والرماح حتى سقط كونت أرتوا قتيلا مع غالبية
فرسان الداوية.

وهكذا فشلت الحملة في الإستيلاء على المنصورة وظل الصراع بين
الفريقين مستمرا حتى تفشى الوباء في معسكر العدو حتى أصاب الوباء
الملك لويس نفسه.

وفي ١٦ ذى القعدة ٦٤٧ / ١٢٥٠ وصل إلى مصر توران شاه وقد
تولى عرش البلاد وأعلنت البلاد وفاة الصالح أيوب ثم وصل توران شاه إلى
المنصورة فاجتمع حوله القادة لمواصلة الجهاد ضد المعتدين.

واستمر القتال بين الفريقين حتى انتهى الأمر بأن طلب الملك لويس
التاسع عقد صلح يتنازل فيه الملك عن دمياط مقابل تنازل السلطان عن بيت
المقدس وبعض المدن الساحلية. ولم يقبل المسلمون هذا العرض حيث أن
جيش الحملة الصليبية لم يعد يصلح للقتال بأي حال. ولما قام الملك لويس
بالانسحاب بجنوده والعودة إلى دمياط وعبروا الجسر دون أن يحطموه

خلفهم فसार المسلمون فى أعقابهم يطاردوهم حتى فارسكور. وفى فارسكور التحم الجيشان فقتل سبعة آلاف من جيش الحملة الصليبية غير عدد كبير من الأسرى والمشاه، بينما لم يستشهد من انماليك أكثر من مائة إنسان. وبلغ الملك لويس من الإعياء حدا جعله يتقدم بطلب صلح وإيقاف القتال نظير إخلاء دمياط.

ثم حدث ما ألقى فكرة المصالحة حين تقدم أحد جنود الحملة الصليبية يسمى مارسيل يخاطب قاداته من الصليبيين معلنا أن الملك لويس يطلب منهم أن يستسلموا للمصريين صونا لحياة الملك فأستسلم القادة الصليبيون فى ٢ محرم ٢٤٨هـ / ٦ أبريل عام ١٢٥٠م. وهنا رفض المصريون الاستمرار فى المفاوضات بعد أن ألقى الجنود الصليبيون أسلحتهم .

ثم التفت المسلمون حول الملك لويس ومن معه من الفرسان وساروا بهم إلى المنصورة، واعتقل هو وأخواته كونت أنجو وكونت بواتييه بدار القاضى فخر الدين بن لقمان يحرسه الطواشى صبيح .

ثم بدأت المفاوضات بين المسلمين والملك لويس التاسع وتم الاتفاق بين الطرفين على أن يدفع الملك لويس فدية مبلغا محددًا من المال ويسلم دمياط للمسلمين مقابل إطلاق سراح الملك ومن معه من الأسرى الصليبيين. وتم عقد المعاهدة لمدة عشرة أعوام. وأقسم الجميع بعدم الإخلال بنصوص المعاهدة.

وفى ٢٤ محرم ٦٤٨ / ٢٨ أبريل ١٢٥٠ رحل الملك المعظم توران شاه من المنصورة إلى دمياط لتنفيذ المعاهدة. فى فارسكور وأقيم له دهليز

السلطنة، ويجانبه برج خشبي يصعد إليه الملك ليلقى ببصره على المعسكر والقرية، كما نقل الملك لويس في سفن معدة إلى فارسكور، واستقروا في مواجهة الدهليز السلطاني.

ثم دب الشقاق بين توران شاه وبقية كبار رجال الدولة حتى أنه لم تسلم شجرة الدر التي حفظت لتوران شاه سلطانه في غيابه حتى عودته إلى البلاد لم تسلم من إساغته إليها، فاضطرت إلى الإحتماء بالأمرء المماليك البحرية فاجتمع رأى الجميع على التخلص من توران شاه.

وفي ٢٨ محرم ٦٤٨ / ٢ مايو ١٢٥٠ اقتحم خيمة السلطان توران شاه أمير من المماليك البحرية وضربه بالسيف فأسرع الملك بعد أن تلقى ضربة السيف بيده فقطع بعض أصابعه ولجأ إلى البرج وصعد إلى أعلى وتمكن من تضميد جراحه إلا أن المماليك صمموا على مواصلة تعقبة حتى لا يفلت من أيديهم فأشعلوا النار في البرج بعدما رفض الإذعان لندائهم فالتقى بنفسه في النيل لينجو في النهر سباحة فأسرع إليه الأمير أقطاي فضربه بالسيف ضربة قاتلة. وهكذا انتهت الدولة الأيوبية في مصر وبزأعصر دولة المماليك. واعتلت شجرة الدر أم خليل عرش مصر المملوكية.

وقد تزوجت شجرة الدر بعد ثلاثة شهور من ولايتها من الأتابك عز الدين أيبك وسلمته عرش مصر.

ثم أعيدت كتابة المعاهدة ولم يتغير مضمونها عن المعاهدة السابقة. وفي ٢ صفر ٦٤٨ / ٧ مايو ١٢٥٠ تم تسليم دمياط للمصريين ودخلت العساكر المصرية إلى المدينة ورفعوا الأعلام المصرية في كل مكان فيها بعد

غيابها تحت سلطان الصليبيين مدة عام من الزمن وأُخلى سبيل الملك لويس التاسع ومن معه من البارونات والفرسان وتسلم المصريون نصف الفدية المالية الباقية وانتقل الجميع إلى البر الغربى لدمياط وصعدوا إلى السفينة الجنوية الخاصة بالملك لويس وحاشيته، بينما استقل الآخرون من الصليبيين السفن الأخرى المعدة لنقلهم وبدأت رحلة السفر فى ٤ صفر ٦٤٨ / ٨ مايو ١٢٥٠ حيث أقلتهم السفن إلى عكا وهم فى حالة ضعف بعدما لحقت بهم الهزائم فى بلاد الإسلام.

ولم تهدأ رغبات الملك الفرنسى ولم تفتربعدما لقيه من هوان وضعف حال فى مصر، فبعد أن لجأ إلى عكا ظل يعمل على تحقيق الأهداف الصليبية فى المدة بين أعوام ٦٤٨، ٦٥٦ / ١٢٥٠، ١٢٥٤ علىه يستطيع أن يفعل شيئاً.

الفصل التاسع
لويس التاسع في بلاد الشام

فى ٨ صفر ٦٤٨ / ١٢ مايو ١٢٥٠ نزلت فلول الحملة الصليبية القادمة من مصر بعد الهزيمة التى لحقت بها فى المنصورة يقودها الملك الفرنسى لويس التاسع الذى استقر فى عكا لسنوات قبل أن يقرر عودته إلى بلاده وقد رحب به أهلها بما فيهم رجال الدين وبقية الطبقات. ثم عرج الملك لويس فور نزوله أرض عكا إلى كنيسة المدينة.

وفى عكا أخذ الملك يراجع ما مر من الأحداث. فهو قد رأى ثورة المماليك ضد الملك توران شاه ثم قيام دولة المماليك فى مصر. كما رأى ضعف الإمارات الصليبية فى أرض الشام. وفى عكا لقي الملك لويس الرسول الذى بعث به من قبل إلى المغول قد حضر ومعه ردا لا يحتوى على شىء مما كان يتمناه من المغول.

ثم عاود لويس الإتصال بالمغول فبعث برسول آخر هو وليم روبروك الذى رحل من عكا فى عام ٦٥٠ / ١٢٥٢ ثم عاد من منغوليا إلى عكا فى صيف عام ٦٥٣ / ١٢٥٥ يحمل إلى لويس رسالة ليست بذى بال مع ذلك فقد عقد الصليبيون العزم على محاولة اجتذاب المغول لصفهم والعمل على نشر الديانة المسيحية بين المغول.

لقد جعل الملك لويس هدفه عكا لتكون الخطوة الأولى فى حربه القادمة ضد مصر أو بلاد الشام بعد الذى لقيه فى مصر من إنكسار وذه. ثم لم يلبث أن تلقى لويس التاسع من أمه الملكة بلانش وكانت تنوب عنه فى حكم فرنسا تطالبه بالعودة إلى بلاده لتولى الحكم فيها، وقد رحب رجال الحاشية بدعوة أمه للعودة.

وقد اتجه الملك كعادته إلى عقد مجلس من كبار رجاله ليعرض عليهم الأمر، وتبين أن القوم قد أجمعوا على العودة إلى فرنسا، وكذلك رأى القاصد الرسولى البابوى أن يعود الملك إلى بلاده، ومن كبار رجال الحاشية من جعل همه التسلية واللهو فلم يجد الملك بدأ من جمع أدوات اللعب وإلقائها فى عرض البحر، فقد ظهرت حقيقة أن الاقطاعيين الذين رافقوا الملك فى الحملة لم يكن لهم هدف دينى وإنما حب المغامرة والمخاطرة، ولما فشلت المحاولة ضعف حماسهم، ولم يكن لهم حماس فى البقاء خارج أرض الوطن. كما عرف الملك آخرون بأنه لم يبق لهم سوى قوات ضعيفة لايمكنها تحقيق عمل حاسم ضد المسلمين ولا بد من العودة للبلاد والاستعداد لمرحلة قادمة.

وأما من فضل بقاء الملك فهو يوحنا صاحب يافا الذى قال للملك بأن بقاء الملك ضرورة لحماية الأراضى المقدسة ورعاية أهلها من الكاثوليك الذين يرغبون فى بقاء الملك بجانبهم لما فيه مصلحة الجميع.

وعلى الرغم من أن أغلبية مؤتمر عكا لم يكن لصالح بقاء الملك فى عكا فإن الملك انضم إلى رأى الأقلية وقرر البقاء فى عكا للعمل على استرداد بيت المقدس من أيدي المسلمين. وبعد أن انتهى رأى الملك إلى البقاء فى عكا شرع فى إلهاب مشاعر أوربا الغربية أن يساندوا الملك فى العمل على استرداد الأراضى المقدسة ودعا الجميع وخاصة الفرنسيين إلى الإسراع بحمل الصليب والحق بالملك إلى أرض الشام للفوز بأعلى درجة من رضى الرب.

لقد أطلال الملك الدعوة إلى الجهاد باستثارة الغرب الأوربي الكاثوليكي إلى الجهاد فى سبيل استرداد الأراضى المقدسة .

وبالغ فى ذلك إلى درجة أنه بعث بشقيقيه الفونسي كونت بواتيه وشارل كونت أنجو إلى أوربا لإثارة الغرب الكاثوليكي ضد الشرق الإسلامى وإرسال الأموال والنجدات إليه بأسرع ما يمكن. وطالب البابا أنوسنت الرابع إلى التبشير بالحملة الجديدة وبذل كل الجهد لصالح القضية الصليبية.

وعلى الرغم من وصول رسالة الملك إلى البابا أنوسنت الرابع فإنه لم يبد إهتماما وهو الزعيم الأعلى فى أوربا وهى قضيته الأولى إلا أن البابا لم يبادر بتقديم أى مساعدة كما حدث من قبل من البابوات الذين سبقوه فى بدء الحركة الصليبية. فقد شغلت البابا مشاكله مع الامبراطور فردريك وإتهامه بالهرطقة فى مجلس ليون الكنسى عام ٦٤٢هـ / ١٢٤٥م.

لقد اتخذ البابا أنوسنت الرابع خطة معارضة لسياسة الملك لويس فى بلاد الشام ولم يهتم بالدعوة لحملة صليبية جديدة . حتى اتهم البعض البابا بأنه مجردا من النزاهة الشخصية والحماس الدينى للحركة المقدسة. .

كما أن بعض الرهبان ومنهم الراهب متى الباريزى أعلن استيائه من مسلك البابا الذى لا يتمشى مع تعاليم المسيحية. وقد حزن الملك لويس من موقف البابا أنوسنت ووصفه بالجشع وأن هدفه فى الحياة هو الكسب المادى والمنفعة الشخصية وإهمال الحياة الروحية.

وهكذا لم ينجح الغرب الأوربي حين تغافل عن تقديم إية معونة لصالح الحملة ومساعدتها على مقاومة المشاكل المادية التي لحقتها .

لقد شغلت أوروبا الغربية الكاثوليكية بالصراع الداخلى بين البابوية والعلمانية حتى انصرف الجميع عن تلبية نداء لويس التاسع فى الشرق فلم يستجب له أحد، لقد اشتعلت الحرب بين الامبراطورية والبابوية وظلت الحرب مشتعلة دون أن يصل الطرفان إلى نتيجة.

ولم تستطع أسبانيا مد يد العون نظرا لأن الصراع القائم آنذاك بين المسلمين والأسبان لم يمكن الأسبان من المساهمة فى نصره الحرب الصليبية فى البلاد الإسلامية. أما فى فرنسا التى قامت الحرب الصليبية من أرضها فلم تنجح فى محاولات المتحمسين لنجدة لويس التاسع. كما أن الامبراطورية الشرقية التى أسسها الصليبيون من اللاتين الكاثوليك فى القسطنطينية. فقد ظلت فى صراع مع البيزنطيين الذين صاروا يشنون الهجمات المتوالية ضد الصليبيين المعتدين القادمين من الغرب الأوربي والقابعين فى الأرض البيزنطية إغتصابا فشغلوا هؤلاء جميعا إلا عن حروبهم بين بعضهم بعضا.

كذلك لم يكن صليبيو الشام بعد أن استقر بهم الحال فى البلاد الشامية على استعداد لمواصلة الكفاح مع الحملات الصليبية التى سئموا من متابعتها دون الوصول إلى نتيجة غير الهزائم والمصائب المتلاحقة التى أصابتهم فى مصر. وهم وقد استقر بهم المقام وتوثقت علاقات المودة بينهم وبين جيرانهم من مسلمين ومسيحيين شرقيين بسبب ارتباط المصالح

المشتركة فنبذوا فكرة الحرب المقدسة وفترت همتهم نحو المشاركة فى حرب صليبية جديدة ضد المسلمين.

بالإضافة إلى ما تقدم فإن من بقى مع الملك لويس التاسع من فلول جيشه المنهزم صار فى حالة لا تمكنه من الإستعانة بهم فى حرب مع المسلمين، لقد انسحبت الحملة من مصر وهى لا تملك من الأموال شيئاً وقد بلغ بهم الإعياء حدا جعل الفارس منهم لا يستطيع حتى ركوب فرسه من شدة الإعياء .

لقد نال الوباء من رجال الحملة حتى وصل إلى الملك نفسه الذى رأى بعينه رجاله وهو نفسه ملقى على فراش المرض لا يقوى على مدافعة المرض عن نفسه فضلا عن أفراد الحملة الذين تناثرت جثثهم حتى يصل إليها من يحملها لدفنها.

حدث كل هذا والملك ما يزال متعلقا بالأوهام والآمال التى لا طائل من ورائها حتى بعدما فقد الجميع الأمل فى جدوى حرب دينية ضد المسلمين.

الفصل العاشر

الموقف بين المسلمين والصليبيين في مصر والشام

لقد قامت دولة المماليك فى مصر، بعد تحقيق الإنتصار الباهر ضد الحملة الصليبية الما بعة التى قادها ضد مصر الملك لويس التاسع ملك فرنسا حيث دب الخلاف بين المماليك فى مصر والأيوبيين فى الشام حين لم يقبل الأيوبيون بقيام دولة المماليك فى مصر. وبعد صراع بين الطرفين دام ثلاث سنوات أدرك الأيوبيون خلاله أن الصلح هو خير وسيلة للجميع. وقد استجاب المماليك فآثروا قبول الصلح بعد تدخل الخليفة العباسى.

وفى صفر عام ٦٥١ / ابريل ١٢٥٢ تمت المصالحة بفضل الشيخ نجم الدين البادراتى واتفق على ضم غزة والقدس ونابلس لمصر وبحق المعز أيبك فى عرش مصر وصارت للملك الناصر يوسف باقى البلاد الشامية وعادت الأمور إلى المصالحة والوثام بين مصر والشام.

بعد أن تمت المصالحة والوفاق بين مصر والشام أدرك الملك لويس أن آماله فى إمتلاك الأراضى المقدسة صارت ضربا من المحال. لقد بدأت دولة المماليك بالمرحلة التى تفوق فيها المسلمون على الصليبيين بعد هزيمة لويس التاسع قائد الحملة الصليبية السابعة ضد مصر. ثم حمل المماليك بعد ذلك لواء الزعامة فى العالم الإسلامى حيث أخذوا على عاتقهم مهمة طرد الصليبيين اللاتين القادمين من الغرب الأوربى من الأراضى المقدسة التى هى جزء من الشرق العربى . وقد تمكن المماليك فى أقل من نصف قرن من قيام الدولة المملوكية فى مصر من طرد الصليبيين نهائيا وإلى الأبد فى عام ٦٩٠هـ / ١٢٩١م فى عهد السلطان المملوكى الأشرف خليل. كما طردت المغول فى عين جالوت قبل ذلك فى عام ٦٥٨ / ١٢٦٠ بعدها القنتهم درسا قاسيا لم يفيقوا منه بعدها.

لقد أخذت القوات الناصرية فى الفترة التى سبقت المصالح بين الممالك والناصر يوسف تغير على قوات لويس والمدن الصليبية على نطاق واسع، فبدأوا فى الإغارة على طرابلس فى عهد حاكمها يوهيمند الخامس صاحب أنطاكية (٦٢٠هـ-٦٤٩/١٢٢٢-١٢٥١م) وقد أنزلوا بأهلها الهزيمة وقتلوا واستولوا على الأسلحة والجياد وقد أبلغ حاكمها بما حدث للملك لويس فى عكا. كما أغار التركمان على ضواحي أنطاكية حين إقامة لويس فى عكا.

كما هاجم المسلمون قيسارية ولما علم الملك لويس بالواقعة وهو فى عكا أسرع إلى قيسارية لنجدتها متى عاود المسلمون الإغارة عليها وفى عام ٦٥٠/١٢٥٢ قام الصليبيون بغارة على مدينة حلب وأحدثوا فى بعض جهاتها حرائق سببت خسائر كبيرة. وقد انتقم الصليبيون من الناصر يوسف باعتباره المحرض على هجمات المسلمين ضد الإمارات الصليبية.

وبعد إتمام المصالحة بين الممالك والناصر يوسف فى ربيع الأول عام ٦٥١هـ/ مايو ١٢٥٢م أوعز الناصر يوسف إلى قواته العائدة من غزة بالاشتباك مع قوات لويس . كما وقعت معارك كثيرة فى ناحية يافا وعكا وصيدا وفى بانياس حقق المسلمون فيها النصر ضد الصليبيين الذين تكبدوا خسائر كثيرة.

ففى ربيع الأول عام ٦٥١هـ/ أوائل مايو ١٢٥٢ بينما يعسكر لويس وجنوده قرب يافا وقوات الناصر عائدة إلى بلادها على بعد فرسخين من المعسكر الصليبي فأمر الملك الحراس من رماة السهام بالإستعداد

للمواجهة. وقامت الحراسة حول المعسكر والقوات الإسلامية تواصل مسيرها حتى اتجهت لتطويق رئيس الرماة. فبعث الملك بخمسمائة محارب لنجدة المحاصرين ومنع المسلمين من مهاجمتهم. فانسحب المسلمون إلى ريو عالية سبقهم إليها أحد القادة المسلمين ومعه ألف مقاتل، فانضم المسلمون إلى من بالريوة واشتبك الفريقان في ربيع الأول ٦٥١ / مايو ١٢٥٢ وتقاتلوا وظل الحال على ذلك فترة حتى انتهت المعركة بانسحاب المسيحيين، وتبعته القوات الإسلامية حيث أخذوا طريقهم هم أيضا في الاتجاه شمالا. ولما وصلت تلك القوات الإسلامية عند مدينة عكا قامت بهدم وتخريب حصنين هما حصن الداوك وتل كردانه، وعندما وصل المسلمون بمواجهة مدينة عكا وتقدم صاحب أرسوف ومعه حامية عكا وأخذوا مكانهم، فوق جبل القديس يوحنا للدفاع عن المزارع والحدائق. كما تقدم مشاة لويس ورماة سهامه لمواجهة المسلمين بالسهام والرماح، وبعد مناظرة تمت بين بعض الجنود من الفريقين انسحب الرماة من الصليبيين بالابتعاد عن القوات الإسلامية بينما أخذ المسلمون طريقهم في الاتجاه شمالا بعد الهجمات التي تعرضت لها بعض الإمارات الصليبية أخذ الملك لويس في استكمال صيانتها وتقويتها خاصة صيدا حتى لا تتعرض للسقوط في أيدي المهاجمين من المسلمين.

وفي ربيع الآخر عام ٦٥١ / يونيو ١٢٥٢ وصلت أخبار الإصلاحات الجارية في صيدا وفي غيرها فأسرعت القوات الإسلامية متجهة إلى صيدا. وعلم رئيس فرقة رماة السهام في صيدا بقدوم المسلمين إليها فأسرع منسحبا من المدينة إلى قلعة البحر المحصنة وكأنها جزيرة في البحر حيث

لم يكن فى استطاعته البقاء فى صيدا ولم يكن قد استكمل تحصينها بعد . وعندما وصل المسلمون إلى صيدا هجموا على المدينة ولم يصادفوا فيها مقاومة . ثم انسحبوا عائدين إلى دمشق وهم يحملون معهم أربعمائى من الأسرى الصليبيين والغنائم التى استولوا عليها من المدينة . ولم يتعرضوا لقلعة البحر لحصانتها .

ولما وصلت أخبار الهجوم على صيدا إلى الملك لويس وما وقع من الخسائر العالية فى الأرواح والأموال بادر بتلبية رغبات كبار رجال صيدا فاتجه إليها بعدما انتهى من إصلاحات أجراها فى يافا وبدأ فى جمادى الأولى عام ٦٥١ / يونيو ١٢٥٣ فى تقوية بناء أسوارها ثم اتجه بعدها إلى أرسوف وعسكر عند قلعة أرسوف المنيعىة ثم عقد مجلسا من كبار مستشارية وكبار رجاله وشاورهم فى مهاجمة نابلس الإسلامية بحملة صليبية يقودها بنفسه إلا أن سابقة وقوعه فى الأسر فى مصر إبان الحملة الصليبية السابعة دفعت بفرسان الداوية والاستشارية إلى رفضهم مشاركة الملك فى الحملة خوفا على حياته . إلا أن الملك أصر على رأيه لذلك فشلت فكرة الحملة ولم تنفذ والأرجح فى عدم تنفيذ خطة الحملة الصليبية أن نابلس بطبيعة تكوينها ذات مناعة طبيعية لوقوعها بين مناطق جبلية شاهقة وتتبع الدولة المملوكية فى مصر ولم يكن للمصريين . قتال مع الصليبيين وإنما الملك الناصر الأيوبي هو الذى كثيرا ما ألحق الأذى بالإمارات الصليبية ولذلك لم يكن هناك مبرر قوى فى مهاجمة نابلس . كما أن الهجوم على نابلس مبرر قوى لإثارة المماليك فى مصر فيقع الصليبيون بين المماليك فى الجنوب والأيوبيين فى الشمال فيطبق عليهم المسلمون ويصيرون هم بين فكي

كماشة، فقبل الملك صرف النظر عن فكرته فى محاربة المسلمين فى نابلس.

ولم يكن بوسع المماليك آنئذ القيام بدور مشترك مع الأيوبيين ضد الصليبيين حيث أن العرب فى مصر عارضوا قيام الدولة المملوكية ورفعوا السلاح على السلطة المملوكية، وبادلهم الحكام المماليك عداً بعداء فعملوا على منع وصول السلاح إلى العربى بكل وسيلة. وإزاء هذا التوتر الداخلى فى مصر وقف الحكام المماليك من الممارك ضد الصليبيين فى الشام موقف الحياد، حيث شغلوا بالموقف الداخلى فى مصر فقد قامت الاعراب فى صعيد مصر بثورة ضد المماليك فى عام ٦٥١ / ١٢٥٣م. وكان علي المعز أيبك أن يواجه الأخطار التى أعقبت حكم المماليك فى مصر.

بعد أن قبل الملك لويس التاسع فكرة صرف النظر عن مهاجمة نابلس، اتجه هو وجنوده من أرسوف شمالاً إلى عكا ثم وصلو إلى صور حيث أقاموا خيامهم فى مواجهتها، وجلسوا للمناقشة والتداول فيما بينهم فيما يجب عليهم القيام به.

وفى الاجتماع الذى تم بين الملك وكبار قاداته ومنهم فيليب دى منتفرت حاكم صور الذى رافق الملك لويس فى حملته على مصر وبعد إنتهاء الحملة أعيد فيليب إلى إمارته فى صور. وفى هذا الاجتماع عرض الملك لويس القيام بحملة ضد بانياس فوافق الجميع على تنفيذ تلك الحملة على ألا يشترك فيها الملك. ثم أخذ الملك جزءاً صغيراً من قواته واتجه إلى مدينة صيدا لإصلاح أسوارها وتقوية دفاعاتها. وأما الجزء الأكبر من الجيش فقد اتجه لمهاجمة بانياس وأخذها عنوة من المسلمين. وتولى قيادة جند صليبي الشام الأمير فيليب صاحب صور ومعه وليم دى شاتنوف رئيس

الاسبتسارية ورينوه دى فيشيه رئيس الداوية، وتولى قيادة القوات الفرنسية يوحنا كونت أيو وجيل مارشال فرنسا وجوانفيل، ثم أخذ الجيش فى الاتجاه ليلا حتى بلغوا بانياس وهى مدينة صغيرة قريبة من دمشق وفيها قلعة الصببية المنيرة بدفاعاتها، وهى من ممتلكات الناصر الأيوبى وكانت تحيط ببانياس مجموعة من المدن والقلاع الصليبية منها شقيف أرنون وشقيف ثيرون وتبنين والجليل وصفد والناصر وصفورية.

نظم الصليبيون قواتهم وبدأوا بالهجوم على بانياس فى جمادى الأولى ٦٥١/ يوليو ١٢٥٣ وقد اختار المهاجمون طريقا وعرا يتعذر على الفرسان اجتيازه إلا أن المدافعين من المسلمين تغلب عليهم الخوف من استبسال الفرسان الصليبيين وتصميمهم على الإندفاع فانسحبوا تاركين التل الذى سرعان ما احتله الصليبيون من الفرنج واحتلوا المدينة بانياس وشرعوا يتجهون لاحتلال قلعة الصببية.

بعدما انسحب المسلمون من التل أسرعوا بالإحتماء بقلعة الصببية واستعددا للدفاع عنها ضد المهاجمين، شجع النصر الذى تحقق للفرنج فى احتلال المدينة على الإندفاع خلف القوات الإسلامية المنسحبة لىون تريث حيث كان عليهم الإنتظار حتى تجتمع بقية القوات الصليبية، وفقا للتعليمات الصادرة من قيادتهم من قبل، ثم يبدأ الهجوم على القلعة، وقد فاجأهم المسلمون المدافعون عن القلعة بالمقاومة ببسالة أرغمت المهاجمين من الصليبيين على التراجع فى اتجاه المدينة بعيدا عن القلعة وتعقب المسلمون الصليبيين المنهزمين يرمونهم بالسهام والرماح فازداد إرتباك المنسحبين. وهكذا لم يتم للصليبيين تحقيق هدفهم من حملتهم على بانياس.

الفصل الحادى عشر

المسلمون والصليبيون والمغول

* عودة لويس التاسع إلى فرنسا

* حملة لويس التاسع إلى تونس وفشلها

* تجدد الحروب الصليبية فى الشرق بعد القرن ١٢هـ / ١٥م.

* المسلمون والعالم الغربى

حاول الصليبيون فى فترة لويس التاسع ملك فرنسا فى أرض الشام العمل على الاستفادة من الأوضاع المتقلبة فى البلاد نتيجة للخلافات التى أعقبت قيام دولة المماليك فى مصر على حساب الدولة الأيوبية.

فقد تبادل الصليبيون والشيعة - اسماعيلية الشام - البعثات فيما بينهم حيث بعث شيخ الجبل إلى لويس التاسع برسول ليجعل بينه وبين الصليبيين علاقة تعاون وقدم كل طرف الهدايا للآخر. وتبادلوا البعثات التى تظهر مدى الروابط الودية والتفاهم بين الطرفين.

ولقد حاول الصليبيون استمالة جماعة الإسماعيلية فى الشام إليهم، ليستعينوا بهم ضد المسلمين فى مصر والشام، وخاصة فى ظروف الدولة المملوكية فى مصر ومعارضة الأيوبيين لهم فى الشام ولكن لم يتيسر للصليبيين تحقيق هذا الهدف، ولم تقد المفاوضات التى تمت بين الملك لويس التاسع والزعيم الشيعى الإسماعيلى فى الشام بشيئ، وكل ما أمكنه الملك لويس الحصول عليه هو الإقلال من حدة عدااء الإسماعيلية للصليبيين.

ثم حاول الصليبيون بعد ذلك الإتجاه إلى الشرق حيث المغول الذين رأى الصليبيون أن يستعينوا بهم فى حروبهم ضد المسلمين .

وفى عام ٦٥٠ هـ / ١٢٥٢م. بعث لويس التاسع إلى الامبراطور المغولى مانجوخان رسولا يدعى «وليم روبروك» الذى بدأ رحلته من عكا ثم وصل إلى منغوليا وبعدها رجع عائدا إلى عكا فى صيف عام ٦٥٢/١٢٥٥ يحمل رسالة إلى لويس التاسع تشبه تلك الرسالة التى تلقاها بابا روما من امبراطور المغول التى استخلص منها الصليبيون أن المغول يعطفون على

المسيحيين وديانتهم الأمر الذى دفع بالصلبيين وحفزهم على العمل على نشر المسيحية بين المغول، لولا الخلاف الذى دب بين الكنيستين النسطورية والكاثوليكية مما أضعف من قوة المسيحيين أمام المسلمين. فعلى الرغم مما بذله المسيحيون جهود الاجتذاب المغول إليهم سياسيا ودينيا، فإن نجاحهم كان محدودا فى تلك الناحية، ففى الوقت الذى كان فيه أصحاب المذاهب المسيحية يتنازعون فيما بينهم كانت الديانة البوذية قد وطدت أقدامها بين المغول فى شرق آسيا. كذلك أخذ المسلمون يعملون جاهدين على نشر دينهم فى غربها.

وأما عن تفاصيل الدور الصليبي والآمال التى عقدوها على فكرة الاتحاد بين الغرب الأوربي والشرق الأقصى، فقد بدأ بعد ظهور المغول كقوة عظمى يعمل لها حسابا فى ظروف الصراع بين الصليبيين والمسلمين وطبيعة العلاقات بينهم وبين العالم الصليبي حينذاك. اتجه الغرب الصليبي إلى الشرق الأقصى بأنظاره ليطالب العون فى حربه ضد المسلمين فى أرض مصر والشام حيث لم يتمكنوا من تحقيق أهدافهم فى الانتصار على المسلمين والعرب.

لقد أقام المغول امبراطورية كبرى واسعة الأركان وجعلوا من قراقورم عاصمة لهم. لقد امتدت هذه الامبراطورية المغولية من بكين شرقا إلى نهر دنيبر والفرات غربا، وهكذا شملت شمال الصين وتركستان وفارس وجورجيا وجزءا كبيرا من جنوب روسيا.

لقد بلغ الخطر الصليبي أوربا ذاتها فقد وصلوا إلى بولندا وهنغاريا، وياتت ألمانيا فى عهد الأمبراطور فردريك الثانى مهددة من المغول فقد

وصلوا فى عام ١٢٣٩/١٢٤١ إلى شرق المانيا فهدموا وخبروا.

وفى عام (٦٢٥-٦٣٩/١٢٢٧-١٢٤١) دعا البابا جريجورى التاسع إلى حملة صليبية ضد المغول لوقف زحفهم على أوربا. وقد بلغ الخوف فى أوربا الغربية إلى أنهم عمدوا إلى محاولة استمالتهم إلى الديانة المسيحية واستخدموا فى ذلك الطرق الدبلوماسية. وبعثوا إليهم البعثات الواحدة تلو الأخرى فى محاولة لإتقاء شرهم، كما أنهم دعوا المغول للاشتراك معا فى حرب مغولية صليبية ضد المسلمين لاسترداد الأراضى المقدسة من المسلمين. وقد تحمس البابا أنوسنت الرابع لإقامة إتحاد بين أوربا والمغول ضد المسلمين. وقد رحب المغول بتلك الدعوة الصليبية.

لقد اتبع المغول سياسة التسامح مع جميع الأديان، وقد تحمسوا للديانة المسيحية، وقد انتشرت الدعوات الدينية فى البلاد التى غزاها المغول وأخذ كل فريق يدعو إلى الدين الذى يعتنقه وقد كثر عدد المسيحيين فى بلاد الشرق الأقصى بدرجة ملحوظة نسبيا، لكن الديانة البوذية هى التى سيطرت على مناطق الشرق الأقصى كما أن الدين الإسلامى قد أخذ نصيبه فى تلك الأنحاء بغير كبير عناء.

ومن البعثات التى أرسلها البابا أنوسنت الرابع إلى المغول ورأسها الراهب اسلين اللباردى الذى بدأ رحلته من لبون إلى تفليس ومعه ثلاثة من رفاقه. واتجهوا عبر أرمينية وجورجيا وسوريا وفارس إلى معسكر القائد المغولى باتو حفيد جنكيزخان، وقد أرسل القائد المغولى باتو مع بعثة البابا عند عودتهم مندوبين منه هما ايبج وسرجيس ويبدو أن المغول قصدوا من وراء إرسال هذين المبعوثين من ناحيتهم إلى البابا هو رغبة المغول فى

معرفة أحوال أوربا والبابا، وقد اجتمع البابا بمبعوثي المغول ثم حملهما الهدايا والرسائل التي يعلن فيها عن رغبته في الصداقة وتأييد المغول له.

أما هولاكو فقد عمل على البحث عن حلفاء جدد يناصرونه في مواجهة المسلمين، وقد وجد هؤلاء الحلفاء دون مشقة في الحكام المسيحيين في أرض الشام ووجد من ملك أرمينية ومن زعماء الصليبيين في بلاد الشام رغبة صادقة في هذا السبيل وكان لزوجته هولاكو المسيحية أكبر الأثر في انصرافه عن الديانة الإسلامية إذ حاولت بشتى الطرق أن تستميله إلى دينها، ولابد أن تكون هذه الزوجة قد ساعدت على توطيد أواصر الصداقة بين هولاكو وبين زعماء المسيحيين في غرب آسيا والشام.

لقد عمل كل من الصليبيين والمغول على القضاء على الدولة المصرية ليسهل عليهم إبتلاع الشام. فقد عمل المغول على وضع خططهم لبناء امبراطورية قوية لهم تضم العراق والشام وقد بدأ المغول في مهاجمة أطراف الدولة العباسية قبل الهجوم الأخير على بغداد. ولنع مصر من مساندة بغداد عند مهاجمة المغول لها. عمد المغول إلى العمل يدا واحدة مع الصليبيين للقضاء على الدولة المملوكية في مصر. وقد راسل المغول الملك لويس التاسع كما راسلوا البابا أنوسنت الرابع قبل ذلك. فالمغول عملوا في الميدان الدبلوماسي، في نفس الوقت الذي بلغوا فيه استعدادتهم الحربية إلى أقصى مدى. وقد تمكن المغول من غزو حصون الإسماعيلية في فارس وغزو الخلافة العباسية في بغداد ١٢٥٨/٦٥٦ ثم أسرعوا في الاتجاه إلى ربوع الشام.

كانت مهمة هولاكو التالية أن يخضع سوريا ثم يستولى على مصر. وقبل أن يبدأ رحيله إلى هذه الجهات أرسل عدة خطابات تحمل في طياتها معانى التهديد والوعيد لحكام البلاد التى ستمر جيوشه فيها وعلى الأخص لحاكم مدينة حلب التى تعتبر مفتاح البلاد السورية، ولما أتم استعداداته الحربية سار إلى الغرب مكتسحا ما بقى من البلاد ما بين النهرين ثم رحل وشرع فى اتمام غزو ما بقى من الأراضى السورية فى الجنوب ولكنه اضطر إلى العودة إلى بلاده تاركا لقائده كتبغا إتمام هذا المشروع. وجعل هو عشرة آلاف مقاتل مغولى لهذا الغرض.

سار كتبغا بهذا الجيش ميسما شطر البلاد المصرية وأرسل خطاب تهديد إلى المصريين كعادة المغول لهدم روحهم المعنوية قبل بدء القتال، ولكن المصريين لم يهتموا بتهديد أو وعيد من العدو المغولى، وأسرعوا بالإتجاه إلى البلاد الشامية لمقابلة العدو، وتمكن المصريون بالإتحاد مع أهل الشام بين العرب والمسلمين أن يهزموا المغول هزيمة ساحقة فى معركة «عين جالوت» فى عام ٦٥٨/١٢٦٠ وقتل المسلمون الغالبية العظمى من الجيش المغولى وأسروا وخطفوا الكثيرين وفر الباقون واستعاد المسلمون البلاد الشامية ومنها دمشق وحلب.

ومما يلفت الإنتباه أن المغول تسببوا فى هجرة بعض القبائل الآسيوية إلى غرب آسيا ومنها القبيلة التى شكلت نواة الدولة العثمانية بعد ذلك. كما أن هجرة جماعة كبيرة من الأتراك الخوارزميين أندفعت أمام جحافل المغول إلى البلاد الشامية وإلى مصر ومن هؤلاء استطاع الملك الصالح أيوب أن يضم منهم الكثير إلى مصر حيث جعل من سياسته اجتذاب المماليك إلى

مصر. وقد جند الصالح أيوب هؤلاء المماليك فى حروبه ضد الصليبيين فى الشام. وقد تمكن المصريون من استرداد بيت المقدس من أيدي الصليبيين فى عام ١٢٤٤/٦٤٢ كذلك ألحق الصالح أيوب كثيرا من أسرى المغول بخدمته . وهؤلاء هم الذين عرفوا باسم المماليك البحرية وقد تشجع كثيرون فى عهد السلطان الظاهر بيبرس من المغول فاقبلوا على القدوم إلى مصر ودخلوا فى الإسلام عن طواعية. وقد خصصوا مبنى فى منطقة باب اللوق. وقد اهتم السلطان الظاهر بيبرس بهؤلاء المغول وأعطى عنايته الفائقة لهم وقدم لهم الإقطاعات . وقد شجع مالقيه المغول من اهتمام المصريين بهم إلى قدوم عدد كبير من المغول إلى مصر فازداد العمران فى باب اللوق والأحياء المجاورة بسبب تلك الهجرات المغولية إلى مصر فى العهد المملوكى.

أما عن بعثات الصليبيين إلى المغول، فقد قرر الملك لويس معاودة الإتصال بالمغول تبعا للخطط التى رسمتها البابوية فى العمل على كسب المغول إلى صفوفهم فى حروبهم ضد المسلمين. خاصة بعدما وصله أن بعض المغول قد اعتنق المسيحية ومنهم الحاكم المغولى سارتاك.

قرر الملك لويس التاسع إرسال بعثة من الراهب وليم دى روبروك ویرثوا لماوس كريمونا وصحبهم ثالثهم نيقولا فى رحلتهم إلى الشرق الأقصى. وقد بدأت الرحلة فى عام ١٢٥٢/٦٥٠ من قيسارية إلى القسطنطينية ثم إلى شبه جزيرة القرم التابعة للإغريق وقتذاك، حتى وصلوا إلى نهر الفولجا، وهناك تقابلوا مع سارتاك أحد إيلخانات المغول الذى اعتنق المسيحية.

تقدم روبروك بخطاب الملك لويس لإلخان المغول ليسمح لهم بالعمل على نشر المسيحية فى بلاده فطلب منهم سارتاك التوجه إلى أبيه القائد باتو ليحصلوا على موافقته أولا وفى مدينة تقع على الضفة الشرقية لنهر الفولجا تقابل الراهب روبروك مع القائد المغولى باتو الذى كلفه بمتابعة رحلته للحصول على موافقة من الامبراطور المغولى منجوخان (٦٤٦-٦٥٥/١٢٤٨-١٢٥٧).

وقد واصل الراهب روبروك رحلته فى رجب عام ٦٥١/ سبتمبر ١٢٥٢ مع رفيقيه على طول نهر الفولجا لمقابلة مانجوخان وفى صحبتهما مرشد أرسله باتو معهم ليدلهم على الطريق وبعد نحو ثلاثة أشهر وصلوا إلى قصر مانجوخان قرب قراقورم العاصمة المغولية فى شوال عام ٦٥١/ ديسمبر من نفس العام ١٢٥٢. وبعد مقابلة روبروك مع مانجوخان أدرك أن سياسة المغول تهدف إلى كسب ود أصحاب الأديان جميعهم دون تمييز دين على آخر ولم يكن هناك ما يدعو إلى الاعتقاد بأن الخان الأعظم لديه أى استعداد للدخول فى الدين المسيحى. وقد أفصح مانجوخان أن ما يعتقده هو أنه يوجد إله واحد وأن القلوب تتجه إليه بإخلاص. وكما أن أصابع اليد مختلفة فإن لكل دين طريقة للعبادة والمسيحيون وقد منحوا الكتاب المقدس ولكنه لا يتبعونها. كما أن الشامانيين من البوذية يتبعون ما أمروا به ولذلك فهم يعيشون فى أمن وطمأنينة نفس.

وفى عام ٦٥٢/ ١٢٥٤ أخذ مانجوخان فى ركابه مبعوثى الصليبيين عند توجهه إلى العاصمة المغولية قراقورم ، وفى عودة الراهب روبروك بعدما تلقى رد الخان الأعظم ودع زميليه برثولماوس دى كريمونا ونيقولا ليقوما

بالتبشير بالكاثوليكية بين المغول، بدأ الراهب رحلة العودة حتى وصل إلى عكا في أرض الشام في عام ١٢٥٥/٦٥٣.

وعلى الرغم من أن الصليبيين لم يتمكنوا من دفع المغول إلى الدخول في المسيحية كما كانوا يأملون إلا أن اليأس لم يملكهم من أن تقف المغول معهم في صراعهم ضد الإسلام، وظلوا في طريقهم الذي ساروا عليه في مداومة الاتصال بالمغول عسى أن يوفقوا في تحقيق أهدافهم يوما ما.

على أن الأسباب التي اضعفت من الدور التبشيري للمسيحيين هو شدة التنافس بين المذهب الكاثوليكي والمذاهب الأخرى الشرقية من الأرثوذكسية والنسطورية والأرمن التي وصلت أنبأها إلى الزعماء المغول أنفسهم الأمر الذي أضعف من موقف المسيحيين بشكل عام بين زعماء المغول.

ثم تبع ذلك في أوائل القرن الثامن الهجري/١٤م دخول إيلخانات المغول في الإسلام وأعلن المغول إسلامهم ديناً رسمياً لهم.

وعلى الرغم من استمرار الاتصال الصليبي بالمغول فقد أعطى الملك لويس التاسع إهتمامه الكبير وعنايته بالإمارات الصليبية في الشام من الناحيتين صيانة المدن والقلاع وتجديدها للتغلب على الحملات العسكرية الموجهة إليهم من المسلمين ومراقبة أحوال المجتمع الصليبي وجعله متماسكا متحداً.

لقد جعل الملك لويس التاسع من تواجده في الشام بعد فشله في حملته على مصر، هدفه الأكبر هو إعادة بيت المقدس إلى الصليبيين، وكانت

محاولاته الإتصال بالمغول هدفا آخر هو تقوية التواجد الصليبي فى الأراضى المقدسة والتغلب على القوى الإسلامية جميعها فى مصر والشام.

لقد شرع الصليبيون بزعامة الملك لويس التاسع فى تحصين المدن الساحلية حيث الممتلكات الصليبية شكلت الشريط الساحلى، حيث تعذر عليهم مهاجمة المدن الداخلية، مثل حلب وحماه وحمص ودمشق التى بقيت جميعها فى يد المسلمين، وكانت تحيط بالإمارات الصليبية من الشمال والشرق والجنوب، وهكذا انحصر النفوذ الصليبي فى الساحل الشامى الذى ليس له طريق غير البحر وهذا ما دفع بالصليبية إلى جعل هذه الإمارات ذات استحکامات قوية.

فمثلا مدينة عكا التى جعل منها الصليبيون عاصمة لهم فى الشام بعد فقدهم بيت المقدس فى عهد الصالح أيوب إهتم الملك لويس التاسع فيما بين عامى ٦٤٨، ٦٤٩ / ١٢٥٠، ١٢٥١ بإعادة تحصينها حتى تعذر على قوات الناصر يوسف مهاجمتها.

وفى محرم عام ٦٥١ / مارس ١٢٥٣ أعاد الملك لويس تحصين قيسارية فى عهد حاكمها يوحنا أليمان فجعلها محاطة بأسوار عالية وأبراج منيعة. وقد استمر العمل فى المدينة اثنتى عشر شهرا، كما حظيت مدينة حيفا باهتمام الملك لويس الذى قام بتحصينها باعتبارها من المدن الساحلية الهامة التى لها مرسى للأساطيل البحرية.

وفى صفر ٦٥١ / ابريل ١٢٥٣ إتجه الملك لويس إلى يافا المدينة الساحلية التى تبعد ستة أميال شمال غربى الرملة وفى المرسى الكبير ليافا

كانت تفد المراكب القادمة إلى فلسطين والتي تغادرها إلى البلاد الأخرى، مما جعل ليافا حق وصفها بأنها «خزانة فلسطين».

ولم يكن لمدينة يافا أسوار وأبراجا وخنائق حولها لحمايتها من هجمات المسلمين عليها، فأقام الملك لويس الأسوار لهذه المدينة لحمايتها من التعرض لهجمات الأعداء.

وفى ربيع الأول عام ٦٥١/ يوليو ١٢٥٢ سار الملك لويس إلى صيدا وأصلح ما أفسدته هجمات القوات الشامية وقام ببناء الأسوار والأبراج والخنائق وجعل المدينة محصنة ضد الهجمات الحربية وقد بلغ اهتمام الملك لويس بالعناية بالإمارات الصليبية الغاية حتى ظلت صامدة ضد غارات القوات الشامية خاصة بعد قيام الوحدة الإسلامية بين مصر والشام فى عام ١٢٥٢/٦٥١.

على أن الملك لويس لم يجعل اهتمامه بالإمارات الصليبية قاصرا على صيانة المباني وبناء الأسوار والقلاع بل إنه عمل على ضم صفوف القوى الصليبية ومنع التفرقة أو الانقسام بين القادة والأمراء من رجال الحكم والفرسان المحاربين.

فقد أصلح لويس التاسع ما بين الإمارات الصليبية من إنقسامات وخلافات مستمرة بلغت حد حمل السلاح والإقتتال بين الجماعات المتعددة المذاهب، وكذلك بلغ التنافس التجارى حد العداء بين البنادقة والجنوية فضلا عن العداء بين الجماعات من الرهبان وبين الداوية والاسبتارية، وقد أوشكت هذه الصراعات أن تقضى على البلاد والإمارات الصليبية. وقد كان

لتدخل الملك لويس التاسع الدور الهام الذى كثيرا ما وضع حدا لتلك الخلافات وحل محلها السلام والوثام.

وعلى الرغم من الدور الذى قام به الملك لويس التاسع لوضع الأمور فى نصابها لصالح جميع الصليبيين فى بلاد الشام إلا أن الجاليات الإيطالية التى لم تكن يشغلها إلا مصالحها التجارية، كثيرا ما أعلنت تدميرها وضيقها بما ترتب على الحروب الصليبية ضد مصر بصفة خاصة حيث أن المصريين قد أحاطوا البنادقة والجنويين بحسن المعاملة وهم قد حرموا من هذه المعاملة بعد مشاركتهم فى الحملة الصليبية السابعة بقيادة لويس التاسع فاتهموا الملك الفرنسى بأنه سبب ضياع مركزهم التجارى الممتاز مع مصر وخسارتهم وقد بلغ بالبنادقة والجنويين الحنق على الصليبيين أنهم تعدد هجومهم على السفن الصليبية وكانوا يستولون على ممتلكاتهم إنتقاما لما حدث لهم من أضرار مادية جسيمة عقب الحملة الصليبية على مصر.

لم يستمر الوثام بين الإمارات الصليبية طويلا حيث تجددت المنازعات والخصومات بين المتخاصمين ولم تفلح الوساطات والمحاولات لإصلاح ما بين الأطراف المتنازعة حتى انتهى أمر الصليبيين فى أواخر القرن السابع الهجرى/ ١٣م إلى أنهم ذهبوا مع الريح بعيدا عن المقدسات الإسلامية وأرض الشام وعادوا ثانية إلى بلادهم الأصلية.

لقد صرفتهم الخلافات المذهبية بين الأرثوذكس والكاثوليك حتى تغلب الإغريق الأرثوذكس على اللاتين الكاثوليك ولم يكن الأمر قاصرا فى المجتمع الصليبي على الخلافات الدينية وإنما تعداه إلى الانحلال الخلقى وإرتكاب

الآثام وانتشرت الخطيئة وصارت بيوتا بأكملها تدار للفساد.

كما أن بارونات الإمارات الصليبية وكبارهم لم يكونوا ينتقادون لأحد وكثيرا ما خرجوا عن النظام المعتاد في البلاد دون أى اعتبار لكبير يردعهم عن غيهم.

أما الجماعات الرهبانية العسكرية فقد صارت مستقلة ولها جيوشها ومواردها المالية الخاصة ولها سياستها الخارجية التى تسييرها وفق مصالحها الذاتية حتى لو تعارضت تلك السياسة مع مصلحة الإمارات الصليبية الأخرى.

وفى سنوات تواجد الملك لويس التاسع فى الأرض الشامية كثيرا ما كان يتدخل لضبط الأمور حتى لا تخرج عن نطاق التنسيق فيما بين القوى الصليبية الموزعة فى مختلف الأنحاء.

وقد تابع الغرب الأوروبى مساعدته لجيوشه التى بُعث بها إلى الأراضى المقدسة، فأرسل إليهم الأموال وأغدقها عليهم لمعاونتهم على مواصلة حياتهم المعيشية فى سهولة ويسر. ومع ذلك كان للملك لويس عمله الخاصة، وكذلك استخدام الأمراء الصليبيين عملات خاصة بهم. كما استخدموا العملة الإسلامية التى ضربت فى دار صناعتهم فى عكا، وقد ضربت عمله صليبية مكتوبة باللاتينية والعربية أيضا بمعرفة البنادقة. وذلك عندما اعترض بابا روما على العملة الإسلامية المتداولة بين الصليبيين.



بعد فشل حملة لويس التاسع على مصر، ويعد انسحاب من مصر وقدمه إلى الشام، وفي الشام قدم خدماته للمجتمع الصليبي وتمكن من عمل إصلاحات في شتى الاتجاهات. وفكر في إمكان تحقيق هدفه الذي رحل من أجله من بلاده متجها إلى الشرق وأدرك أن تحقيق ذلك الهدف أمر صعب المنال، ولكنه على أية حال استطاع أن يخدم مجتمعه في أمور لم يكن من السهل على أحد آخر غيره أن يقوم بها.

وفي صفر عام ٦٥٢ / أبريل ١٢٥٤ بدأ رحلة العودة إلى بلاده، بعدما علم بوفاة أمة الملكة بلانش وكانت على درجة عالية من الكفاءة مكنتها من حكم فرنسا بجدارة، فكان لموتها وقع الصاعقة حيث أن القدر قد فرض على الملك لويس التاسع أن يسرع بالخطى بالعودة إلى فرنسا حتى لا تتفاقم الأمور ويفلت الزمام بعد وفاة الملكة الأم التي حملت عبء حكم البلاد فترة غياب أبنها الملك في بلاد الشرق.

لقد بذل الملك لويس في بلاد الشام جهده للدفاع عن المجتمع الصليبي، كما أرسى قواعد لإصلاح أحوال هذا المجتمع من الناحية الإدارية والاجتماعية ومحاربة الفساد والرنيلة. لقد استخدم الملك في خلال تواجده بين الإمارات اللاتينية في الشام، السياسة والدبلوماسية بهمة وذكاء أوصله إلى تحقيق ما أراد من الاستقرار والمصالحة بين صليبي الشام من اللاتين ومسيحي الشرق من أصحاب المذاهب المسيحية المتعددة.

كما أنه أوشك أن يحقق هدفه في الإسنيلاء على بيت المقدس بعد أن عقدت معاهدة قيسارية مع أمراء مصر حيث تعهدوا للملك بالتنازل عن القدس مقابل إنضمامه إليهم ضد الأيوبيين في الشام، لولا أن الخليفة

العباسي في بغداد تدخل بين القوتين الإسلاميتين واستطاع أن يعيدهما بعد الصلح بينهما إلى جبهة إسلامية رشيدة أفسدت خطة الملك الفرنسي لويس التاسع وأضاعت عليه الفرصة التي كاد أن يصل إليها وظل بيت المقدس في يد المسلمين بعيدا عن متناول الصليبيين.

وقد وجد الملك لويس التاسع مجالا للنشاط التبشيري وإقامة علاقات بينه وبين الشعب المغولي في بلاد الشرق الأقصى عله يجد وسيلة تمكنه من تحقيق انتصار يعيد إلى الصليبيين بيت المقدس.

لقد بلغ الحماس الديني بالملك لويس التاسع الغاية فهو قد ترك عرش فرنسا، ليجاهد في سبيل استرجاع بيت المقدس وهو بعد عودته من حملته الحربية ضد مصر ثم العروج إلى عكا في بلاد الشام لبضع سنوات قبل عودته إلى بلاده، لم ينس حلمه في الإستيلاء على بيت المقدس.



ظل الملك لويس في فرنسا منذ عودته إليها في جمادى الأولى ٦٥٢/ يوليو ١٢٥٤ حتى عام ٦٦٦/ ١٢٦٧ وعاد إلى حمل الصليب مرة ثانية ليعيد نفسه لحملة صليبية على تونس هذه المرة.

ففي عام ٦٦٩/ ١٢٧٠ قاد الحملة الصليبية متجها إلى تونس تمهيدا للزحف على مصر رأس الحربة في الدفاع عن الشرق الإسلامي حتى يتمكن من إحتواء بيت المقدس في سهولة ويسر، لولا أنه فاضت روحه وهو على حدود تونس في محرم عام ٦٦٩/ أغسطس ١٢٧٠م.

ولم يبلغ أحد من شعب أوروبا ما بلغه لويس التاسع من الحماس المتدفق لمحاربة المسلمين، فقد فتر حماس الغرب الأوربي بعد موت لويس الملك الفرنسي، وأدرك الصليبيون فى الإمارات الصليبية فى الشام ضعف الروح الدينية فى أوروبا لمساعدتهم كسابق عهدهم، مما ترتب عليه أن النزعات الداخلية بدأت تطل برأسها بينهم من جديد. فى الوقت الذى استطاع المسلمون تحقيق النصر المؤزر على المغول فى معركة عين جالوت بأرض فلسطين فى عام ٦٥٨ / ١٢٦٠ ثم اتجهوا بعدها إلى الصليبيين ليسدوا إليهم الضربات القاتلة. حتى تم طردهم فى عهد الأشرف خليل سلطان مصر المملوكى فى عام ٦٩٠ / ١٢٩١ حيث لم يعد لهم مكان بعدها فى أرض الإسلام.

على أن فكرة الحروب الصليبية ظلت قائمة فى عقل الغرب الأوربي لغزو الشرق الإسلامى.



بعد ظهور الدولة العثمانية كقوة إسلامية فتية عالية الهمة طاقة طاغية هى التى أعادت للإسلام قوته وأسعفته إلى الوقوف فى مواجهة التيارات المدمرة وصدها والتغلب عليها وقهرها.

أثارت انتصارات العثمانيين المتلاحقة فى آسيا الصغرى والتى امتدت إلى أوروبا ذاتها أثارت خوف أوروبا الغربية فقام البابا بونيفاسيوس التاسع يدعو للحرب ضد المسلمين فى أنحاء أوروبا وإذا بالحملات الصليبية تظهر فى الأفق من جديد وتمكن سيجسمون ملك المجر من أن يجمع فى

بودا فى عام ٧٩٩ / ١٣٩٦ جيشا كبيرا من الفرسان جاؤا إليه من بلدان أوروبا لكن كان حماس هؤلاء الفرسان للقتال ضد للمسلمين فائرا .

لذا فقد الحق العثمانيون بقيادة بايزيد الأول (٧٩٢-٨٠٦ / ١٣٨٩-١٤٠٢) هزيمة ساحقة بالحملة الصليبية التى قادها البابا وملك المجر وفرنسا وذلك فى موقعة نيقوبوليس عام ٧٩٩ / ١٣٩٦ .

وحتى القرن العاشر الهجرى/ السادس عشر الميلادى كانت الدولة العثمانية قد بلغت أوج مجدها وعظمتها حيث صارت أقوى دول أوروبا والعالم من الناحية الحربية ولكن هذه القوة كانت آخذة فى الانحلال لانحلال نظمها الداخلية من ناحية وعدم مجاراتها روح العصر. ولظهور الروح القومى ونموه والحروب الكبيرة الكثيرة التى خاضتها والعداء المقيم بينها وبين روسيا والنمسا فقد كانت سياسة روسيا خلال القرنين الثانى عشر والثالث عشر الهجريين/ ١٨ ، ١٩ م. عاملة على تقويض ملك آل عثمان وتقسيم دولتهم. أصبحت تركيا منذ النصف الثانى للقرن الثالث عشر الهجرى/ التاسع عشر الميلادى رجل أوروبا المريض ولكن ممتلكاتها ما برحت شاسعة فى البلقان وفى اسيا الصغرى وشرقى البحر الأبيض المتوسط بما فيه العراق وبلاد العرب، ومعظم الساحل الأفريقى الشمالى إلى حدود مراكش . ولكن كانت معظم ولاياتها كانت قد أصبحت شبه مستقلة عن الدولة أو خاضعة للنفوذ الأجنبى. فلقد كانت العرب مستقلة فعليا، واعترفت الدول باستقلال اليونان واستقلت مصر فعليا تحت السيادة العثمانية فى ظل أسرة محمد على. ثم أصبحت فريسة للأطماع الأوربية واتفقت انجلترا وفرنسا على فرض شبه حماية مشتركة على مصر فى عام ١٢٩٢ / ١٨٧٥ .

كما استولى الفرنسيون على الجزائر في عام ١٢٤٦ / ١٨٢٠ متحد بين الدولة العثمانية وتوسعوا فيها وثبتوا أقدامهم بعد القضاء على الحركة الوطنية التي قام بها الأمير عبد القادر الجزائري. وحالة تونس لا تختلف عن حالة مصر فالتدخل الأوربي المستمر السياسى والاقتصادى، جعل من تونس ملكا مشاعا للمغامرين الأجانب، ثم الاحتلال الأوربي. لقد اتفقت الدول الأوربية الكبرى على الاستيلاء على البلاد الضعيفة.

وأما الدولة العثمانية فلقد قسم جانب كبير من ممتلكاتها البلقانية بين الدول الأوربية التي عملت على طرد الأتراك من أوربا والعمل على قتل كل حركة إصلاح سياسى أو اقتصادى أو اجتماعى أو تشريعى فى الدولة العثمانية حتى يكون مصيرها إلى التدهور النهائى وسقوطها. لقد اتفقت الدول الأوربية على الدولة العثمانية والبلاد الإسلامية التابعة لها.

وفى محاولة من العثمانيين وخاصة السلطان عبد الحميد بفكرة الجامعة الإسلامية، حيث عمل على تماسك ممتلكات الدولة العثمانية الإسلامية بعد أن زعزعتها الحرب الروسية التركية وبعد أن اقتطعت معظم أجزاءها البلقانية الأوربية، وبعد أن هددتها أطماع إنجلترا وفرنسا. فكان السلطان عبد الحميد يرمى إلى ضم رأى العام الإسلامى إلى جانب تركيا فى محتتها. ووجد السلطان عبد الحميد من يؤيد فكرته من المفكرين أمثال جمال الدين الأفغانى . واتخذ السلطان من إحياء الخلافة الإسلامية القديمة وسيلة لدعم فكرته وتهديد الدول الغربية. ولكن الجامعة الإسلامية نفسها كانت مجرد فكرة ولم تكن نظاما قائما فعلا . مع ذلك فقد خشيت إنجلترا وفرنسا على ما استولوا عليه من البلاد الإسلامية وبادرت كل دولة إلى

مقاومة الجامعة الإسلامية بكل سبيل وإلى محاولة تقطيع الدولة العثمانية المسلمة إلى الإنتقاص من هيبتها أمام الشعوب الإسلامية. فكان إحتلال فرنسا لتونس وتوسعهم فى قلب القارة الأفريقية وتهديدهم لمراكش واحتلال انجلترا لمصر وتوطيد دعائم نفوذهم على أطراف الجزيرة العربية. وفى الهند وفى افريقيا وآسيا، ثم القضاء على الحركة المهدية فى السودان فظهر للعالم الإسلامى أن الخلافة الإسلامية فى شكلها العثمانى غير قادرة على حماية ممتلكاتها الإسلامية وأنها وقفت عاجزة مكتوفة الأيدى أمام الحملات الصليبية الأوربية وخاصة انجلترا وفرنسا.



لقد كانت الإمبراطورية العثمانية مكروهة من الدول الأوربية، من روسيا والنمسا وفرنسا وانجلترا، فقد كان العثمانيون يمثلون المد الإسلامى بعد سقوط بيزنطة تحت السيطرة العثمانية ثم احتلالهم لمنطقة البلقان جميعها حتى قلب أوربا. وهى فى نفس الوقت تشغل منطقة بالغة الأهمية فهى نقطة اتصال بين الشرق و العرب. خاصة بعد أن انفتحت مستعمرات الشرق لصناعة الغرب وتجارته.

لقد ظلت أوربا تتآمر ضد الإسلام والمسلمين فتعمل على إضعاف العثمانيين، فى الداخل وتستغل الفرص للحصول على الإمتيازات ويث الفتن الدينية والعنصرية فى العالم الإسلامى والأدلة على ذلك كثيرة. فهم إذا قامت فى الدولة العثمانية حركة تجديدية وقفوا إلى جانب الباب العالى ضد الحركة الإصلاحية، لأنهم كانوا يعملون على بقاء الدولة العثمانية (رجل

أوروبا المريض) فهم كانوا يريدون موتها ويتربصون بها حتى يفتتوها حتى لا تسترد قوتها.

لقد تحالفت أوروبا جميعها ضد محمد علي حاكم مصر عام ١٢٥٥/١٨٣٩ وقت أن كان يمثل قوة فتية ناهضة كما تحالفت أوروبا كذلك ضد محمد علي الكبير عندما حاول جمع العرب في وحدة متميزة عن الدولة العثمانية فعملت إنجلترا على تأليف الدول ضد مصر فارسلت إنجلترا والنمسا وروسيا وفرنسا وبروسيا مذكرة مشتركة في ربيع الأول عام ١٢٥٥/ يونيو ١٨٣٩ للسلطان العثماني لمنعه من عقد صلح مع محمد علي. وفي ربيع الآخر ١٢٥٦/ يوليو ١٨٤٠ اتفقت إنجلترا وروسيا وبروسيا والنمسا وتركيا على مساعدة السلطان العثماني ضد محمد علي إذا لم يقبل بشروط الدول الأوربية التي تمت في إتفاقية عام ١٢٥٦/١٨٤٠.

كذلك تحالفت أوروبا على خداع الثورة العربية بعد ذلك في الحرب العالمية الأولى خدعة منها للعرب أنها ستحقق أملها في استقلال المشرق العربي موحدًا بينما كانوا قد وقعوا بالفعل معاهدة سيكس بيكو ١٢٣٥/ ١٩١٦ لتقسيم المشرق العربي إلى دول وتناهموا بالفعل مع الحركة الصهيونية لإعطائها فلسطين. وقد كان.

إن أوروبا تعمل على مقاومة ظهور أي قوى جديدة فالتقسيم والإبقاء على عوامل الإنقسام بين العرب أحد الأسلحة التي تواجه الأمة العربية من قبل الدول الكبرى وعلى ذلك فإن مجرد إحتمال قيام قوة عربية كبرى ما يثير مقاومة الآخرين.

ومن ذلك فإن تلك القوى العالمية الكبرى لاتقبل بسهولة فكرة قيام دولة أو كيان أو كتلة قوية متراسة. مترابطة ممتدة من المحيط إلى الخليج فالأمة العربية تقع فى قلب العالم فهى تشرف على الخليج والمحيط الهندى، وتحكم البحر الأحمر جميعه، ولها نصف شواطئ البحر الأبيض المتوسط وتطل شواطئها على المحيط الأطلسى فضلا عن أكبر وأهم مخزون عالمى لأهم سلعة استراتيجية فى العالم وهى البترول.

والحقيقة التى تبدو واضحة كالشمس هى أن العرب مازالوا يعيشون فى جو الحروب الصليبية وذلك لأن الغرب يريد أن يرى عالما عربيا ضعيفا. لأن عالما عربيا موحدا يعنى إضعاف الغرب. فرواسب الحروب الصليبية مازال قائمة ووحدة العرب تقلق الغرب على وجه الإطلاق وعلى العرب أن يستفيدوا من التاريخ ويناقشوه ويكشفوا أخطاءهم ويستفيدوا منها ويشيدوا ببطولاته فى نفس الوقت لينفتح الطريق أمامهم إلى المسجد والنصر.

..



المصادر والمراجع

المراجع العربية

إبن الأثير الجزرى (ت ٦٣٠هـ = ١٢٣٢م) أبو الحسن بن أبى الكرم... الملقب عز الدين:

١- منتخبات من كتاب الكامل فى التاريخ . انظر . R.H.C.-H. Or., t.I. Paris, 1872, et t. II, Ire. Partie Paris, 1887.

٢- تاريخ الدولة الأتابكية ملوك الموصل أنظر R.H.C-H Or., t. II. Ire. Partie Paris, 1976. (pp. 5-375).

ابن اياس (ت ٩٣٠هـ / ١٥٢٣م) ابو البركات محمد بن أحمد .
كتاب تاريخ مصر، المعروف ببدايع الزهور فى وقائع الدهور - ٤ ج- الطبعة الأولى - القاهرة (بولاق) ١٣١١-١٢١٤هـ

ابن بطوطة (ت ٧٧٩هـ / ١٣٧٧م) أبو عبد الله محمد بن عبد الله
مهذب رحلة ابن بطوطة للسماء تحفة النظار فى غرائب الأمصار. وعجائب الأسفار - ٢ ج- القاهرة (بولاق) ١٩٣٤-١٩٣٧م.

ابن جبير (ت ٦١٤هـ / ٢١٧م) ابو الحسن محمد بن أحمد الأندلسى : رحلة ابن جبير - قام على نشرة وليم رايت - الطبعة الثانية - ليدن (بريل) ١٩٠٧م.
ابن الجيعان (ت ٨٨٥هـ / ١٥٨٠م) شرف الدين يحيى بن المعز. التحفة السنية بأسماء البلاد المصرية - القاهرة (بولاق) ١٣١٦هـ / ١٨٩٨م.

المهلبى (عاش فى القرن الرابع هـ/ العاشرم) ابو الحسن المهلبى
كتاب المسالك والممالك ، ويعرب بالكتاب العزيزى
ناصر خسرو علوى (ت ٤٥٣هـ / ١٠٦١م) أبو معين الدين
سفر نامه - نقله إلى العربية وقدم له وعلق عليه الدكتور يحيى الخشاب - الطبعة الأولى - القاهرة (مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر) ١٣٦٤هـ /

١٩٤٥م.

اليافعى اليمنى (ت ٧٦٨هـ / ١٣٦٦م) أبو محمد عبد الله بن اسعد بن على بن سليم : مرآة الجنان وعبرة اليقظان فى معرفة ما يعتبر من حوادث الزمان - ٤ ج- الهند (مطبعة دائرة المعارف النظامية الكائنة بمدينة حيدر اباد الدكن) ١٢٢٧هـ.

ياقوت الرومى الحموى (ت ٦٢٦هـ / ١٢٢٨م) أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الملقب شهاب الدين.

معجم البلدان - ٤ ج- وفهرس - لينرج ١٨٦٦-١٨٧٠م.

اليعقوبى (ت ٢٨٤هـ / ٨٩٨م) أحمد بن أبى يعقوب بن جعفر بن وهب ابن واضح: كتاب البلدان.

أحمد بن زينى دخلان :

الفتوحات الإسلامية - ٢ ج- القاهرة (المطبعة الحسينية والمطبعة الشرقية) ١٢٢٢هـ.

أحمد عارف الزين : تاريخ صيدا - صيدا (مطبعة العرفان) ١٣٣١هـ.
ارنولد (سيرتوماس) :

الدعوة إلى الإسلام - ترجمة إلى العربية الدكتور حسن إبراهيم حسن
وعبد المجيد عابدين واسماعيل النحراوى - القاهرة (مطبعة الشبكشى بالأزهر) ١٩٤٧م.

الاسحاقى :

لطائف أخبار الأول فيمن تصرف فى مصر من أرباب الدول -
القاهرة (المطبعة الميمنية) ١٣١٠هـ.

اسطفان الدويهى :

١- تاريخ الطائفة المارونية - عنى بطبعة وعلق حواشيه رشيد الخورى الشرتونى
- بيروت (المطبعة الكاثولوليكية للآباء اليسوعيين) ١٨٩٠م.

٢- سلسلة بطارقة الطائفة المارونية - نشرها رشيد الشرتونى - أنظر مجلة المشرق - السنة الأولى - ١٨٩٨م ص ٢٤٧-٢٥٢ و ٢٠١-٢١٣ و ٢٤٧-٢٥٢، ٢٩٠-٢٩٦.

اسماعيل سرهنك :

حقائق الأخبار عن دول البحار - ٢ ج - القاهرة (بولاق) ١٣١٢-١٣١٤هـ.

انطون خانجى :

مختصر تواريخ الأرمن - اورشليم (دير الالباء الفرنسيسكانيين) ١٨٦٨م.

باركر (ايرنست) :

الحروب الصليبية - عربة على أحمد عيسى - أنظر : ترات الإسلام الجزء الأول ص ٨١-١٤٧ - القاهرة (مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر) ١٩٣٦م.

جرجى بنى :

تاريخ سوريا - بيروت (المطبعة الأدبية) ١٨٨١م.

جمال الدين الشيال (الدكتور) :

مجلد تاريخ دمياط - الاسكندرية (مطبعة مدرسة دون بوسكر) ٩٤٩م.

جوزيف نسيم يوسف (بكتور) :

١- العرب والروم واللاتين فى الحرب الصليبية الأولى - الطبعة الثانية - الاسكندرية (دار المعارف) ١٩٦٧.

٢- الوحدة وحركات اليقظة العربية إبان العدوان الصليبي - الإسكندرية (دار المعارف) ١٩٦٧.

٣- العدوان الصليبي والرأى العام الغربى - محاضرة من سلسلة المحاضرات العامة بجامعة الاسكندرية للعام الجامعى ١٩٦٨/٦٧ -

- الاسكندرية (مطبعة جامعة الاسكندرية) ١٩٦٨ (ص ٢٩-٥٢).
- ٤- العدوان الصليبي على مصر : هزيمة لويس التاسع فى المنصورة وفارسكور الاسكندرية (دار الكتب الجامعية) ١٩٦٩ .
- حسن إبراهيم حسن (الدكتور) :
- انتشار الإسلام بين المغول والتتار - القاهرة (المطبعة المتوسطة بالعشماوى) ١٩٣٣ .
- حسن حبشى (الدكتور) :
- ١- الحرب الصليبية الأولى - الطبعة الأولى - القاهرة (مطبعة الاعتماد) ١٩٤٧م، والطبعة الثانية (القاهرة ١٩٥٨).
- ٢- نور الدين والصليبيون - القاهرة (مطبعة الاعتماد) ١٩٤٨م.
- ٣- الشرق العربى بين شقى الرحى - حملة القديس لويس على مصر والشام - القاهرة (مطبعة الاعتماد) ١٩٤٩م.
- الديار بكرى :
- الخميس فى أحوال أنفيس نفيس - ٢ج- القاهرة (المطبعة العثمانية) ١٣٠٢هـ .
- رباط انطون :
- العلاقات بين الشرق والغرب - أنظر مجلة المشرق - السنة الرابعة عشرة ١٩١١م العدد ٧ ص ٥٤٨-٥٥٢ .
- الرمزى :
- تلفيق الأخبار وتلقيح الآثار فى وقائع قران وبلغار وملوك اختار - ٢ج- أورنبورغ (المطبعة الكريمة والحسينية) ١٩٠٨م.
- زكى محمد حسن (الدكتور) :
- الرحالة المسلمون فى العصور الوسطى - القاهرة (دار المعارف بمصر) ١٩٤٥م.

سعيد عبد الفتاح عاشور (دكتور)

١- قبرس والحروب الصليبية - القاهرة (مكتبة النهضة المصرية) ١٩٥٧.

٢- الحركة الصليبية - صفحة مشرقة في تاريخ الجهاد العربى فى العصور

الوسطى - جزآن - القاهرة (مكتبة الانجلو المصرية) ١٩٦٢.

سيد أمير على

مختصر تاريخ العرب والتمدن الإسلامى - نقله إلى العربية رباح رأفت -

القاهرة (مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر) ١٩٢٨م.

طوبيا العيسى :

سلسلة تاريخية للبطاركة الأنطاكيين الموارنة - رومية (مطبعة السناتو)

١٩٢٧م.

على إبراهيم حسن (الدكتور) :

مصر فى العصور الوسطى من الفتح العربى إلى الفتح العثمانى -

القاهرة (مطبعة الاعتماد) ١٩٤٧م.

على مبارك :

الخطط التوفيقية الجديدة لمصر القاهرة ومدنها وبلادها القديمة والشهيرة،

وتعرف بخطوط على مبارك - ٢٠ ج - القاهرة (بولاق) ١٢٠٤-١٢٠٦هـ.

عمر طوسون :

كتاب مالية مصر من عهد الفراعنة إلى الآن - الاسكندرية (مطبعة صلاح

الدين الكبرى) ١٢٥٠هـ / ١٩٣١م.

غوستاف لوبون (الدكتور) :

حضارة العرب - نقله إلى العربية محمد عادل زعيتر - القاهرة (دار

إحياء الكتب العربية) ١٢٦٤هـ / ١٩٤٥م.

فشر (هـ. أ.ل.)

تاريخ أوربا فى العصور الوسطى - القسم الأول - نقله إلى العربية
الدكتور محمد مصطفى زيادة والدكتور السيد الباز العرينى - القاهرة
(دار المعارف بمصر) ١٩٥٠م.

فنسك (أ.ى) :

مفتاح كنوز السنة، هو معجم مفهرس عام تفصيلى وضع للكشف عن
الأحاديث النبوية الشريفة المدونة فى كتب الأئمة الأربعة عشر الشهيرة -
نقله إلى العربية محمد فؤاد عبد الباقي - القاهرة (مصلحة مصر)
١٣٥٣هـ / ١٩٣٤م.

فيليب حتى (الدكتور) :

تاريخ العرب - ٢ ج - ترجمة محمد مبروك نافع - الطبعة الثانية -
القاهرة (مطبعة العالم العربى) ١٩٤٩م.

كارل بروكلمان :

تاريخ الشعوب الإسلامية - نقله إلى العربية نبيه أمين فارس ومنير
البلعكى - ٣ ج - بيروت (دار العلم للملايين) ١٩٤٨-١٩٤٩م.

كامل بن حسين الشهير بالغزى :

نهر الذهب فى تاريخ حلب - ٣ ج - حلب (المطبعة المارونية) ١٣٤٢هـ.

لويس شيخو :

١- مجلة المشرق - صاحب امتيازها الاب لويس شيخو - من السنة الأولى
إلى السنة السادسة والعشرين - بيروت (المطبعة الكاثوليكية للآباء
اليسوعيين) ١٨٩٨-١٩٢٨م.

٢- النصرانية بين قدماء الاتراك والمغول - أنظر مجلة المشرق - السنة
السادسة عشرة - ١٩١٣م - العدد ١٠ ص ٧٥٤ - ٧٧٢.

- ٣- أثر جديد لقدماء النصارى فى الصين - أنظر مجلة المشرق - السنة العشرين - ١٩٢٢م - العدد ١١ - ص ٩٢٩-٩٣٨.
- ٤- جولة فى الدولة العلوية - أنظر مجلة المشرق - السنة ٢٢-١٩٢٤م- العدد ٧ ص ٤٨١-١٩٣.
- ٥- بيروت أخبارها وأثارها أنظر مجلة المشرق السنة ٢٣ - ١٩٢٥م الأعداد ١ ص ٤٤- ٥٤ و ٢ ص ١٤٤-١٥٠ و ٣ ص ١٩٤- ٢٠٤ و ٤ ص ٢٩٨-٢٩٢ و ٥ ص ٢٧٢-٢٧٧ و ٦ ص ٤٥٨-٤٦٣ و ٧ ص ٥١٧-٥٢٣ و ٨ ص ٦١٨- ٦٢٥ و ٩ ص ٦٦٨- ٦٧٢ و ١٠ ص ٧٧٤- ٧ و ١١ ص ٨٦٤ - ٨ و ١٢ ص ٩٤٤-٨.
- ٦- نبذة فى ترجمة وتأليف العلامة غريغوريس أبى الفرج بن امرون الطبيب الملطى المعروف بابن العترى - بيروت (مطبعة الآباء اليسوعيين) ١٨٩٨م. لينبول (ستانلى).
- سيرة القاهرة - ترجمة عن الانجليزية الدكتور حسن ابراهيم حسن والدكتور على ابراهيم حسن وابوار حليم - القاهرة ١٩٥٠.
- مارى جوزيف الكرملى
- حيفا : ماضيها ومستقبلها - أنظر مجلة المشرق - السنة السابعة - العدد ٢ ص ٦٨-٧٣.
- محمد راغب بن محمود بن هاشم .
- اعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء - ٧ ج - حلب (المطبعة العلمية) ١٣٤٢- ١٣٤٥هـ.
- محمد رمزي :
- استدراك على كتاب المسيو اميلينو الخاص بجغرافية مصر فى عهد القبط - القاهرة ١٩٣٥م.

محمد عبد الله عنان :

١- بين الشرق والغرب : فكرة الحروب الصليبية - مجلة الهلال - ج٧ -

السنة ٢٤- ابريل ١٩٢٦ / رمضان ١٣٤٤ - ص ٧٠٩-٧١٤.

٢- مواقف حاسمة فى تاريخ الإسلام - الطبعة الثانية - القاهرة (مطبعة دار

الكتب المصرية) ١٣٥٢هـ / ١٩٤٣م.

٣- تراجم إسلامية شرقية وأندلسية - القاهرة (دار المعارف بمصر) ١٩٤٧م.

محمد كرد على :

كتاب خطط الشام - ٦ ج فى مجلدين - دمشق (دار المطبعة الحديثة)

١٣٤٣-١٣٤٧هـ / ١٩٢٥-١٩٢٨م.

محمد مصطفى زيادة (الدكتور) :

١- المؤرخون فى مصر فى القرن الخامس عشر الميلادى (القرن التاسع

الهجرى) - القاهرة (مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر) ١٩٤٩م.

٢- حملة لويس التاسع على مصر وهزيمته فى المنصورة - القاهرة (مطبعة

لجنة التأليف والترجمة والنشر) ١٩٦١م.

مكسيموس مونروند :

تاريخ الحروب المقدسة فى المشرق المدعوة حرب الصليب - ترجمة من

الفرنسية إلى العربية مكسيموس مظلوم - ٢ ج فى مجلد واحد -

اورشليم ١٨٦٥م.

ميخائيل شاروويم :

الكافى فى تاريخ مصر القديم والحديث - ٤ ج - القاهرة (بلاق)

١٨٩٨م / ١٣١٥م.

ميخائيل عواد :

الناصر فى بلاد الروم والإسلام - مطبعة المعارف (١٩٤٨م).

منزى لامنس .

١- المذكرات الجغرافية فى الاقطار السورية - انظر مجلة المشرق -
السنة العاشرة - ١٩٠٧م - أعداد ٢ ص ١٠٥ - ١١١ و ٤ ص
١٦١-١٦٩ و ٦ ص ٢٦٥-٢٧٣ و ١١ ص ٤٥٨-٤٦٢ .

٢- السواحل اللبنانية - أنظر مجلة المشرق - السنة السابعة - العدد ٢٠
ص ٩٣٩ - ٩٤٩ .

يوحنا ابكاريوس :

قطف الزهور فى تاريخ الدهور - بيروت ١٨١٣م .

يوسف أشباخ :

تاريخ الأندلس فى عهد المرابطين والموحدين - ترجمة ووضع حواشيه
محمد عبد الله عنان - ٢ ج - القاهرة (مطبعة لجنة التأليف والترجمة
والنشر) ١٣٥٩-١٣٦٠هـ / ١٩٤٠-١٩٤١م .

يوسف اليان سركيس :

معجم المطبوعات العربية والعربية - ١٠ ج - القاهرة (مطبعة سركيس)
١٣٤٦-١٣٤٩هـ .

يوسف الدبس :

تاريخ سورية - ٨ ج - بيروت ١٨٩٣ - ١٩٠٥م .



المراجع الأجنبية

- 1 - Histoire de Saint Louis. Texte original du XIVe Siècle, accompagné d'une traduction en Français moderne par M. Natalie de Wailly, Paris, 1874.
 - 2- Memoirs of Louis IX king of France (commonly called Saint Louis) An English Translation by Colonel Johnes of Hafod. Cf. Chronicles of the Crusades Bohn's ed. pp. 341-555. London, 1848.
 - 3- Saint Louis, King of France, tr. into English by James Hutton London, 1868.
- Louis IX (St. Louis).
1. St. Louis nolis seizo navires génois pour sa première croisade. Ed. A.O.L, t. oo. Paris, 1884. (pp. 232-6).
 - 2- Ludoviei regis de capitione et liberatione sua epistols. Ed. G.D.F., t. I, pp. 1196-1200.
 - 3- Lettre de St. Louis sur sa captivité et sa délivrance. Franch tr. by Michaud, Crois, t. IV. Paris, 1822 (pp. 619-631).
- Matthew of Westminster. The Flowers of History, 2 vols. London, 1853.
- Melun, Guy de, Lettre a B. de Carn., sur la prise de Damlette. Trad. en Fr. par Michaud, Crois., t.IV. Paris, 1822 (pp. 611-9).
- Michelle Syrien, Etrait de la chroniquis de Michel le Syrien. Ed. R.H.C. - Doc. Arm., t.I. Paris, 1869, (pp. 311-407).

Nangls, Guillaume de.

- 1- Vita Sancti Ludovici regis franciae. Ed. Hist. de Fr., XX, pp. 312-465.
- 2- Guillelmi de Nangiaco Chronicon (1226-1300). Ed. Hist. de Fr., XX, pp. 543-582.
- 3- Chronique Abrégée ou "Chronique des rois de France. Ed. Hist. de Fr., XX, pp. 647-653.

Padua, Guillaume de, Historiae Albigensium, auctore Guillelmo ne Podio Laurentii, Pars ultima, ab anno 1230 ad 1272. Ed. Hist. de Fr., XX, pp. 764-776.

Paris, Matthiew, Matthew Paris, English History from the year 1235 to 1273, trans. from the Latin by J.A. Giles. 2 vols. London, 1852-3.

Polo, Marco, The Travels of Marco Polo the Venetian. London, 1907. (Everyman's Library)

Regum Mansiones et itinera seeundum adscriptas cuique instumento loci et temporis notas explicata-Ludovicinoni mansiones et itinera. Ed. Hist. de Fr., XXI, pp. 408-423.

Robert le Manne, Roberti Monachi historia Iherosolimitana. Ed. B.H.C.- H.Occ., t. III, pp. 716-859. Paris, 1866.

Rothelin. Continuation de Guillaume de Tyr dite du manuscrit de Rothelin (1229-1261). Ed. R.H.C.-H. Occ., t. II, Paris, 1859. (pp. 489-639).

Sanuto, Marinus, Secrets for the Crusaders to help them to recover the Holy Land. Written in A.D.1321. Part XIV of Book III written by A. Stewart. London, 1896. Cf. Palestine Pilgrims' Text Society, XII, pp. 1-73.

St. Denis, Extraits des Chroniques de Saint-Denis, ou les Grandes Chroniques de France. Ed. Hist. de Fr, XXI, pp. 103-123.

St. - Pathus, Guillaume de.

1- Vie de Saint Louis. Ed. Hist. de Fr., XX, pp. 58-121.

2- Les miracles de Saint Louis, éd. par Percival B. Fay Paris, 1931.

Sarrasin Jean Pierre, Lettre à Nicolas Arrode, prévôt des marchands de Paris, en 1289 et 1291 sur la première croisade de Saint Louis. Ed. M. F. Michel, Hist, et chronique du très chrétien roi St. Louis. Paris, 1881 (pp. 253-313).

Tyr, Guillaume de, Willermi Tyrensis Archiepiscopi, Historia rerum in partibus transmarinis gestarum. Ed. R.H.C.-H. Occ., t.I, Ire. Partie (pp. 1-702); t. I, IIe partie (pp. 703-1134). Paris 1844.

Vartan le Grand, Extrait de l'histoire universelle de Vartan le Grand. Ed. R.H.C.-Doc. Arm., t.I, pp. 431-443. Paris, 1869.

Vitry, Jacques de, Siège de Damiette 1218 de J.C. Lettres au pape Honorius III., 1216 à 1227. Ed. Mon. Cart., t. III/fasc. IV. (pp. 936, 944).

- Viegler, Paul, The Infidel Emperor and his struggles against the pope.
A chronical of the 13 th. constury by P. Wiegler, tr. by Brian W.
Downs. London, 1930.
- Bell, M.I., A Short History of the Papacy. London, 1921.
- Berchem, Max van, Éplgraphie des Asassins de Syrie (Extrait du J.A.
Mai-Juin 1897). Paris, 1897.
- Bergr, É., Saint Louis et Innocent IV-Étude sur les Rapports de la
France et du Seint - Stège. Paris, 1893.
- Bertrand, L. & Petrie, C., The History of Spain. The English tr. by W.
B. Wells. London, 1934.
- Besant, W. & Palmer, E., Jerusalem, the City of Herod and Saladin.
London, 1899.
- Blanchet, D. & Pinard. J., Cours Complet d'Histoire de France. Paris,
1912.
- Bordeaux, H., Un Précurseur : Vie, mort et survie de Saint Louis, Rei
de France. Paris, 1949.
- Bouchier, E., A Short History of Antioch 300 B.C.-A.D. 1269.
Oxford, 1921.
- Boulenger, K., La vie de Saint Louis. Paris. 1929.
- Bray, A., The Good St. Louis and his Times. London, 1870.
- Bréhier, L., L'Église et l'Orient au Moyen âge : Les Croisades. 5 me.
éd, Paris, 1928.

Brockelmann, C., Geschichte der Arabischen Litteratur. 5 vols.
Leiden, 1937-1948.

Browne, E., A Literary History of Persia. 3 vols. Cambridge. 1951.

Cahun, L., Introduction a l'histoire de l'Asie, Turce et Mongols, des
Origines à 1405. Paris, 1896.

Calmette, J., Le Monde Féodal, Avant-Propes de S Charléty. Paris,
1937.

Calthrop, M., The Crusades. London (N.D.) (The People's Books).

Campbell, G., The Crusades. London, 1935.

Chalandon, F.,

1- Essai sur le Règne d'Alexis Ier. Comnène. Paris, 1900.

2- Histoire de la Première Croisade Jusqu'à l'élection de Godefroi
de Bouillon. Paris, 1925.

Chanteur, C., Petite histoire de Syrie et du Liban. Beyrouth, 1924.

Combe, E., Sauvaget, J. & Wiet, G. (pub.), Répertoire Chronologique
d'Épigraphie Arabe. 14 vols. Le Caire, 1931-43.

Conder, C.R.,

1- The City of Jerusalem. London, 1909.

2- The Latin Kingdom of Jerusalem. 1099-1291 A.D. London,
1897.

Coulton, G., The Inquisition. London. 1929.

- Daniel-Rops, L'Église de la Cathédrale et de la Croisade. Paris, 1952.
- Daru, Le Comte, Histoire de la république de Venise, 10 tomes.
Bruxelles, 1840.
- Davia, E. J. The Invasion of Egypt in A. D. 1249 (A. H. 047) by Louis IX of France (St. Louis) and a history of the contemporary sultans of Egypt. London, 1897.
- Davis, H.W.C.,
- 1- England under the Normans and Angevins. 1066-1272. 9th. ed. London, 1928. Cf. A History of England in 7 vols. (vol. II).
 - 2- Medieval Europe. London. 1941.
- Defrémery, M.C., Nouvelles Recherches sur les Ismaéliens ou Bathinlens de Syrie, plus, connus sous le nom d'Assassins, et principalement sur leurs rapports avec les états Chrétiens d'Orient. Cf. J. A. 5^e série, t. V. 1855, pp. 5-76.
- Deguignes, C.L., Histoire générale des Huns, des Turcs, des Mongols, et des autres Tartares occidentaux avant et depuis Jesus-Christ Jusqu' à present. 4 t en 5 vols. Paris, 1756-8.
- Delaville Le Roulx, J., Les Hospitaliers en Terre Sainte et a Chypre (1100-1310) Paris, 1904.
- d'Ohsson, C, Histoire des Mongols, depuis Tehingviz-khan jusqu' à Timour Bey ou Tamerlan. 3rd. ed. 4 vols. Amsterdam, 1852.

Dubour, M. & Valmont, M., Tartarie, Béloutchistan, Butan et Népal.
Paris, 1848.

Dussaud, R., Topographie Historique de la Syrie Antique et
Médiévale. Paris, 1927.

Fisher, H., A History of Europe. 3 vols. London, 1935.

Funck-Brentsno, F., Les Croisades. Paris, 1934.

Gibbon, E., The Crusades A. D. 1095-1291. London, 1870.

Grébaut, S., L'expansion nestorienne on Asie par F. Nau. Cf. R. O. C.,
2e. Série, t. IX, 1914. pp. 334-6.

Grousset, R.,

1- Histoire des Croisades et du Royaume Franc de Jérusalem 3
vols. Paris, 1948.

2- L'Epopée des Croisades. Paris, 1947.

3- The Sum of History. English. English Version by A. and A.
Temple Patterson. Oxford, 1951.

Guérin, V., Jérusalem, son histoire, sa description, ses établissements
religieux. Paris, 1889.

Guizot, M., Saint Louis and Calvin. London, 1809.

Guyard, M.S., Un Grand Maitre des Assassins au temps de Saladin.
Cf. J.A. 7e. série, t. IX, 1877. pp. 324-489.

Hammer, J. de, Histoire de l'ordre des Assassins. Ouvrage traduit de
l'Allemand et augmenté de pièces justificatives, par J.J. Hellert
et P. A. de la Nourais. Paris, 1833.

- Hardwick, C., A History of the Christian Church. Middle Age. 2 nd. ed. London, 1881.
- Hassall, A.. France, Mediseval and Modern Oxford, 1918.
- Hastings, J. (ed.), Encyclopædia of Religion and Ethics. 12 vols. & Index vol. Edinburgh 1925-1940.
- Hélyot, Le R.P., Dictionnaire des Ordres Religieux. 4 vols. Paris, 1847-1859.
- Beyd, W., Histoire du commerce de Levant au moyen age. 2 vols. Leipzig, 1885-1886.
- Higge, H.. Palgrave's Dictionary of Political Economy. 3 vols. London, 1926.
- Hittl, P., History of Syrie including Lebanon and Palestine. London, 1951.
- Howorth, H., History of the Mongols from the 9th. to the 19 th. Century. 4 parts in 5 vols. London. 1876-1927.
- Huzayyin, S.A., Arabia and the Far East. Cairo, 1942.
- Lorga, N., Brève Histoire des Croisades et de leurs fondations en Terre Sainte, Paris, 1924.
- Jacobs, J., Geographical Discovery : How the World became known. London, 1909.
- Jullien, P. Note sur l'emplacement de l'ancienne Damiette. Le Caire, 1887. Cf. Bulletin de l'institut Égyptien. 2e. Série. No. 7. Année 1886. pp. 72-7.

King, E., The Knights Hospitallers in the Holy Land. London, 1931.

Kitchin, G., A History of France. vol. i (B C-58-A.D. 1453) 4 th.ed.
revised. Oxford, 1899.

Knox, W., The Court of a Saint. London, 1909.

Lacroir, P.,

1- Vie militaire et religieuse au moyen age et a l'époque de la
Renaissance 2e. ed. Paris, 1873.

2- La Chevalerie et les Croisades, Féodalité, Blason, Ordres
Militaires, Paris, 1887.

Lamartine, de, Voyage en Orient 1832-1833. 2 vols. Paris, 1875.

Lamb, H, The Crusades : The flame of Islam, London, 1931.

Lammens, H., La Syrie-Précis Historique. 2 vols. Beyrouth, 1921.

Lane-Poole, St.,

1- A History of Egypt in the Middle Ages. 5 th. ed. London, 1936.

2- The Story of Cairo. London, 1902.

3- The Mohammadan Dynasties, Chronological and genealogical
tables with historical instructions. Paris, 1925.

Lavisse, E., Histoire de France depuis les origines Jusqu'a la
revolution. 9 vols. Cf. t. III, II. par Ch-V. Langlois. Paris, 1911.

Le Bas, M. Annales Historiques de France. t. I. Paris 1840.

Ludlow, J.M., The Age of the Crusades. Edinburgh, 1897.

Mahler, Ed., Wustefeld-Mahler'sche Vergleichungs-Tabellen der mohammedanischen und christlichen zeitrechnag. Leipzig, 1926.

Maillet, de. Description de l'Egypte, Composee sur les memoires de Mr. Maillet par le Mascrier, 2t. en 1, vol. Le Haye, 1740.

Maimbourg. P., Histoire Universelle des Croissdes d'après le principaux historiens. Paris, 1868.

Mas Latrie, M.L. de.,

1- Histo re de l'île de Chypre sous le régime des princes de la maison de Lusignan. 3 vols. Paris, 1851, 52, 54.

2- Les Patriarches Latins de Jérusalem. Cf. R. O. L., t. I, 1893. pp. 16-41.

3- Les Partiarches Latins d'Antioche. Cf. R. O.L., t. II, 1894, pp. 192-205.

Maspero, J. & Wiet, G., Matériaux pour servir à la Géographie de l'Égypte. 2 fasc. - Mémoires publiés par les Membres de l'Institut Français d'Archéologie Orientale du Caire. t. XXXVI. Le Caire, 1914-1919.

Masson, G., Mediaeval France, from the reign of Hugues Capet to the beginning of the 16th century. London, 1888.

Maycock, A., The Papacy, London, 1928.

Mekilliam , A., A Chronicle of the Popes from St. Peter to Pius X.
London, 1912.

Michaud, M., Histoire des Croisades. 7t. Paris, 1819-1822.

Micheist, M., The History of France, tr. by Walter K. Kelly. 2 vols.
London, 1844-6.

Miller., G., History, Philosophically illustrated from the fall of the
Roman Empire to the French Revolution. 4 vols. London,
1849-1852.

Miller, W., Mediseval Rome from Hildebrand to Clement VIII
(1073-1600). London, 1901.

Molinier, A., Les sources de l'histoire de France depuis les origines
jusqu'en 1815 Cf. vol. III : les Capétlens, 1180-1328. Paris,
1903.

“
Moule, A., Christians in China before the year 1550. London, 1930.

Newton, A (ed.). Travel and Travellers of the Middle Ages. London,
.1930.

Oman, C., A History of the Art of War in the Middle Ages. 2 vols,
2nd. ed. revised and enlarged. London, 1924.

Omar Tousson, Mémoire sur l'histoire du Nil. 3 t. Le Caire, 1925.

Paris, G., Mediaeval French Literature, tr. from the french by H.
Lynch. London, 1903

Pelliot, P., Les Mongols et la Papauté. Three extracts from R. O.C.
Paris, 1923-4.

Perry, F., Saint Louis (Louis IX of France) the most Christian King
New York, London, 1901.

Petit-Dulaillis, C., La Monarchie Feodale en France et en Angleterre
(Xe-XIIIe siècle). Paris, 1933.

Pirenne J., Les Grands Courants de l'Histoire Universelle, Cf. T.II : de
l'expansion Musulmane aux traites de Westphalie. 3e. ed.
Neuchâtel, 1947.

Pococke, R., Voyages en Orient. Tr. de l'Anglais sur la 2e. ed. par un
Société de Gens de Lettres. 7 vols. Paris, 1772-73.

Power, E., The Opening of the Land Routes to Cathay. Cf. Travel and
Travellers of the Middle Ages, pp. 124-158.

Previté-Orton, C., A History of Europe from 1198 to 1378. London,
1937.

Réshand, M., Note sur la prison de Louis IX à Monsourah. Tr. et
présenté à l'Institut Égyptien par Yacoub Artin. Le Caire, 1887.
Cf. Bulletin de l'Institut Égyptien. 2e. Série-No. 7. Année 1886,
pp. 78-89.

Rey, E.G.,

1- Essai sur la domination française en Syrie durant le moyen âge.
Paris, 1866.

- 2- Les Familles d'Outre-Mer de Du Cange, publiées par M.E.G. Rey. Paris, 1869.
- 3- Etude sur les Monuments de l'Architecture Militaire des Croisés en Syrie et dans l'Ile de Chypre. Paris, 1871.
- 4- Les Colonies franques de Syrie aux XII^{me}. et XIII^{me}. Siècles Paris, 1883.
- 5- Résumé Chronologique de l'Histoire des Princes d'Antioche, Cf. R. O.L., t. IV, 1896, pp. 321-407.
- 6- Les dignitaires de la principauté d'Antioche. Grands-Officiers et patriarches (XI^e-XIII^esiècle) Cf. R. O. L., t. VIII, 1900-1901, pp. 116-157.

Röhrich, R.,

- 1- Études sur les derniers temps du royaume de Jérusalem. Cf. A. O. L. t. I, pp. 617-652.
- 2- Geschichte des königreichs Jerusalem (1100-1201). Innsbruck, 1898.

Ross. E., Prester John and the Empire of Ethiopia Cf. Travel and Travellers of the Middle Ages, pp. 174-194. .

Runciman, S.,

- 1- Byzantine Civilisation. London. 1948.
- 2- The First Crusade, Vol. I. Cambridge, 1951.

Schefer, C., Etude sur la Devise des Chemins de Babiloine, Mémoire
envoyé en Europe vers 1289-1290 par les Hospitaliers. Cf. A.O.
L., t. II, pp. 79-101. Paris, 1884.

Schlegel, F.von, The Philosophy of History, tr. from the German by
J.B. Robertson. London, 1846.

Schlumberger, G.,

1- Campagnes du Roi Amaury Ier. de Jérusalem en Égypte, au XIIe.
siècle. Paris, 1906.

2- Les principautés franques du levant d'après les plus récentes
découvertes de la numismatique. Paris, 1877.

Sedillot, L, Histoire générale des Arabes. 2e . ed. T. I. Paris. 1877.

Sepet, M., Saint Louis. London, 1899.

Shaw, T., Travels or observations, relating to several parts of Barbary
and the Levant. 3rd. ed. vol. II, Edinburgh, 1808.

Smith, G., The Historical Geography of the Holy Land. 15th. ed.
London, 1909.

Stevenson, W., The Crusaders in the East. Cambridge, 1907.

Stubbs, W.,

1- Germany in the Early Middle Ages, 476-1250, ed. by A. Hassall.
London, 1908.

2- Germany in the Later Middle Ages, 1200-1500. by A. Hassall.
London, 1908.

Sykes, N., The History of England London (N.D.)

Sykes, P.,

1- A History of Exploration from the Earliest Times to the Present Day. London, 1933.

2- A History of Persia. 2 vols. London, 1951.

Taylor, I., The Alphabet : An account of the origin and development of letters. 2 vols. London, 1883.

Taylor, W., The History of Mohammedanism and its Sects. 3rd. d. London, 1851.

Tenison, E., Chivalry and the Wounded. The Hospitallers of St. John of Jerusalem (1014-1914). London, 1914.

Tilley, A., Medieval France Cambridge, 1922.

Tout, T.,

1- The history of England from the accession of Henry III, to the death of Edward III. (1216-1377). London, 1905.

2- The empire and the papacy, European history, 918-1273. London, 1909.

3- France and England Their relations in the Middle Ages and now. Manchester, 1922.

Trudon des Ormes, A., Listes des Maisons et de quelques dignitaires de l'ordre du Temple, en Syrie, en Chypre, et en France, d'après les pièces du procès. Cf. R.O.L., t. V., 1897, pp. 389-459.

- Turberville, A., Mediaeval Heresy and the Inquisition. London, 1920.
- Vambéry, A., History of Bokhara from the earliest period down to the present. London, 1873.
- Vasiliev, A., Histoire de l'Empire Byzantin, tr. du Russe par p. Brodin et A. Bourguina. Préface de M. Ch.Diehl. 2 vols. Paris, 1932.
- Wallon, H. Saint Louis et son temps. 2 vols. Paris, 1875.
- Walsh, Le Vicomte, Saint Louis et son Siécke. Tours, 1876.
- Waison, C., The Story of Jerusalem. London, 1929.
- Wiet, G., T. IV de l'histoire de la Nation Egyptenne, l'Egypte Arabe de la conquete Arabe a la conquete Ottoman. Paris, 1937.
- Woodhouse, F., The military religious orders of the middle ages : The Hospitallers, the Templars, The Teutonic Knights, and others. London, 1879.
- Youssef Kamal, Monumenta Cartographica Africae et Aegypti. t. III. Epoque Arabe, 5 fasc (1930-5).
- Zambaur, E.ed., Manuel de genealogie et de chronologie pour l'histoire de l'Islam. Hanovre, 1927.



الفهرس

الصفحة	الموضوع
٥	المقدمة
٩	الفصل الأول أوروبا في بدء ظهور الحركة الصليبية.
١٩	الفصل الثاني الإسلام والمسيحية
٦٥	الفصل الثالث ظهور النورمان في آسيا الصغرى
٨١	الفصل الرابع الحملة الصليبية
٢٢٥	الفصل الخامس الحياة الاجتماعية والحربية للصليبيين في الشام
١٣٣	الفصل السادس القوى الإسلامية في الشرق الإسلامي
١٥٥	الفصل السابع الحملة الصليبية من الثانية حتى السادسة
١٦٧	الفصل الثامن الحملة الصليبية السابعة
١٨١	الفصل التاسع لويس التاسع في بلاد الشام
١٨٧	الفصل العاشر الموقف بين المسلمين والصليبيين في مصر والشام
١٩٥	الفصل الحادي عشر المسلمون والصليبيون والمغول
٢١٧	المصادر والمراجع
٢٤٥	الفهرس